الجمهورية العربية المتحدة ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

أؤمن بالإنسان

تأليف
الأستاذ عبد المنعم محمد خلاف

لجنة
التعريف بالإسلام

لجنة
التعريف بالإسلام
يصدرها
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
بالقاهرة

أؤمن بالإنسان

نظرة جديدة الى الكون من خلال نظرة جديدة الى الانسان .

وهتاف من أعماق الفكر والضمير لبناء العلم والحضارة والسلام العامى على عقيدة يوحيها التأمل فى أسرار الانسان وأعماله فى الطبيعة .

عبد المنعم خلاف

يشرف على إصدارها
محمد توفيق عويضة

الكتاب السابع عشر
١٣٨٥ - ١٩٦٥

تقديم

بقلم فقيد الفكر الاسلامي والأدب النفسى
الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الأزهر
ووزير الأوقاف الأسبق

لما لقيت الأستاذ عبد المنعم خلاف أول ما لقيته كدت أعرف من هو من قبل أن أسأله من أنت ، فقد توسمت فى وجهه ملامح من سمات أبيه رحمه الله . وكان أبوه رجلا من كبار العلماء فى الأزهر ومن كبار الصالحين، وكنا نستفيد من علمه وكنا نلتمس من بركته . ففى جيلنا كان الناس يؤمنون بأن فى بعضهم بركة ، وأن صفاء القلب وقوة الايمان تجعل الأرواح فياضة بالخير ، وتجعل دعواتها مفتحة لها أبواب السماء .

واصلت معرفتى بالأستاذ عبد المنعم بعد هذا ، وقرأت كثيرا مما يكتبه ، فازددت يقينا بأنه ورث من أبيه العلم وورث من أبيه التقى . وقد قرأت كتابه ، فوجدت فيه عقلا ودينا . واذا كان أبو العلاء يقول :

اثنان أهل الأرض : ذو عقل بلا دين ، وآخر دين لا عقل له

فان فى الناس على رغم أبى العلاء من لهم عقل ودين .

والأستاذ عبد المنعم خلاف يريد فى كتابه أن يؤمن البشر بأن الانسان أكرم أنواع الكائنات الأرضية ، وأن يكون فى هذا الايمان سبيلا الى تحليهم بأشرف الفضائل ، والى تسامى جماعاتهم الى أرقى السعادات الاجتماعية .

يبسط الأستاذ القول فى هذه المعانى ويفصله فى حماسة تخيل اليك كما خيلت اليه أنه اكتشف نظرية فى الكون جديدة ، وقد لا يكون الأستاذ اكتشف نظرية جديدة ، ولكنه اتجه بكل ما فى نفسه من شباب وايمان وذكاء الى تقرير معنى السمو فى الطبيعة الانسانية ، والى دفع الشعوب الى الخير من هذه الناحية ، وهذا صنع مشكور فى موضوعه وفى غايته .

والمرجو أن ينتهى جد الأستاذ فى تفكيره ودرسه الى فلسفة تكون جديدة حقا ، ويكون أثرها فى اسعاد الانسانية عظيما ان شاء الله .

مصطفى عبد الرازق

إهداء

إلى الأبطال الثلاثة:

التوراة والإنجيل، والقرآن!

الذين ثبتوا يكافحون فى الدهر الأطول:
قوى الظلام والطغيان والهوان، نضالا
عن كرامة روح الإنسان!

ابتهال ، ورجاء ، وتعريف

بسم الله الرحمن الرحيم

وبسم الله السلام المؤمن !

أبتهل الى الله العلى الكبير مكرم الانسان بهذا الابتهال العميق الذى ابتهل به « فرانكلين روزفلت » رئيس « الولايات المتحدة الأمريكية » الراحل ، وأعظم معاصر مسئول عبر عن الروح المؤمنة بالانسان .

قال حين خطب فى يونيه سنة ١٩٤٢ فى « يوم العلم » والاحتفال « بنصريح الأمم المتحدة » :

« الهنا ! يا مانح الحرية . اننا نضع أفئدتنا وأرواحنا اليوم رهن قضية حرية الجنس البشرى كافة . امنحنا اللهم الايمان والفهم لنحيا ونعتز بالذين يحاربون من أجل الحرية كما لو كانوا اخوة لنا . امنحنا اللهم التآخى فى الأمل والاتحاد ، لا فى فترة الحرب المريرة فحسب ، بل فى الأيام المقبلة أيضا ، وهى الأيام التى يجب أن توحد — وسوف توحد ! — جميع أبناء هذه الأرض . فاذا ما ظلم اخوتنا فنحن كذلك مظلومون ، واذا كانوا جياعا فنحن كذلك جياع ، واذا كانت الحرية قد انتزعت منهم فان حريتنا غير مصونة » .

« امنحنا اللهم ايمانا مشتركا بأن الانسان سيكون له الخير والسلم ، والعدالة والبر ، والحرية والأمان ، وتساوى الفرص ، لا فى وطننا فحسب ، بل فى جميع آنحاء العالم أيضا » .

* * *

وكان الناس يرجون من (الولايات المتحدة الأمريكية) أن تسير عقب الحرب الثانية على مقتضى منطق هذا الابتهال وبادراك عميق لما فيه من حقائق الحياة والعلم والايمان ، لا على « مناورات » السياسة والاقتصاد والمصالح

المادية الخاصة وحب القهر ، اذ كانت أقرب النماذج الدولية الغربية الى الحياة المنشودة بين الأجناس والأديان والشعوب .

وكانوا يرجون أن تدرك رسالتها العظمى فى توطيد حياة السلام والعدالة الدولية والانصاف للشعوب الصغرى ، فلا تنساها أو تتكاسل عن تحقيقها . كما نسيت وتكاسلت بعد الحرب العالمية الأولى ، فكان جزاؤها أن اضطرت مرة أخرى الى بذل هذا الجهد الجبار بالدم والمال والموارد المادية وقوى الكفاح .. وكان يسعدها ويسعد العالم لو بذل نصفه أو أقل من نصفه فى حياة السلام والاستقرار قبل الحرب الثانية .

ولقد قال الراحل (وندل ويلكى) منافس (روزفلت) فى انتخابات سنة ١٩٤٠ بتاريخ ١٩٤٢/١/١٤ — « اننا جميعا نلوم (هتلر) وحده ، بيد أن هذه الفكرة السطحية ليست صحيحة ، فاللوم لا يقع على « هتلر » وحده ، بل ينصب علينا الى حد ما ؛ فلقد سمحنا فى الماضى لانتاجنا الصناعى العظيم أن يتحكم فينا ، وأن يتغلب على مثلنا العليا » .

أجل ، هذا هو موضع الداء وضع (ويلكى) أصبعه عليه .. فان « الولايات المتحدة الأمريكية » كان يجب أن يكون موقفها بعد الحرب الأولى والحرب الثانية موقف « موجه » من عالم جديد سعيد بتناسى أحقاده الجنسية وفوارقه السطحية ، الى العالم القديم الذى لا يزال رهين هذه الأحقاد .

بل كان يجب أن يكون موقفها موقف المدافع عن حرمات الشعوب الضعيفة ، الساعى الى رد الحقوق المغصوبة ، بعد أن كان انضمامها الى الحلفاء فى الحربين السابقتين أعظم مرجح لكفتهم ، وبعد أن تلقى المعسكران المتحاربان مبادىء رئيسيها العظيمين (ويلسون وروزفلت) باللهفة والتفاؤل والاستبشار . وكان فيها المثل المنشود . وكان شرف أمريكا يقضى عليها أن تقوم على تنفيذ تلك المبادىء التى قدمت باسمها ، وأن تجمع حولها كل مظلوم من الدول والأمم وتعلن الحرب الدائمة على كل من ينقض عهد تلك المبادىء ، حتى يفىء الى أمرها . تنفيذاً لقول رئيسها (روزفلت) بعد أن هاجمت اليابان (بيرل هاربور) بيومين ، اذ قال مخاطبا الأمريكيين «عندما

نلجأ الى القوة ، كما هو محتم علينا الآن ، فاننا نعقد العزم على أن نوجه تلك القوة الى الخير النهائى كما أنها توجه الى الشر المباشر الآن . ونحن الأمريكيين لسنا هدامين ، بل بناؤون . ونحن الآن وسط حرب ليست غايتها الفتح ، ولا هى لأجل الانتقام . بل لأجل عالم يعيش فيه أولادنا فى أمن . واننا سنكسب هذه الحرب كما سنكسب السلم الذى يعقبها »

وتنفيذا لقوله فى وصية أخرى فى ابريل سنة ١٩٤٥ « كونوا أيها الأمريكيون رجالا يقاتلون لفكرة مثلى ، لا من أجل أمريكا وحدها بل للانسانية جميعها » .

هكذا كان الناس يرجون من أمريكا ويرجون .. ولكن مع الأسف البالغ لم يتحقق من رجائهم شىء يسعف الآمال الانسانية التى كانت معقودة عليها . بل ان ما بدا منها من مناصرة مستمرة للصهيونية العنصرية الطاغية فى فلسطين ، وتشريد لمليون عربى من أوطانهم ، ومن تمييز واضطهاد عنصرى عنيف فى الولايات المتحدة نفسها قد عكس الآمال فيها الى شبه يأس منها .

* * *

« وبعد » فهذا الكتاب حلقة من سلسلة ذات خمس حلقات : هى محاولة أحاول بها التمهيد الفكرى والوجدانى لقيام الحضارة الروحية المادية التى هى أمل الانسانية جميعها . وذلك :

١ -- بنظرة جديدة للكون من خلال نظرة جديدة الى الانسان ترفع مكانته لدى نفسه ، وتنمى ثقته وايمانه بنوعه ، وادراكه أسرار خلقه وفكره وجهده وتنوعه شعوبا وألوانا .

٢ -- وبربط روحه بمصدرها الالهى ربطا وثيقا على هدى من العلم والدين .

٣ -- وبوصل عقله بأعماق الطبيعة وأسرار الحياة ، حتى يشعر بالانسجام مع الكون كله .

٤ -- وبعقد صداقة وثيقة بين ضميره والمعانى العليا للحياة ، وهى : الايمان ، والحق ، والجمال ، والقوة ، والحب ، والخير ،

بعد ما أصابه من هذيان الفلسفات المادية الجامحة ، وشوشرة المذاهب الهدامة ، التى كان من نتائجها طوفان الدم والوحل الذى طم على الانسانية كلها فى الحرب العالمية الثانية ويوشك أن يقضى عليها فى حرب ثالثة اذا لم تتداركها العناية الالهية .

٥ — وبملء قلبه بنفحات التفاؤل الرحب ، والصبر الجميل ، والاستعلاء الأبى على أسباب التشاؤم والألم والسخط والانتقاض .

٦ — وبحمل جهده على عزائم الكفاح والسيطرة على القوى المادية العمياء لتسخيرها وتثميرها للنفع العام .

٧ — وبانهاض أسرة الأمم الاسلامية حتى تؤدى نصيبها فى الحضارة المنشودة ، على قدم المساواة مع أسرة الأمم المسيحية والأسرة اليهودية .

* * *

وهذا الكتاب كذلك محاولة من « الروح الشرقى » الذى كان ولا يزال ذخره وعماده فى مراحل التاريخ : الاتجاه الى خالق الوجود بالفكر والصلاة والبكاء ، والاستمداد مما يلقيه فى أعماق الضمير من الهام وحب وطهر وصفاء واحالة على الغيب حين العجز عن حل مشكلات الفكر، والعيش بغير أسلوب الفكر المادى الذى يتناول مشكلات العالم وعقده وخروقه بأسلوبه الواقعى الضيق المعروف ، ولا يصدر غالبا الا عن المصلحة القريبة المنظورة المؤقتة ، ويعالج الأمور بالذكاء وحده ، ولا يستعين معه بالايمان بالقيم العليا للحياة .

ومما أنشده فى هذا الكتاب ، استمرار الناس على اقرار خلاصة رأى الأديان السماوية الثلاثة الكبرى التى نمت حضارتنا فى وصايتها وما تزال مسيطرة على أعظم أمم العالم قديما وحديثا ، وهى اليهودية والمسيحية والاسلام ، فى تشريف هذا الجنس البشرى ، والايمان به وبسمو الغايات التى خلق لها ، وأولها وأعظمها الايمان بالله بارىء الكون ، واستمداد الضمير منه .

ولم أهمل الاعتراف بأى جانب من جوانب الانسان الروحية والمادية ، ولم أر أن فى حذقه المادى وقدرته الابتداعية أى باعث له على الغرور والفجور وجحود الايمان ، بل على العكس رأيت هذا الجانب منه أعظم الأسباب التى تحتم عليه أن يكون ايمانه بنفسه أعظم وسيلة لايمانه بمن خلق فى نفسه هذه القدرة الابتداعية النامية المنمية !

ولم أحذ حذو الروحيين المغرقين فى الروحية ، والمهملين للجانب المادى ، ولا حذو الماديين الحسيين المستغرقين فى حياة المادة مع عدم الاعتراف بما وراءها ، بل اتخذت الموقف المعقول بين بين .

وقد زعمت أنى اهتديت الى القضية الفكرية والدينية الأولى حين أقرر « ان الايمان بالانسان سابق على غيره من قضايا الدين والفكر ، لأن الفرد الانسانى لن يؤمن بالكون ورب الكون ان لم يؤمن بنوعه ، اذ أننا لا ندرك الكون وربه الا بعقل النوع الانسانى ، فاذا أهدرنا قيمة الانسان أهدرنا عقله ، فلا يبقى لنا ما ندرك به الكون ورب الكون ! »

وحسبنا هذا من حامل على الايمان بالانسان لضمان قيم وجودنا الروحى ، ومنطقنا الفكرى والعملى .

فان لم أكن سبقت الى الاهتداء الى هذه القضية ، فهذا الزعم صحيح ! ونعم هو من توفيق أحمد الله عليه أجل الحمد . !

ولا يخفى ما وراء الاعتقاد بصدق هذه القضية ، والعمل بمقتضاها ، من مبادلة السلام والاحترام والانصاف بين الناس جميعا .

فلنفتح ضمير كل أمرىء بهذه القضية التى صار من السهل اثباتها ، ومن مصلحة كل فرد تحقيقها .

ولنؤمن بها لنعمل عمل المتفائلين الذين تغمر قلوبهم نشوة الجهاد فى سبيل بناء عالم انسانى جديد سعيد ، بعد هذا العالم القديم الشقى الذى تداعى تحت معاول الجحود والجشع والأنانية والجهالة والحقد والاغتصاب .

نعم ، لنؤمن ولنعمل ما يقتضيه الايمـان ، وليس علينـا أن ندرك النجاح ، فقد يكون « الايمان ــ وليس النجاح ــ هو غاية الحياة » كما يقول الكاتب الفرنسى الفقيد « رومان رولان » .

لنؤمن ولنسالم ، لنكون مع الله « السلام المؤمن » !

عبد المنعم محمد خلاف

القاهرة فى يوم الجمعة { ٥ من رجب سنة ١٣٦٤
... ... { ١٥ من يونية سنة ١٩٤٥

ملحوظة : شرع فى طبع هذا الكتاب الطبعة الأولى قبيل انتهـاء الحرب العالمية الثانية فى أوروبا ، وفرغ منه بعد انتهائها فيهـا ؛ ولذلك جاء الحديث عنها مختلف الصيغة الزمانية .

مقدمة الطبعة الثانية

هـذه هى الطبعة الثانية لهذا الكتاب وقد رأى اصدارها (المجلس الأعلى للشئون الاسلامية) الذى ينهض بأعباء عصرية ضخمة فى خـدمة الدعوة الاسلامية والتعريف بها على نطاق عالمى ، وفى توثيق الأواصر بين المسلمين .. فله صادق الشكر .

وقد أثارت فكرة الكتـاب عند ظهورها جدلا كثيرا فى معسـكرى الدينيين الحرفيين والملحدين المنكرين للدين ؛ فحسبها الأولون خروجا على رأى القرآن الكريم فى الانسان ، مستشهدين بمثـل قوله تعـالى « وحملها الانسان انه كان ظلوما جهولا » « وكان الانسان لربه كفورا » الى آخر الأوصاف التى كشف بها القرآن عن جانب الشر فى طبيعة النفس البشرية ليحذر كل فرد من تغلب ذلك الجانب على جانب الخير الذى فى طبيعة تلك النفس كذلك ، ويكشف عنه القرآن أيضا فى مثل قوله تعالى « وهديناه النجدين » « انا هديناه السبيل اما شـاكرا واما كفـورا » « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها » . الى آخـر ما أفضنا الحديث عنه فى فصل « فى معترك الآراء » من هذا الكتاب .

ولم تنفطن تلك العقول الدينية الحرفية الى ما وضعه هذا الكتاب من أساس مكين للتفكير الاثباتى فى الجدل عن الدين والعلم والحيـاة ، ليبطل جدل الذين يدينون بالشك ومذهب الاحتمالات فى كل شىء ولا يرون فى الكون كله حقيقة واحدة ثابتة ، ولو كانت ذات الانسان الذى يحملونه فى أنفسهم ! وجدل الذين لا يرون فى الكون الا طبيعته المادية وحدها ، مغفلين ما وراء تلك الطبيعة من عالم التدبير « والأمر » الذى دبرها وخططها وأمدها بالوجود والظهور فبرزت ووجدت .

كما لم تنفطن الى حركة الالتفاف التى يتحركها الـكتاب وراء تلك الأفكار ، اذ اعتمد على العمل العلمى المادى الذى يعمله الانسان الآن فى التكوين والتخريب وكشف المجهولات من رحاب الطبيعة وتسخير قواها ،

للاستدلال بذلك على قيمة الانسان فى الكون ، وعلى اتجاه ارادة الخالق به وحكمته تعالى من وجوده .

أما الملحدون فقد حسب بعضهم ان هذا الكتاب باب يلجون منه الى هدم الدين والدعوة للاستغناء عنه ، واتخذوه وسيلة يحققون بها الوصول الى شهوة صغيرة أو شهوة كاذبة لأنفسهم بادعاء الحرية الفكرية والسبق الى الثورة فى فهم الدين والعقل والحياة .. كما فعل المدعو (عبد الله القصيمى النجدى) فى كتابه الذى سطا فيه على (أومن بالانسان) و (الحياة صادقة) (١) بدون أية اشارة الى الأخذ منهما ، وضل بسبب سوء فهمه لهما أو سوء قصده ، وأدار على محاورهما المستقيمة حديث كتابه المنحرف المشبوه .. وكتب تحت عنوانه : « سيقول مؤرخو الفكر : انه بهذا الكتاب ابتدأت الأمم العربية تبصر طريق العقل » و « انه ثورة فى فهم الدين والعقل والحياة » .

ولا شك ان مؤرخى الفكر اذا قالوا هذا ، فلكتاب آخر . . هو مصدر الآراء الصحيحة فى كتاب القصيمى (٢) .

وقد بدت فعلا طلائع هذا القول منذ أن أشار اليه فقيد الفكر الاسلامى الأستاذ الأكبر الشيخ (مصطفى عبد الرازق) فى تقديم الكتاب ومنذ أن كتب الدكتور (جون بادو) مدير الجامعة الأميريكية . وسفير الولايات المتحدة سابقا بالقاهرة يقول « أنا على ثقة أنه (الكتاب) اضافة أصيلة للفكر فى مصر » (٣) .

وقد وقعت فى هذه الفترة بين الطبعتين أحداث وجرت تطورات تاريخية فى التحرر السياسى والاقتصادى والاجتماعى للانسان ، واطرد اتساع علمه وقدرته وتسخيره لقوى الطبيعة .. وقد سارت كل هذه الأحداث والظواهر فى اتجاه التأييد لفكرة الكتاب .

---

(١) بحث آخر للمؤلف .

(٢) أنظر البيان الذى فى أول كتاب « العقل المؤمن » للمؤلف .

(٣) and J am sure it is a real contribution to Egypt.

من رسالة بعث بها دكتور بادو للمؤلف سنة ١٩٤٥ .

وحسبنا أن نشير الى أمرين : الأول ما ظهر فى المجال العلمى الطبيعى، والثانى ما ظهر فى المجال المعنوى السياسى والاجتماعى .

أما الأمر الأول فهو هـذا الطارق الذرى الجبـار الذى أطلقـته الانسانية من طاقات الذرات وسخرته وانطلقت به تحاول النفاذ من أقطار الأرض لتسبح فى عالم الفضاء الكونى والكواكب فى مرحلة جديدة من فتوحها ، بعد أن درعت وحصنت جسمها وأخذت أهبتها لهذا السفر من الأرض للسماء ..

وسواء تم للانسانية ما أرادت من مقاومة المؤثرات التى فى الفضـاء الكونى حتى تهيىء لنفسها مهادا صالحا لعيشها هناك كما تعيش بمثله هنا على الأرض ، أم لم تصل الى هذه النهاية وكان غرض العناية الالهية فقط أن تبرهن بهذا الفعل من الانسان على صدق ما سبق أن حدثته به من اصعاد بعض المصطفين الأخيار من بنى البشر الى هناك ، معجزة وكرامة لهم ، حتى تقوم الحجة على المفكرين ، ولا يكذب مكذب حـديث تلك المعجزات والكرامات التى أشارت بها تلك العناية مبـكرا الى مستقبل الانسان .. أقول سواء كان هـذا الغرض أم ذاك ، فان العمـل فى ذاته عظيم ! فى تجديد البرهنة على قيمة الانسان ووضعه فى الوجود ، وأنه ليس شيئا تافها ، ولا هو مخلوق عبثا بدون غاية أو حكمة أو قصد الى مصير مرسوم ، وانما هو ، كما تقول . دائما قانون ينمو فى ذاته وينمى الطبيعة معه ، ومفسر [1] بعمله لكلمات الله الكونية وأفعاله وارادته تعالى من بيان ما فى غيب السموات والأرض عن طريق الانسان ..

وقد كان فرحى بنجـاح رواد الفضاء فى الانطلاق بمراكبهم والخروج منهـا والسبح والتقلب بالجسم هنـاك ، كفرحى يوم طالعت الاعلان عن صدور (أومن بالانسان) فى طبعته الأولى بصحيفة (الأهرام) منشورا تحت خبر الوصول الى سر القنبلة الذرية الذى أعلنه (ترومان) و (اتلى)، فشعرت حينذاك أن هذا التوافق العجيب انما هو اشارة « تصديق » من الأقدار على فكرة الكتاب .

---

(١) بينا هذا فى بحث « المادية الاسلامية وأبعادها » .

ولقد ظل هذا الاعلان ينتظر فى (الاهرام) دوره فى النشر ما يزيد على شهر حتى اتى ذلك اليوم ، ولو خيرت ما اخرت غير هذه المناسبة للاعلان ولو تأخر شهورا أخرى . . ولو طولبت بأجر على ذلك التـأخير وتلك الموافقة التاريخية لدفعته عن طيب خاطر .. فانه ليس بالقليل أن ترى الأقدار تؤنسـك بلفتة من لفتاتها ، وتتطوع لتصديق رأيك بتقديم دليل جـديد يؤيدك وأنت فى شك مما سيقابلك الناس به غداة الاعلان على رءوس الاشهاد عن قضيتك « أومن بالانسـان » .

وحسـبك من جزاء على التبشير بمستقبل الانسـان فى زمن الشك والجحود بقيمته ، أن ترى أو تسمع كلمة تصديق وتشجيع ينطق بها ناطق الزمان فجأة وعلى غير ترقب وانتظار !

وانه لنصر فى أول الطريق يثير الشجاعة على المضى الى آخره ، حين تحس أن الكون معك بهتافاته وارهاصاته !

وان قضية يعلن عنها وتدخل الأذهان مع صدى ذلك الطارق الجبار الذى تنسف به القدرة الانسانية مدينة وتترك عاليها سافلها فى لحظة ، أو تطلق به انسانا أو عددا من الناس فى مركب صاروخى الى عتبات الكواكب فى لحظات .. لقضية ينبغى أن تكون عمادا جديدا لتجديد الدعوة الدينية الى اقرار القيمة العليا لرب الوجود وقيمة خليفته فى الأرض ، لا أن تكون معولا لهدم الدين أو هدم الانسان أو سببا فى غروره والحاده ، كما يتوهم فارغو الرؤس من الحكمة وفارغو القلوب من التذوق !

وأما الأمر الثـانى فهو التقـدم المعنوى للانسـان فى طريق الحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وانتصار الشعوب المكافحة لاسترداد حرياتها ، وتحطم أغلال العبودية والاستعمار والاسـتغلال والاذلال عن أكثر الأمم حتى فى أعماق القارة العذراء المتخلفة : أفريقيـا . . فلم يبق الا عدد قليل من الشعوب لما ينل بعد حقوقه وحرياته ، وعما قليل ينالون .

وقد توقعت هذا المصير الكريم للانسان فى بعض فصول هذا الكتاب، وكان هذا التوقع مبنيا على رؤية واضحة للحتمية التاريخية واقتفاء خطوات الحياة وسيرها بالانسان ، وقياس المستقبل على الماضى والحاضر :

ومثلا ، قد سارت امتنا العربية فى مصر وفى غيرها من الوطن العربى الكبير على هدى وروح من الايمان بالانسان وبنت فلسفة ثوراتها ونهضاتها على مايجب للانسان العربى وللانسان عامة من قيمة وكرامة وعزة مستمدة مما كشف عنه هــذا الكتاب لأول مرة من أسرار ومعان توحى بها قصــة خلق الانسان كما وردت فى القرآن الكريم وخاصة ما يدل عليه أمر الخالق للملائكة بالسجود لآدم فى تلك القصة .

وحسبنا أن نشير فى هذا المقام الى ماقامت به مصر ومن نحا نحوها من عناية ببناء الدولة على العدالة الاجتماعية التى هى انجع وسيلة لتصحيح قيمة الفرد الانسانى لدى نفسه وحسن ظنه بالحياة ، وللقضاء على أشــد أسباب الكفر بالدين وكل القيم ؛ الا وهو الفقر الذى « كاد أن يكون كفرا » كما يقول الأثر الشريف .. وقد حلت مصر بالعــدالة الاجتماعيــة المســألة الاقتصادية ، وسحقت رأس الأفعى التى تحدث عنها بنوع خاص هذا الكتاب فى فصول (المسألة الأفعوانية) و (جرائم التفاوت الفاحش) و (عقيدة النوع) .

عبد المنعم محمد خلاف

المعادى فى غرة المحرم سنة ١٣٨٥ هـ

الموافق ٢ من مايو سنة ١٩٦٥ م

اطرحها قضية

القضية وموازينها ـ استجابه لنداء الحياة والنفس ـ هذه الحرب ـ نتيجة الايمان بالحق المطلق والجمال المطلق ـ لاخضوع للواقع ـ هل يسمع لنا ؟ ـ تأثير المغلوبين فى الغالبين ـ الضعف السامى والقوة السافلة ـ العالم الغربى بين دوى الدم والوحل وهمس الرحمة والحب ـ لايأس ـ كنا فى أحسن تقويم وسنعود ـ أمور ثلاثة لابد منها ـ كلمة الى محترفى السياسة وسماسرة المال ـ كلمة الى عشاق الحق والسلام .

أطرحها قضية ! هى تلك الثمرة الفكرية المنطقية الموضحة فى الفصل التالى من هذا الكتاب .

وأطرح فى موازينها مواريث تلك الأرواح والعقول والقلوب التى استعلن سرها العظيم ، وتجلى جوهرها الكريم فى آباء الانسانية الأولين والآخرين : من الأنبياء والمرسلين ، والحكماء والصديقين ، والعلماء المنتهين ، والأدباء الملهمين ، والرواد المقتحمين ، والشهداء المجاهدين ، والجنود المجهولين من الزارعين والعاملين الخادمين الصابرين !

وأرسلها صيحة فكر وضمير لا مقالة كاتب يزجى لونا من ألوان « الترف العقلى » يقدمه على مائدة الكماليات فى عالم الفكر ، ليتفكه به المترفون المتشهون كل جديد من الآراء ..

وقد تعمدت أن أقلب النظرة وألتمس نقائص الانسان وأسباب الكفر به والتحقير من شأنه ، وأخذه بالنظرة المادية وحدها ، فما استطعت ذلك ، لأن وجدت حياته توحى الى أن أومن به وأعتبر ذلك الايمان أساسا لغيره من شعب الاعتقاد .

وقد تعمدت كذلك أن أقف وقفات طويلة بين مراحل تلك الفصول (١) التى تضمنها هذا الكتاب لأتبين : هل أنا مخدوع فى الطريق الذى سلكت فأعود منه وارتد عنه ؟ ولتذهب عنى فتنة ابتداء القــول والعجب به — وان لابتداء القول فتنة وعجبا كما يقول «الجاحظ» — وحاولت أن أراجع الشئون السافلة فى حياة أفراد الانسان لعلها تصرفنى عن الاعتقاد فى امكان سموه كمجموع .. ولكن كانت الأيام والوقائع وطول التأمل تزيد دائما فكرى وقلبى ايمانا بصحة ما ذهبت اليه .

وقد هتفت « أومن بالانسان ! » استجابة لنداء الحياة ونداء النفس . فقد نادتنى الحياة الانسانية الراهنة الزاخرة الى الايمان به وبمستقبله ، برغم اثمه وشره فى عصره هذا ، وحملتنى على ذلك بنبوتها ومعجزاتها . والحياة المدنية الحالية نبوة ! نبوة شيوعية .. أخذت جميع أمم الأرض بمعجزاتها وأخضعت أعناقهــم بأدواتها المأخوذة من أسرار الطبيعــة . فلنعرفها على حقيقتها ، ولنعلم أنها باب الملكوت الذى وعدت به رسالات الشرق الأولى التى وجهت الانسانية .

انها نبوة الطبيعة وقوانينها ، وحقائق الأشياء وبراهينها ، لا نبــوة الارشاد والتربيب والكلام الذى ألقاه الرجال الآباء فى سمع الانسانيــة وهى فى أدوار تكوين الضمير وتطبيع الأعصاب وتوجيه الأخلاق بالرحمة والاخلاص والايمان ، وسمو النظرة الى الانسان فى حياته هنا وفى مصيره هناك .. وهى صفات لابد منها فى المهود والمدارج (١) .

فان أنا لم أستجب لنداء هذه الحياة بالجسم الخفيف السريع ، والفكر اللطيف اللمــــاح فان الفطن لأسرارها ، والواعى لخطرها وقيمهــــا ، العارف باتجاهات قافلتها ... كنت من المتخلفين البلداء الكافرين بنعمة الله! ولله فى هذه الحياة المدنية الحالية نعم جليلة لا يكدرها الا عنف وحمــاقة وطيش من بنيها ..

---

(١) نشر كثير منها على فترات فى مجلتى الرسالة والثقافة بين سنتى ١٩٤٠ و ١٩٤٥ ونشرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة ١٩٤٥ .

وقد نادتنى النفس التى حاولت جهدى أن أحفظ لها حدودها وطابع عالمها الخاص ، وألا أسمح بطغيان الجسد عليها طغيانا يجعلها تذهل عن ذاتها وتخلط بين معدنها والمعادن الأرضية ، الى الايمان به كذلك ، وحملتنى على ذلك بما كشفته لى من آفاقها الخاصة التى لا دخل للتعليل « البيولوجى » (١) و « الفسيولوجى » (٢) فيها .

وكنت حريا — وأنا أطلب الحق — أن أستمع للنداءين فأوفق بينهما ، وأن أرى ضلال الذين عكفوا على الحياة المادية وحدها أو على الحياة الروحية وحدها ولم يزاوجوا بينهما .

وحينما فجأتنى صيحة الحرب العالمية الثانية الفاجرة الجبارة ، التى دارت طواحينها الحمراء على جماجم الانسان ، وذرت فيها رياح النار مدنه وآثاره العامرة بالجمال والحرمات ، وأحالتها خرائب وأطلالا تعمرها أشباح الهول وتتساقط عليها المصارع فى صيحات وصعقات نكراء ترسلها أفواه وحوش الحديد والفولاذ الرابضة والسائرة والسابحة والطائرة ، زلزلت فجأتها وجرائمها دعائم عقيدتى فى ذلك النوع وأملى فى مستقبله .

ولكنى عدت وقلت لنفسى : هل يمكن أن يفعل مثل هذه الأفاعيل لو كان يدرك نفسه ، ويؤمن بها ، ويعلم مدى ما يريده رب الحياة منه حين أخرجه اليها ، وجعله خليفة يخلفه خلافة واسعة فى عمارة الأرض وكشف أسرار الطبيعة ومحاكاة نماذجها وافساح مداها ؟

هل يمكن أن يفعل هذا لو كان يدرك أنه أعظم من أن يكون كغيره من ساكنات الأرض العاجزات القاصرات ، المحدودات القوى والادراك ، السائرات بالغرائز وحدها ، المحرومات مما عنده من قوى التقليد والخلق والابتكار والتسامى ؟

هل يمكن أن يغفل — لو أدرك الحقائق — عن أن موارد الأرزاق والأقوات التى يصطرع عليها ، كافية لأن يسعد بها كل فرد وكل أمة

(١) تعليل علم الحياة .

(٢) تعليل علم وظائف الأعضاء .

لو وزعت توزيعا عادلا ، ولم تطغ عليها شراهة التملك وطباع الاغتصاب والختل والأثرة والاستكثار للمباهاة والمغالبة والاستعلاء . ؟

وهل يمكن أن يفعل هذا لو كان يدرك أن كل فرد فى الانسانية انما هو ثروة لها وقوة فى كيانها لو أحسن توجيهه وتربيته ، واحترم وجوده وحقه ، ولم ينظر اليه تلك النظرة التى تهدر دمه ، وترخص روحه ، وتغفل عن أن يد الله لم تخرجه للحياة الا لغاية قد تنفع الانسانية جميعا . وقد تكون الغاية من خلقه أن يكون كناسا أو اسكافا أو خفيرا ... ولكن من ذا الذى يزعم أن الدولة ليست بحاجة الى واحد من هؤلاء كحاجتها الى ملك أو رئيس ؟ ! ان الخلايا التى نصيبها أن توضع فى مكان القذارة والنجاسة من جسم الانسان ليست أقل شأنا فى حياته من خلايا الوجه والمخ .. وانما هو قانون التوزيع بين أعضاء الجسم ، يقضى أن يكون بعضها فى الأساس المختفى وبعضها فى القمة المستعلنة ، والكل بناء واحد ، له قيمة واحدة .

وهل يمكن أن يكون الانسان الذى نراه بالعيون ضئيلا مجرما قبيحا فى بعض الوحدات ، هو الانسان الكلى الذى ندركه بالفكر والبصيرة والضمير ، حين نستعرض الكائنات الأرضية ونراه فيها ذا تفرد وذاتية خاصة ، وقدرة على التسامى الى الله ، والأخذ من علمه تعالى وأسرار صنعه ؟

وهل يمكن أن يكون الانسان المنشود هو ذلك الذاهل عن نفسه ، وعن دخوله الى الحياة وعن خروجه منها من غير اختيار ، وعن رحلته بين الأزل والأبد على هذه الأرض تلك الرحلة الغامضة فى ذلك الكون المجهول الصامت الذى لا نعلم حدوده ، ولا ندرك أبعاده ؟

كلا ! لن يكون الانسان المنشود المدرك لنفسه ووضعه هو هذا الذى نراه رهين المقابح والغفلات ، صريع الذهول والحماقات !

ان الأمر جد خطير ، تحتبس من الفكر فيه الأنفاس ، وتتلاحق النبضات ، وتحترق الخطرات !

وان الوقوف عنده وقوف على « نقطة البدء » فى الحياة ، ومن ورائها زمام الأمر كله ومقاليده !

ولما كنت من عشاق الحق المطلق والجمال المطلق ، وقد تخيلت فى نفسى صورا منهما ، ومن أحلام السعادة فى ظلالهما ، وآمنت بهما ايمان الموقن أن الانسانية مخلوقة لتسمو اليهما مهما كانت الطريق اليهما ذات وعورة وامتداد .. لذلك لم ألق بالا الى النقص والفساد والقبح الذى يشيع فى الناس الآن ، وثبت على الايمان بالسمو الاجتماعى وامكان الوصول اليه ، حين وجدت أن بالانسانية حنينا اليه ، وقدرة على اطراد التقدم فى سبيله . ولم أبال بالمعوقات والشرور ، ولم أجعل لها وزنا واعترافا الا بمقدار الاحتراس منها ، والجهاد فيها .

وربما يكون مبعث هذا الايمان هو السير وراء الفكر وحده لا وراء الغرائز والواقع .. ولكن مهما يكن من شىء فهذا الايمان هو القوة الدافعة الوحيدة التى يمكن استخدامها للتقدم والارتقاء .

ألا يحس كثير منا أنه يجد صور الخير والجمال كاملة فى نفسه ، ويود لو وجدها كذلك فى خارج نفسه .. فى أسواق الحياة ؟ ثم هو يجد أضدادها تملك عليه طرق الحياة ، كما تتراكم الزبالات والقاذورات فى طريق الرجل المتطهر . . فيضطر ليخوض فيها سعيا وراء القطيع ، وأداء لواجبات المعاملات والضرورات المعاشية القاسية .. وكثيرا ما تلوثه أو تبتلعه أو تحوله الى خادم من خدامها ، لأنه عاجز ضئيل لا يستطيع أن يقاوم تيار أو حالها وينهض وحده بمصارعتها ؟

فلا يحملنا واقع الحياة السىء على الكفر بها فى نصابها الأعلى من الجمال والصلاح والكمال الذى يوصى به الحق والفن الرفيع والمثل الأعلى الذى يملأ مخيلاتنا ، ويثير أرواحنا : ذلك الذى يدل على أنه من الممكن أن الله شغل به أحلامنا ، وكلفنا السعى اليه ، فلو لم يكن ممكنا ما كلفنا اياه ، ولا شغل به أرواحنا ، ولا أودعه الهامنا .

نعم : اننا لن نصل الى جوهر المعــانى الانسانية الا بعــد جهاد عنيف فى اختراق الحجب الكثيفة التى غشاها التاريخ على الأفكار والنفوس ، وجعلها تفهم أن الانسان المقصود هو ذلك الذى يرونه الآن يملأ جوانب الحياة بالجرائم والنكبات والجهالات .

وقد يكون الوصول الى لباب المعانى الانسانية سهلا ميسورا لو أننا حافظنا على فطرة الخير فىالطفولة ، من أن يتطرق اليها ماتطرق الينا وأفسد فطرتنا . فان لباب المعانى الانسانية يمكن الوصول فيه الى المحصول الذى حصلنا على مثله فى الزروع وأنسال الخيل وما اليها من أنواع الحيوان والنبات التى يجرى العلماء — فى تنشيئها وتعهدها وتحسينها — تجاربهم ويحصلون على نتائج قيمة .

والمشقة كل المشقة هى فى اقناع الناس أن ينتقلوا من المكان الذى قذفتهم فيه قوى الشر ، الى المكان الذى كان من الواجب أن يكونوا فيه ليروا مقاطع النظر الصادق الصحيح ، حتى ولو لم يعملوا به فى الحياة .

ولا يؤيسنا من ذلك بعد الشقة بين المكانين ، بعــد أن رأينــا ابن آدم استطاع أن يروض الأسود والنمور والقرود ، ويعلم الكلاب والخيل والحمير رياضات هذبتها وأنستها كثيرا من شرور طباعها .

وباب الأمل هو أن تشرع الانسانية فى التجرد من أخطاء العصور السابقة : عصور الجهل والقصور وغلط التفسير والتأويل فى وجهات الحيــاة ، ثم تسلم نفوســها للطبيعة الصريحة التى كشفت عن وجههــا النقاب ، وعن أسرارها الحجاب ، فبان قصدها ، ووضحت دروبها .

وفى الواقع أننا نعيش بأكثر أفكار السابقين وآرائهم وعاداتهم التى أخذوها من موحيات أزمنتهم .

ونفوس الناشئة « كأفلام » التصوير الشمسى قبل أن يقع عليهــا الضوء ... فلماذا تترك القبح والفوضى والشر تسبق اشعاعاتها اليها وتسقط عليها أولا فتنطبع فيها ، قبل أن تصل اليها أشعة الجمال والنظام والخير ؟

وأعتقد أن أسرع الوسائل لانقاذ الحياة الاجتماعية من شرورها هو استئناف تنظيم المجتمع على أيدى علماء الطبيعـــة والنفس المخلصين ، الذين يجب أن تفوض اليهم الأمم رسم خطط الاجتماع على أســاس ما أدركـــوه من الطبيعـــة والنفس ؛ لا على أيدى محترفى السياســة وسماسرة المال والغافلين عن وجوب الانسجام بين الحيــاة الانسانية والحياة الطبيعية .

* * *

وقد يكون الأقرب لدى وجهة النظر الاسلامية أن ندعو الى أن الاسلام هو الكفيل باقرار قضية الايمان والثقــة بالانسانية ؛ لأن « كتابه » رفع من شأنها ، ودان بتقديس حرماتها والثقة بمستقبلها ، ولأنه لو لم يكن دينا لكان مذهبا عقليا طبيعيا يسارع اليه كل من أسلم نفسه للطبيعة واسترشد بهدى الله المبثوث فى آفاقها .

ولكن هذه الدعوة منا فى الوقت الحاضر الذى لا يزال أكثر الأمم فيه متأثرا بالدعايات الكاذبة عن الاسلام ورسوله ونظمه ، ولم يقم المسلمون فيه بأى عمل جدى يزيل آثار تلك الدعايات ، ستحمل على محمل التعصب منا والتطبع والتحيز للموروث .. وســتقابل بردود وسخريات ومناقشات من أهل الأديان الأخرى .

ولذلك نرى مؤقتا من وجهة النظر العالمية ، أن نستعرض « المسألة الانسانية » كما هى فى الطبيعة بدون ألفاظ القرآن ، حتى يتأتى لغــير المسلمين أن يشعروا بالعقائد الانسانية منقولة عن الطبيعة مباشرة .. وسيكون وحى الطبيعة مع هذا هو رأى الاسلام نفسه ، ولكن بعنوان آخر أو بغير عنوان .. وما يضير هذا الدين فى شىء ؛ لأن القرآن وهدى رسوله وسيلة لغــاية هى ادراك الطبيعة والنفس الانســانية ومعرفتهما والتحاكم اليهما ، وادراك بارئهما وصفاته مستنتجة منهما بعد ذلك .

وعلى الأخص أن لفظ « الاسلام » معناه تسليم النفس وتوجيهها للذى فطر الطبيعة ، وليس معناه الانتساب الى شخص أو جنس أو مكان .

ولكن هل يملك أمثالنا أن يقدموا فكرة للعالم تتنزل منزلة العقيدة الأولى للسلام ، نحن الشرقيين « النكرات المغمورين فى عالم القوة والسيطرة الغربية ؟؟

قد يقال : يا له من غرور !

ولكن لماذا ؟ ألسنا أصحاب أفكار انسانية أودع الله ايانا سرها ، وجعلها تسلك الانبات والتفرع والتكاثر ؟ بلى ! وان لكل فكرة القوة على أن تنمو متى هيىء لها الجو الصالح والبيئة الطيبة ، كما أن لكل بذرة ونواة قوة الانبات متى هيىء لها الجو والتربة والماء .

فبذور الأفكار كبذور النبات : تلقى احداها فى ظلام الأرض وتتعهد ، فلا تلبث أن تتخذ طريقها الى الحياة أو تتخذ الحياة طريقها اليها ... فأكثر واقعيات الحياة أصلها أفكار وأحلام .

نعم ان الفرد الواحد الضئيل النكرة المغمور المحدود ، حينما يترك فكرة ما تستبد بخواطره وتستولى على قلبه ، أملا فى حل مشكلات العيش والفكر عن طريقها ، بعد انحسار ظلال الأفكار القاتمة والاعتقادات السيئة ، لابد أن يشعر بدوار عنيف لبعد الشقة بين ما فى رأسه وقلبه وبين واقع الحياة السىء الذى يرفده عباب التاريخ ، وروافد الوراثات الجاهلية فى القرون والأجيال الموغلة فى القدم ، ولن ينقذه من ذلك اليأس والدوار الا نفحات من الايمان ، ولمعات من الآمال ، تحدث نفسه أن كل صوت من أصوات الحق التى صاح بها ذلك الهاتف الغامض الدائم الذى يسمونه الضمير البشرى ، لابد أن يجد صداه القريب أو البعيد ، وأنه ليس على الفكر المخلص لأمانات الحياة ، الباحث عن سننها العليا الا أن يسجل ما يدركه من الحقائق ، ويضعه أمام العقول العامة ، ويعرضه فى أسواق الدعوات .. لعل شاريا قويا مدركا مؤمنا يشتريه وينميه ويذيعه فى الناس عن طريق السطوة أو حذق الدعوة !

ولماذا لا نعتقد أن لنا الحق فى أن نقول للعالم الكلمة التى نؤمن بها ؟ ألأن الدولة فى العالم ليست لنا ؟ قد يكون .. ولكن هذا لا يمنعنا أن نؤثر فى الغالبين ونحن مغلوبون ، كما أثر اليونان قديما فى الرومان

ثقافيا وفتحوهم فكريا ، وهم الذين غلبوهم سياسيا وحربيا .. وكما أثرت المسيحية الضعيفة المضطهدة فى الرومان الغالبين القاهرين وحولتهم خدامها ... وكما أثر الاسلام المنكوب المقهور فى التتار القاهرين ، فحولهم اليه وجندهم له بعد فترة وجيزة من سقوط بغداد فى أيديهم .

ان الضعف السامى قد أثر فى الحياة ويؤثر فيها ما لا تؤثر القوة السافلة .. ! وربما يكون للضعفاء وحدهم ، وهم الأكثر عددا ، حق الحديث فى الحقوق والواجبات والعدالة والاخاء والمساواة ، وحق الملاحظة والتنظيم والتنقيح للنظم القائمة ، ولا يكون ذلك للأقوياء الذين لا يعرفون مطالب الضعفاء ورغباتهم و « المضعف أمير الركب » كما يقول (محمد) منقذ الانسانية الأكبر .

ويخيل الى أن العالم الغربى ، وخاصة الأوربى ، على استعداد لأن يسمع كلاما جديدا غير ما ألفه فى السياسة والحياة والاجتماع . ونحن -— سكان الشرق الأدنى والأوسط — أقرب المجموعات البشرية الى المجموعة الأوربية ، وأدناها منها مزاجا وروحا . ومثلنا العليا فى الدين والخلق والاجتماع قد انتقلت اليهم ودانوا بها حقبا طوالا من الزمان ، فمن غير العسير أن يستمعوا الينا ، ولكن على شرط أن نكون مخلصين فى دعوتنا ، محترمين لأنفسنا ، مؤمنين بما عندنا ، نقول لهم بأسلوبهم وعقليتهم فى غير زهو ولا تعصب ، وانما بتقديم مودة ، وشعور رحمة لهؤلاء الذين نفعونا وخففوا آلامنا بجهادهم المادى ، وسهلوا لنا سبل الحياة بالجسم .

ونحن ورثة هدى ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد .. أولئك الآباء الذين عذبوا فى سبيل الانسانية ، وقدموا لها وهى فى مهد حياتها رسالات الروح والخلق ، نستطيع أن نقدم شيئا من ميراثهم فى الهدى ، والا كنا غير جديرين أن نكون سكان ديارهم ، وأقرب الناس الى فهمهم .

وأنا أعلم أن جماعة منا سينغضون رءوسهم سخرية حين نذكر لهم هذا الكلام .. ذلك لأنهم اصطنعوا الواقعية المادية التى لا تؤمن ولا تلبى دعوات السمو والمودة التى أقرتها الأديان والحكمة والفلسفات السامية

فى ضمير الشعوب . وهؤلاء هم علة العلل فى بقاء الشرق متخلفا عن الغرب فى كل شىء حتى فى « معارك السلام » كتخلفه فى معارك الحرب والقوة المادية .

ان الشعوب الأوربية قد شربت من الدم والوحل حتى بشمت وزهدت ، وتريد أن تسمع صوتا يفتح لها حديث الرحمة والحب والتعاطف بعد حديث الحزب وأوزارها . ولكن عصابات السياسيين والسماسرة و « الرأسماليين » هم الذين سيشوشون عليها قصدها ، ويفوتون غرضها ، ان لم تجلجل فى آذانهم دعوة جديدة للسلام وحياة الروح . وسكان الشرق الأدنى والأوسط وهم مزيج مؤتلف متآخ من أتباع الأديان الثلاثة ، يستطيعون أن يكونوا رسلا لهذه الدعوة لو تسامحوا وعلموا أنهم ورثة الدعاة الأولين للحياة بالروح أولا ..

وهبوا أن هذه الفكرة لا تتحقق ولا يستمع لها ، أفليست من الأحلام الجميلة التى يلذ الحديث فيها ، ويجب التنويه والتذكير بها كمثل أعلى تتمناه الانسانية ؟

ان القلوب الكبيرة التى أطلت على العالم بالرحمة والحب والعلم واليقين كان سر عبقريتها وعظمتها أنها لم تعترف أبدا بالواقع السيىء فى زمانها . وأنها حين رأت الانسانية فى عصورها الأولى تقبل جميعها على الوثنيات وتعكف على الجهالات وسفك الدماء ، صاحت صيحتها ، ونادت ضمير البشرية الذى تكفل خالقه أن لا يموت أبدا وأن لا تنطفىء شعلته ، وقاومت بجهدها حتى حولت مجرى التاريخ الى تمجيد الحق والسلام والرحمة . وقد أفلحت فى ذلك فلاحا كبيرا ، وعما قليل تفلح كل الفلاح ، اذا حمل مشاعل دعوتها دائما قوم مؤمنون بالانسانية ، عالمون بأسرار وجودها وسمو الغاية من حياتها فى هذه الأرض ، حريصون عليها ، راصدون لتاريخها ، متفائلون فى مستقبلها ، غافرون خطايا طفولتها وبقايا جاهليتها ، عاذرون حمقها وطيشها فى بعض الظروف ناظرون اليها نظرة بارئها الحليم العليم الذى لابد أن يكون له فى أفاعيل حياتها وسفالاتها الظاهرة حكمة خفية !

وعلى أية حال اذا لم تنفع هـذه الدعوات فلن تضر . ولكن نفعها محقق ، حتى ولو كان لمجرد نشر روح التفاؤل ، لنستسيغ متاع الحياة ، وتتسلى عن همومها ، أو لمجرد المقابلة بين الشر وضـده الخالد العظيم : الخير !

* * *

« وبعـد » فان كان الانسـان تافه القيمة ، ووضـعه فى الحياة ، على حالته الفاسدة هذه ، هو من طبيعة نظام هذا العالم ، ولا يمكن تغيير فساده ، بل يكون شره بهذه النسبة الحالية ضربة لازب ، ولايمكن تخفيفه ، فعندئذ يجوز لنا أن تتشاءم ، وأن نضمر الشر لنعيش فى محيط الشر ، ونختبط فيه خبط عشواء مع أهل الأرض جميعا حتى نفـارق الحياة ..

ولكنى أرى ، ويرى معى كل متأمل منصف ، أن الانسانية كأى حقل نباتى أو حيوانى خاضع للتحسين والتصفية والاستصلاح والتعهد والاخراج الصالح ، وخصوصا فى هذه المرحلة الزمنية التى كشف فيها العلم عن وسائل التربية النفسية والجسمية وابادة آفاتها بسرعة فائقة .

وليس الانسان جزءا من هذه الطبيعة المادية الجامدة التى لا يمكن تغييرها وتبديلها ، وانما هو جزء مرن خاضع للتبديل والتغيير باختلاف التربية والتعهد .

وفعلا قد تحقق فى التاريخ ذلك الذى ننشده الآن : فبعض الدول الاسلامية الأولى قد عاشت فيما بينها كدولة ، وفيما بينها وبين غيرها من الدول على صور سامية من الاعتراف بالحقوق والتعاطف وترك الشرور الى حد ما ، فرضى الله عنها ورضيت هى عنه وعن الحياة . وبعض الأمم الأوربية الشمالية قبيل الحرب العالمية الثانيـة ، قد عاشت فيما بينها كدولة على صورة سامية رحيمة كريمة ، ولكنها قد تعود الى الأسلوب الوحشى المنحط مع غيرها من الأجناس والأقوام ، فليس لها ذلك الايمان العميق بالانسانية جميعها .

اذن : لا يأس من الانسان ، ولا يأس من الحيــاة تبعــا له وتأثرا من جرائمه ، ومن نوازع الشر الحالية فيه ، ما دام الدليل التاريخى قد أثبت له صورا عظيمة من السمو ، وما دمنا نستطيع أن نغير حياته المرنة الى الصلاح بتغيير أوضاعه الاجتماعية والاقتصادية .

لقد قال العلم والدين ان الانسان خرج الى هذه الدنيا كاملا جميلا قويا « فى أحسن تقويم » ثم تطرقت اليه عوامل العطب والعجز والمرض والفساد والتنازع ، لضيق فكره وعجز يده عن وسائل التغلب على محيطه حقبا من الدهر ، فأورثته الفساد والاختلال ، حتى وصل الى زمنه هذا فاستطاع أن يعثر على مفــاتيح راحته باهتــدائه الى سنن التكوين والتخريب ، واخضاع الكثيرمنها لخدمته وانتفاعه . اذن : لا مبرر لتشاؤمه وتنازعه وسخطه بعد أن رأى من كنوز رحمة ربه ما رأى .. وانما الواجب أن يسعى الى أفق الفجر بعــد أن بزغ ، ولا يستدبره ويستقبل أفق الليل والظلام .

فاذا أمكن — وهو ممكن جدا — رفعه من أسفل سافلين ، ورجعه الى نصابه الأعلى الذى خلق عليه فى أحسن تقويم .. يكون التوانى والاهمال والتشاؤم فى هذا السبيل قصورا معيبا وجريمة كبرى .

وانى أرى — ولعلى واهم ! — أن الانسانية الآن ينتفض جسمها العملاق ليعمل ويسترد مكانه فى عليين ! وقد صار لأفرادها الآن من الحقوق التى تتصل بالعدالة ، ومن مزايا التمتع والراحة وثبات الأرض تحت أقدامها ، ومن أحاديث الحريات والكرامات فى مؤتمراتها الدولية العامة والخاصة ، وصار لها من القدرة على تسخير كثير من قوى الطبيعة ومن المقام المرموق بين المكائنات .. ما يبعث فى صدرها الثقة والايمان بامتيازها والأمل فى مستقبلها والصبر على احتمال آلام حاضرها .

وقد وجب عليها الآن أن تعجل أمورا ثلاثة :

١ — —ازالة الدعايات القومية الحادة والنعرات الجنسية الضيقة التى توحى بالتفرق والشتات ، وتورث التعصب والتحيز الممقوت .

٢ — ايجاد لغة اضافية عالمية مشتركة لتكون لغة « المواطن » العالمى، ولتوحى الى كل ناشىء بمعانى الانتساب الى الانسانية الواحدة بجانب انتسابه الى قومه ، ولتسهل على الأفراد وسائل التفـاهم والتعارف بالثقافة العالمية التى لابد أن تضمها أسفارها ونشراتها الدورية .

٣ — توزيع المواد الاقتصادية بدون جشع واغتصاب واحتكار وحب استئثار واستغلال للضعفاء .

* * *

وأريد أن أقول فى ختام هذا التمهيد كلمة لسماسرة المال ومحترفى السياسة لشهوة الحكم وحب القهر ، لا للخدمة ولا للوصاية على الشعوب القاصرة : بل هى كلمة الحق والايقاظ للطور الجديد الذى تقبل عليه الانسانية : أن يقوموا جماعات وفرادى ، ثم يتفكروا فى الوضع الحالى للانسان ، وأن يزيحوا عن أعينهم الغشاوات القديمة التى هى سر تطاحن الانسان وتصادمه فى ظلمات المطامع وشهوات الاقتناء والقهر والافتراس .

وليعلموا أنهم هم العقبة الوحيدة الآن فى طريق الانسانية الى حياتها المنشودة ، وأنهم هم الذين يحولون أخوة البشرية وبركات العلم وثروات الأرض التى أودعها الله فيها بمقادير كبرى تكفى حاجات كل فرد وكل أمة ، الى وقود يحترق به جامعوه والناس جميعا .

انهم هم الذين يقودون البشر فى الحرب بالفولاذ والذهب .. وهم كذلك يستطيعون أن يشتركوا فى أن يقودوهم بهما لحياة السلام : اذا أزاحوا عن أعينهم غشاوات القرون الأولى : قرون الوحشية وحب اللعب بالشعوب وجمع الحطام ومجد الشهرة على الجماجم والأشلاء .

انهم يستطيعون أن يشتركوا فى قيادة البشر وتجنيدهم جميعا للوصول الى أملهم الأكبر : وهو كشف مجهولات الكون وتسخير قواه للنفع العام ، والعيشة فى اخاء وأمن وسلام .

وأريد أن أقول كلمة أخرى الى عشاق الحق والصلاح ، الذين يؤمنون بالروح الالهى والسمو الانسانى : وهى أن أشد ما يخشى على العالم أن يعتزلوا ويخلوا بين عملية بناء العالم بعد الحرب وبين من لا يحسنون أن يقيموا حضارة تتوازن فيها العناصر وتتلاقى الروافد والتيارات الروحية والمادية بمقدار موزون . !

فاذا وقفت معارك الحرب فليعلنوا هم « معركة السلام » !

وهم لابد منصورون بتوفيق الله مكرم الانسان !

فى موازين الحس والفكر والضمير

عقدة الثمرة الفكرية من هذا الكتاب

أومن بالانسان الكلى الذى نحمله جميعا فى أجسامنا ونستوحيه فى أفكارنا ونبادله ماصح وما فسد من شئوننا !

وأرصده رصدا مستوعبا يطيف به فى جميع بقاعه وشتى أوضاعه !

وأستوحى تسديد الخالق اياه فى طريقه الى مستقبل مجهول !

أومن به لأومن بالكون ورب الكون ! فلن يؤمن الفرد الانســانى بهما ان لم يؤمن بنوعه .. اذ أن عقل النوع هو المنظار الذى ندركهما به فان اهدرنا قيمة الانسان فقد اهدرنا عقله ، فلا يبقى لنا ما ندرك به كوننا وربنا ! ويعيش أكثرنا كما يعيشون الآن ذاهلين شاكين تضطرب بهم مجهــولات الكون ومعلــوماته كغرقى طافــين على الأمواج ، ثم يمضون الى ظلمات القبور .

وتلك قضية فكرية منطقية محبوكة الأطراف أشبه «بمعادلة رياضية» وهى عقدة الثمرة الفكرية من هذا الكتاب ، من الناحية المنطقية النظرية ولها مابعدها من النتائج الخلقية والعملية

وارى أن الموقف الفكرى فى هذه القضية يسبق موقف (ديكارت) حين أثبت (وجود الذات المفكرة) واتخذه اساسا بنى عليه فلســفته الاثباتية ، اذ انه من أين لديكارت أن يثبت أن تلك الذات هى ميزان الافكار ، وان لها فى الكون قيمة واعتبارا ؟ ولما ينتج منها من الفكر قيمة واعتبارا ؟ ان لم يثبتهما اولا للنوع الذى تنتسب اليه هذه الذات ، ليكون لما يصدر عن أفراد ذلك النوع تلك القيمة وذلك الاعتبار ؟

فالموقف المنطقى الأول وخصوصا فى هذا العصر أن نرصد أولا هذا النوع الانسانى كله بعين كأنها غريبة عنه ، مفارقة لوجوده لنرى ماانتجه وينتجه من أعمال ذات تأثير كبير فى الطبيعة ، ولنثبت له مكانته فى الكون وخصوصا بعد أن وصل فكره أخيرا الى أن يكون عاملا عظيما من عوامل

الحكم على الطبيعة والتكوين والتخريب فيها ، ثم يأتى بعد ذلك جميع مواقف الاثبات للافراد المندرجين تحت هذا النوع .

على انه من جهة أخرى تتصل بالمنطق القديم « قد ثبت أن بداية العلم ليست علمية وانما هى اعتقاد من غير برهانه ، والعلم الذى يفسر كل شىء لايستطيع ان يفسر البدايات التى هى عنده كالمسلمات . وينبغى قبل الشروع فى العلم ان يعتقد الباحث فى امكان العلم تماما كما يفعل العصفور يقذف بنفسه خارج العش قبل تجريب الجناحين ، لأنها دفعة الالهام .. والالهام هو أساس العلم بعالم البدايات المسلمات .

والطفل فى نشأته يدرك الكون والناس ادراك الهام وايمان وفكر قبل ادراك نفسه واعماقها ، فينبغى ، مسايرة لقوانين النشأة الطبيعية ، الا نحاول اثبات « الذات المفكرة » كما فعل ديكارت الا بعد ان نثبت النوع الذى نراه وندركه قبل ان نراها ، بل نحن لانستطيع ان ندركها الا فى مرآة النوع ومواريثه ، اذ الفرد من غير النوع لايستطيع أن يدرك شيئا من مواريث النوع ، ويكون حيوانا كذلك « الانسان الغزال » او الانسان القرد . او الانسان الذئب الذى يتحدث الناس انهم يجدونه فى الغـابات .

نظـرة المفارق لنفسه ونوعه

خارج الشبكة . فى نصابه الاعلى . نور فى وعاء من طين . محرر المعانى والنغمات المسجونة . فى عالم القوى العمياء والروح الواعى . تاريخه مصباحه . قانون ينمو فى كل اتجاه . عصب الارض . أحياة الشرنقة ؟ . ايقاظه بالدين الطبيعى والفن الرفيع .

لكى ندرك اللمحات التى تتراءى فى أعماق « هذه القضية الأولى » نحاول أن نتحرر ونتجرد من نفوسنا ونوعنا ، ونرصد الانسان بعيون المفارقين لنفوسهم ، الخارجين بالفكر عن حدود وجودهم ، الناظرين لحياتهم نظرات الملأ الأعلى ممن هم فوق الانسان ، والملأ الأدنى ممـا هن دونه .

اننا حينئذ نرى كثيرا مما خفى على الذين يلبثون سجناء رهناء فى الشبكة التى تلفهم مع سائر أفراد القطيع .

ولابد لذلك أن نترك الجدليات القديمة حول الشك فى قيمةالانسان، فقد هدرت شقاشقها حين كان عاجزا عن شق الطريق أمام فكره ، وان نخرج من غبار التاريخ القديم ونفتح عيوننا على العالم كمخلوقين الآن ، تفكيرهم ابن زمانهم هذا ، ومنطقهم من وقائع الحاضر ، وأن ننظر الى الانسان فى نصابه الأعلى دائما ولا ننظر اليه فى حضيضه الأدنى ؛ فان من طبيعة كل كائن حى أرضى أن يكون له جذر فى الطين والعفونات ، أو أصل فى الدم والقاذورات .

وان النطفة التى خلق منها الانسان أخلاط وأمشاج اخذت من العناصر الحادة والقوى العمياء ما يجعله منها على اضطراب وابتلاء .

وان الفرد يحمل فى مجارى طعامه وفى أحشائه أوضـارا واقذارا تشمئز منها نفس حاملها .. ومع ذلك هو يقنع من نفسه بتقدير الوجه والرأس الذى يحمل الشخصية وقوى الفكر .. فينبغى ألا ننظر دائمـا

الى الذين هم فضلات قذرة فى جسم الانسانية وتتخذ منهم « مقطع » النظر اليها جميعا ، فيحملنا ذلك على التشاؤم والسخط والشك فى الخير والجمال الذى فيها .

هم كالثمار الفجة المعطوبة ، عطبت وتلوثت وسقطت لضعف روابطها بفروع الشجرة التى تسمو .

اننا نحمل أقباسا مطهرة من عالم الحق والجمال والطهر ، ولكنهـا وضعت فى أجسامنا : تلك الأوعية الطينية السريعة التعفن .. فمن الناس من يدوم على تطهير وعائه وصقله حتى يستحيل الى زجاجة شفيفة رائعة تساعد ذلك القبس على السطوع والاشراق .

ومنهم من يتركه كما هو من غير تطهير وصقل بالعلم والتهذيب فيظل معتما ويحول بين ذلك القبس وبين السطوع الكامل .

ومنهم من يضيف الى ذلك الوعاء ما يزيده عتمة وكثافة تطغى على ذلك القبس وتمحق شعاعه وتجعله منبع ظلام .

فلأجل النور ! ينبغى أن ننبه كل مصباح الى رسالته ، ونحول بين الظلام وبين زجاجته !

ولا تحملنا حياة الظلام الراهن على أن نتشاءم ونسخط ونحطم مابقى لنا من مصابيح ، فنعيش فى عمياء : نهارها كليلها .

* * *

ولو أنكرنا مكانة الانسان وجحدنا قيمته ، لم يبق لنا شىء فىالأرض نلوذ به ونأنس اليه من وحشة الصمت المطلق والسكون المطبق ، والبكم والصمم والعمى التى تغمر غيره من كائنات لم تدع فىالحياة حديثا مفهوما عن غايات الحياة .

واننى ما أبصرت شيئا غيره تعمق معه الحياة وتتسع وتتركبويتنوع الاحساس بها ، ولولاه لكنت صندوقا أبكم فارغا الا من معانى غرائز معطلة ، وتجارب شهوات قليلا ما تتحرك .. ولاضطربت بى مجهولات الكون كغريق يطفو على الأمواج .

ان كل شىء فى الطبيعة صامت جامد لا يعطى جوابا عن غايات الحياة الا هذا النوع .

فمن قلوبه وعقوله تنبثق المعانى المكتومة المسجونة فى أطواء المواد والقوى .

وفى بيانه أصوات ربطت الكون كله ، ولاءمت بين نسبه المختلفة ، ولخصته واختزلته ووضعته أمام الفكر ملموما ..

وفيه نغمة مفهومة رقيقة وسط صخب الأمواج التى لا عدد لها فى البحار ، والهبوات التى لا عدد لها فى الأجواء .

انه مشبوب الحاجة دائمها ، واسع الآمال والخيال فى تشكيل المواد وتنويعها وتصريفها وتسخيرها والاحتفاء بكل سر فيها .

لقد استمرت الأرض من قبله جامدة لايتغير فيها شىء الا الدورات الأبدية المكررة ، وبدا من الطبيعة أن كل شىء فيها كان ينتظر وجود هذا النوع ليقول لفكره ويده : هأنذا لكما !

وما زالت المرآة التى فيه ، وهى عقله تنطبع فيها صـــور الكائنات واحدا وراء الآخر ، وهو يحولها وينقلها من عالم الجماد والصمت الى عالم الأسماء والبيان والصور والتعبير .

وما زال يدور حول ظواهر المادة وصورها وأشكالها ، ويحللها وينبش فيها ويسبر أغوارها ، حتى وصل الى عالم الذرة والكهارب والأثير . وهو الآن يجرى اختباراته وتحليلاته على هذه الأصول الأولى للمادة ليكثفها أو يرققها ، ويتحكم فى اخراج أنواعها ، بعد ان وصلت يده الى مفاتيح توجيهها .

انه تعمق فى عالم الأجسام والقوى حتى وصل الى مصـــادر الحياة الآلية ومادة الوجود الأولية ، وتعمق فى عالم المعانى والأفكار حتى وصل الى الخفقات الروحية العليا ، والرياضيات العليا التى قام عليها تخطيط الطبيعة وهندستها .

وانه ليركب ما فى الكون من المعانى كما يركب ما فيه من مواد ، فيقيم الكتب العامرة ، والمقالات الحكيمة والصلوات المطهرة ، والألحان الساحرة ، كما يقيم القصر الكامل الجميل ، والصرح المشيد ، والقاطرة والطائرة والباخرة . والصواريخ المنطلقة العابرة والأقمار الصناعية الدائرة.

وانه ليسافر بفكره فى الآفاق العليا كما يسافر بصوته وصورته فى صندوقى الراديو والتليفزيون .

وهكذا هو يتوجه فى عالم المادة والقوى العمياء ، كما يتوجه فى عالم الروح الواعى والفكر المميز المبصر الحاكم !

* * *

وهكذا هو رباط بين العالم الساكن الخفى ، وبين العالم المتحرك المرئى مركزه فيها ، ولنعطيه من تاريخه مصباحا يرى به نفسه ، ان الله أسلمه الأرض ، وليس فيها شىء معقد التركيب غير الأجسام العضوية الحية ، وهى أجسامه واجسام الحيوان والنبات . اما الجوامد فاسلمها اليه بسيطة فى صورها الأولى وخاماتها البكر ، فما زال يدور حولها ويعبث فيها وينبش ويخرج اسرارها واحدا بعد آخر ، حتى حدثته اخبارها واخرجت له اثقالها ، واستفاد من تجاربه فيها عقله وحكمه ــ والعقل هو حفظ التجارب والحكم بمقتضاها ــ وعلمه ووثائق فكره وعمله

وكلما أنماها وعقد نموها ، أنمت هى فكره وعقدته ــ والتجاوب بين المادة والفكر قانون ــ حتى ملا الأرض بما ولده منها ، واخرجه من كوامنها ، وركبه من بسائطها .

وشاء الله أن تكون قوة الفكر فى الانسان تكاد تكون لا حد لها ، فصارت تخاريج المادة وفروقها وتمايزها لا حد لها .

وتارة يكون كشفه عن أسرارها بطريق الصدفة ، فيلقط ويدون كما هو واضح من نمو علم الكيمياء ؛ فان كل أمورها تجريبية .. وتارة يكون الفكر سابقا قادرا على الفروض وقياس النسب الغائبة على الحاضرة .

أى تارة تكون الطبيعة سابقة فى الوحى اليه وزيادة علمه وفكره ، وتارة يكون هو سابقا فىالوحى اليها وزيادة أشكال موجوداتهاومشاهدها. وانى لأستعرض أعمــاله فى الطبيعة منــذ أن كان هائمــا لاسقف له يصنع من ورق الشجر ستارا لسوأته ، ويتخذ من الحجر خنجرا لسطوته ، الى أن صنع لباسه الأوربى المعقد المنوع المزين الملون ، وصنع بيته من ناطحات السحاب ، وآلات سطوته من القنــابل الذرية والهيدروجينية والقنابل الطائرة ، ومراكبه من القلاع الطائرة ، والصــواريخ العابرة ، واستوعب جميع أجزاء الآلات المعقدة فى رأسه قبل تركيبها بمساميرها وحذافيرها ... وصنع له مجاهر ومقربات يقرب بها مشــاهد السموات والسدم ، ويحلل عناصرها ، ويكبر بها مناظر الجراثيم ، ويقيس بهــا الخلايا ، ويحكم بها على كل أولئك حكما صحيحا خاضعا لمقاييس الحس والفكر .. أستعرض أعماله هذه ، فأراه بعد ذلك روحا ناميا فى ذاته ، ومنميا للطبيعة وصورها وأشكالها كذلك .

وجميع قوانين الطبيعة قوانين متحجرة صارمة الا هذا الانسان ، فانه « قانون » مرن يذهب فى كل اتجاه . أليس فيه نفخة من روح الله ليست فى سواه ؟ ! والله خالق هذه القوانين وواضعها ؛ فلا عجب أن تدفعه هذه النفخة الى كل جهة فى مجاهل الكون دائما .

ان الأطفال يقلدون الكبار بغريزة التقليد والمحاكاة التى فيهمللاستعداد لمستقبل الفرد ، والكبار يقلدون صنع الله للاستعداد لمستقبل الانسانية كلها . وجميع آلاتهم التى ركبوها ، وجدوا نماذجها أمامهم مما خلق الله . فجسم الحيوان هو نموذج الآلات الدقيقة السريعة التى ابتدأ بها الانسان يتسلط على المكان والزمان والمسافات والأبعاد . وجميع أعمالهم فىالكهرباء والقوى الخفية انما وجدوا نماذجها من المجموعات العصبية فى الحيوان والنبات ، فأرسلوا الاشاراتوالصور والأصوات الى عيون وآذان صناعية عبر المحيطات والصحارى والقارات والجبال الشاهقات ، كما يرسل الجسم الواحد خواطره وصوادره الى كل خلية فى أعضائه .

وعلى ذلك صارت الأرض كجسم ينبض ويترابط ، وانســانها فيها كالمراكز العصبية فى الجسم الحى : تصدر وتتلقى الجواب .

ولكن هل يجوز أن يقف الانســان فى ضجة ما صــنع من الآلات والمفرقعات ضائعا مغمورا غائبا فيها كما تغيب دودة القز فى الشرنقة التى تنسجها ؟

انه يرسل فى الطبيعة لمحات فكره وومضات خواطره ، وصار الأثير والهواء والماء والتراب مليئا بهمساته ، وأزيز محركاته ، وضربات معاوله الى أعماق المناجم والركاز .

وهذا حسن لو أنه لا ينسى نفسه وسط الضجة والقوة والجبروت الآلى ، والحديد البليد القاسى ، حتى يختنق ما فيه من وداعة الروح وتأمل الفكر ، والاحساس بالانفصال عما صنعته يداه .

أجل ، يجب ألا يكون الانسان قوة عمياء تعمل فى المادة بدون شعور واحساس روحى فيما تعمل وبدون لذة به ؛ والا استحال الى قوة متنقلة فى عمليــات التكوين والتركيب أو التخـريب بدون وعى ، وفى ذهول وغفلات تشبه عمى القوى العمياء .

ان طاعة الحديد البليد القاسى للفكر الطليق البارد ، تركت فى أعصاب الأمم الصناعية آثارا عميقة ستطمر لا محالة ، ان لم تقاوم بقوى روحية ، جوانب من عواطف الرحمــة والمروءة فى قلوب أفرادها ، وتمحو آثار العصــور الروحية التى أدرك الانسان نفسه فيهــا حين كانت النبوات تتلاحق عليه .

وانى لأتخيل الآن ما جرى فى ساحات « الفلاندر » أو « أوكرانيا » أو «الصحراء الغربية» ، فأرى الانسان وهو يدفع الحديد الجبار فيندفع، ويطلق البارود الصاعق فينطلق ، والقنابل الصارخة فتصيح فى نكر وشدة، ويملأ الجو بالدخان الأسود والنار الحمراء فيمتلىء ، ويسيل النار من « باصقات » النار فتسيل على الأجسام البيضاء الجميلة ، ذات العيون الزرقاء ، والشعور الذهبية ، والجماجم المستوية ، وتذيبهــا كالشمع ، وتسحقها كالرفات ، وتذروها كالرماد .. ويرفع القلاع الطائرة والصواريخ الى أجواز الفضاء فترتفع .. أتخيله وسط هذا كله ، لايسمع صوت نفسه اذا تحدث ، ولا يعى خروج نفسه اذا تنفس ، ولا يحس ألمه اذا تألم ،

ولا صعق جسمه اذا تحطم ؛ فهو فى جنون الحرب يضرب الأجسام الحية النامية من شجر أو زرع أو حيوان أو انسان ، ويخرب العـامر ، ويهدم القائم ... فأقول : لقد تحول الى قوى عمياء ، وصار عاتيا كالريح .. جارفا كالتيار ... أعمى كالصاعقة .. قاسيا كالحديد .. صابرا كالفولاذ .. فظيعا كالنار !!

ولست أدرى متى يفيق لنفسه ، ويعنى بوضعه وتحولات حياته ، كما يعنى بمستقبل المواد والقوى ؟ ويربط ما بينه وبين الله مفيض الفـكر والحياة ، كما يربط ما بين نفسه وأجزاء الأرض ؟!

ان الآلة لا تدركه وهو يعمل فيها ويقوم عليها ، وهى لا ترحمه من السحق أو البتر أو الصعق اذا تعرض لها جاهلا بقوانين سيرها ، فلا قلب فيها ولا فكر ، و لاحياة دم وعصب وروح . ولكن ما باله هو لا يفكر فى الاتصال بمن أنشأه وركبه ونسـقه وصوره ، وهو ذو الفكر والروح والوجدان والنزوع والارادة والاختيار والتطلع والحزر والحذر والقدرة على قياس ما غاب بما حضر ؟!

إن الاستسلام لغيبوبة الحياة الآلية ضياع وتطبع بطبع الحديد البليد الأعمى الدائر فى غير وعى واحساس . وأخوف ما يخاف على الانسان أن يترك هكذا فريسة وضحية للآلات والماديات يعيش معها وحدها ، ويقدم لها وقودها الى أن يفنى وقود حياته هو وينطفىء مصباحه ، ويذهب الى ظلمة القبور بدون بصيرة روحية منيرة ، يسعى نورها بين يديه فى العالم الباقى غير المنظور .

وعلى هذا ينبغى أن تنشط فى الناس دعوات الى الاحساس بالنفس ، واليقظة الدائمة لها ، وهذا لا يكون الا بالدين والفن الرفيع : الدين العقلى الطبيعى المبنى على اسلام النفس لله البارىء وللطبيعة الأستاذة ! والفن الرفيع الذى يخلق جوا يحضر للقلب بعض المعانى الغائبة التى ترى الانسان وضـعه الممتاز الفريد الطليق ، وسط ما فى الكون من المواد والقـوى والمخلوقات السجينة !

تلك المعانى التى تتراءى وراء بيان ذوى البيان النظيف ، وألحان ذوى الأصداء البعيدة ، وعيون ذوى الصفاء والادراك !

فى نظرات الفلسفة والعلم والدين

اسئلة فى حدود البداهه – مجهر وريشة وازميل وترجمان – اسرار ورموز فى قصة خلقه – نظرة الله العليم الغفور – سجود الملائكة لآدم واباء ابليس – الشر للخير – منطقة الشهوات

مما يثير عجبى فى بحوث الفلسفة والعلم ، شك بعض المفكرين فى القيمة السامية التى للانسان ، ومحاولة تصوير حياته كحياة النبات والحيوان والحشرات : ليست أكثر من ظواهر طبيعية ودورات أبدية تأتى بها ايام وتذهب ايام الى الفناء المطلق .

ومعرفة الوضع الحقيقى للانسان فى الكون هى – كما بينت سابقا – أولى القضايا الدينية والفلسفية .

فالذى يذهل ولا يسترعى انتباهه ، ويثير اهتمامه هذا الكائن المتحرك الناطق المفكر ذو الارادة والاختيار ، لا يمكن أن يتنبه للصمت المطلق والاطراد المطلق فى الطبيعة .. ودع ما وراء الطبيعة من العالم الخفى الذى لا يناله الانسان بالحواس والأفكار .

واسأل نفسك : هل رأيت نوعا آخر متسلطا على الأرض يغير أوضاعها ، ويتصرف فى موادها ، ويسخر قواها وينقح الطبيعة : يزيد فيها وينقص منها ، متنوع المرافق ، متجدد الأفكار ، له حياة فكرية وقلبية تكاد تكون لا حدود لمظاهرها ؟

وهل رأيت غير الانسان اخترع شيئا يزيد على ضرورات حفظ حياته ؟ هل رأيته يكتب تاريخه او يتطلع لمستقبله ، او يركب آلات معقدة ، أو يغنى أغانى مفننه ، أو يستخرج أصواتا موسيقية من الجلد والخشب والمعادن ، أو يقيم اهراما وعمارات ذات ارصاد واوضاع محبوكة وفنون بارعة ؟

وهل رأيت نوعا آخر اخترع طائرات وصواريخ وأقمارا صـــناعية ومحطات جوية وتليفزيون وغيرها وغيرها مما يصيد به الأصوات ويقتنص الأضواء والصور ويختزل المسافات والأبعاد ؟

ثم هل رأيت نوعا آخر يســـكر « ويحشش » ويدخن « ويشم » ويقامر ويقيم مهازل ومساخر بذكاء ومهارة ؟

هل رأيت غيره يزارع ويتاجر ويضارب بعمليات اقتصادية معقدة غاية التعقيــد !

هل رأيت غيره يحارب بآلات كلها ابداع وبراعة تكاد تجعلها عنـد المتطلعين لمـا يولد فى الكون من عجائب والمتوسمين لمـا فى حياة الانسان من بدع ، فرجة من فرج القلوب تعلى شأن الحروب ؟ !

تخيل جميع الأساطيل الجوية والبحرية وجميع الجيوش البرية انطلقت فى الجو والبحر والبر ، يعبئها ويزجيها وينسقها الانسان ذو الجمجمـة العجيبة ، تملأ الأثير بلمعات فكره وومضات خواطره .. لتعـلم أى فن الهى هذا الانسان المخلوق من ماء مهين !

تخيل مدينة عظيمة كنيويورك أو لندن أو برلين او القاهرة بما فيها من فنون الحياة والأفكار والشعور ، وما يغمرها من الأضواء والألوان ، وما يضطرب فى أحشائها من المصانع والمعاهد والمعابد ، وما يثوى فيها من دور الكتب والآثار ، ومخازن التحف وأدوات الجمال ، وما تسـيل به شوارعها من وسائل الانتقال ، وما تضج به من الأصوات والمقـــالات والخطب والأسمار والأحاديث ، وما يتوزع فيها من الأعمـال والأموال والحرف .. تخيل هذا ثم قل : هل رأيت فى الحياة منذ دخولك اليها نوعا غير الانسان يقيم أسواقا للحياة مثل هذه الأسواق ؟ ثم هل رأيت نوعا آخر يعلو بالحياة حتى يأتى فى علوه بالعجب العجاب .. ويسفل بها حتى يأتى فى السفالة بالعجب العجاب ؟.. وهل رأيت نوعا آخر يفتن فى وسائل متاعه هذا الافتنان الذى تراه فى السينما والمسرح ومخـــازن الملابس والفرش وأدوات الزينة ؟ .

هل رايت .. وهل رايت ؟

واخيرا هل رايت نوعا آخر يترقى فى سلم الحياة باطراد وخطى ثابتة ، وقياس متناسب ، بعد أن أتى عليه « حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » كما قال القرآن ؟

فكيف بعد هذا تسوى بين قيمة الانســان أبى العجائب ، وبين قيم النبات والحيوان ، وتسلكه فى سلك الفناء المطلق الذى يأتى على أجسامها وأرواحها بدون مآل أسمى ومصير أكمل ؟ !

وكيف تضرب عليه ما ضربته عليها من الأحكام ، وتحشر أفراده فى مليارات افراد الحيـــوان والحشرات التى تعيش على العشب والجيف والروث والعفونات ؟ !

انى لأستعرض تنوع حياة الأمم والأفراد ، وأتصفح الوجوه والنفوس وأسمع حديث الأطفال والعجائز ، والنساك والفتاك ، والفقراء والأغنياء ، والعلماء والجهلاء ، والذكور والاناث .. فأجدنى بعد هذا الاستعراض فى دوار من الفكر !

وانى لأخرج بعد هذا الاستعراض وأنا أشعر انه كان لابد أيضا فى الأرض مما نسميه الشر والضلال ليدوم ظهور اسرار التكوين !

* * *

ان شئت فقل ان الانسان أشبه بمجهر تمر من خلاله الطبيعة بخصائصها التى كانت « غيبا » مستورا قبل ظهور هذا النوع ، فتتساقط على عينيه أنوارها وظلماتها ، وعلى سمعه نغماتها وأصواتها ، وعلى خياشيمه عطورها ونفحاتها ، وعلى ملامسه نعوماتها وخشوناتها ، ويقع على احساسه العام ثقل المـادة ، وصعق الكهرباء ، وشد الجاذبية ، وتمر على فكره معانى الوجود ومعانى العدم .. ثم يترجم كل هذه الكلمات الصـامته بكلمات ناطقة من بيانه الذى اختصه به بارىء الطبيعة .. فكل شىء فى الطبيعة الأرضية كان لا بد أن يمر من حواس هذا النوع وفكره ليأخذ حـدوده ومميزاته ويرمز اليه بكلمة بيانية يضعها خليفة الله فى الأرض .

واذا صح ما أثبته تحليل ضوء العناصر ، من أن العنـــاصر التى فى النجوم والكواكب هى بعينها العناصر التى فى الأرض ، كان فى هذا زيادة فى النظر لقيمة الانسان كمترجم ومحدد لعناصر الطبيعة فى غير الأرض ايضـا .

وان شئت فقل ان الانســان آلة فى يد الخالق يتمم بها التنــويع والتفريع والتركيب فى خلق المــادة الميتة الجامدة وتصـــويرها وصقلها وتزويقها وتوشيعها ، حتى تصل الى الدقة المتناهيـــة فى تركيب تروس الآلات ومساميرها الصغيرة ، والى الزركشة والنمنمة فى الثياب والأثاث . وعندئذ يكون الانسان امتدادا لعوامل التكوين والانشاء والتعمير التى فى يد الله .. يكون ازميلا فى يد المبدع الأعظم ، وريشة بين أصـبعيه ، يشكل بهما المادة أشكالا ويملؤها بهما تزاويق وتهاويل !

ولذلك كان العلم بأسرار الطبيعة أشرف عبادات هذا النوع ، ما دام متوجها فيه الى رب الحياة ومتعرفا اليه .

* * *

قصة قرآنية ذات دلالات :

واقرأ قصة خلق الانسان كما وردت فى القرآن الكريم لترى منهـا العجب الذى رأيناه :

« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال انى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأســـماء كلها ثم عرضهم على الملائكة ، فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء ان كنتم صادقين . قالوا سبحانك ! لا علم لنا الا ما علمتنــا ، انك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم . فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم انى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون .. واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، فسجدوا الا ابليس .. »

وأرجو أن تقف طويلا أمام قوله تعالى « انى أعلم ما لا تعلمون » ردا على سؤال الملائكة « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء .. » لتعلم أن الله تعالى نظر نظرة سماح واغتفار لما تستلزمه حياة الانسان فى مجموعه بالجسم الحيوانى من الشرور والآثام ؛ اذ قد علم ما وراء فتوح الانسان فى « غيب السموات والأرض » من آثار علمية وعملية ترجح على ما يرتكبه من شرور وفساد وسفك دماء .

كما أرجو ان تقف وقفة اطول امام عجز الملائكة عن علم ما علمه الله آدم ، وما اختصه به من ترجمة كلماته فى الطبيعة الصامتة ، ومن نبش فى « غيب » السموات والأرض ، واستخراج لأسرار ذلك الغيب .

ثم قف وقفة أطول أمام امر الله تعالى ملائكته بالسجود لآدم .. وسجودهم له واباء ابليس .. لتفهم تلك الرمزية العجيبة التى ترمز الى تشريف الله لهذا الجنس الذى تحمله فى جسدك وتستوحيه فى فكرك ، والى طاعة جميع قوى الطبيعة الأرضية المبصرة والعمياء له ، اذا ما احتفظ فى نفسه بأقباس الطهر والعلم كما وضعها الله فيه — الا قوة الشر التى يمثلها ابليس ، فانها أبت أن تشترك فى تشريفه ، وأن تطيع الله فى الاعتراف بخصوصياته من علم بأسماء ما فى غيب السموات والأرض .

وانك لتعجب حين ترى مصداق هذه القصة بحذافيرها وجزئياتها فيما وصل اليه الانسان فى هذه العصور الأخيرة : من عثوره المتوالى على كثير من مفاتيح الطبيعة ، وفتح أبوابها بابا بابا ، ومن خلع الأسماء على كل شىء ، وابرازه الى عالم الفكر فى قالب من البيان ، بعد أن مضت عليه دهور وهو غائب مجهول أو مبهم ، وتسخير كثير من قواها لخدمته وطاعته ، ومن لبس روحه الحية للمواد الميتة الجامدة ، وجعلها تحيا حياة آلية بعقله ، وتخطو بسرعة فكره !

وانه ليبلغ العجب منك مبلغه ، حين ترى أن « قوة الشر » لا تزال هى الوحيدة الفريدة التى لم تشترك فى تشريف حياته ، والاعتراف بعلمه والدخول فى طاعته .. بل على العكس تحاول دائما تحويل حسناته الى

سيئات ، وعلومه الى جهالات ، اذ هى بالغة الفطنة ، شــديدة الفتنــة ، ضارية اللعنة !

ولكن الله وملائكته وسائر قوى الخير فى الطبيعة مع الانسان ! ولذلك كتب له النصر فى كفاحه ضد كثير من جنود الشر ، وأصبحت كلمات الحق والايمان والعدالة والعلم والمساواة ، مزامير صلوات لأممه وأفراده ، وقد انكشف له وجه الأرض وجسم الانسانية جميعها ، وابتدأ يعرف مكانه ووضعه فى الطبيعة ويراه رأى العين .

وقد رصد الله له رحمته الواسعة ، وحلمه العظيم ، وغفرانه السمح ، منذ أن قال للملائكة : « انى أعلم ما لا تعلمون » حتى يبلغ الغــاية التى قدرها له « والله غالب على أمره » « كتب الله لأغلبن أنا ورسلى » !

ولا يهولنك ما تراه من الجريمة والفساد والأوبئة والنكبــات التى تجتاح حياة الانسان .. فان الذى خلق هذا النوع متيقظ له ، دائم الرعاية عليه ، يسوقه فى طريق مرسوم حتى يبلغ غايته ، برغم كل ما نسميه الشر والفساد والباطل الذى ما خلق الا للحق والصلاح ...

فلولا الأمراض ، ما ظهرت علوم الطب التى كشفت لنا عن ملايين من عوالم الجراثيم ، وكانت حياتها مستورة فى « غيب السموات والأرض » ، ولولا الحروب ما تقدمت أدوات الانتقال السريع واختزال المســافات ، وما تنافس الناس على استخراج ما فى المناجم من الركاز ، وكان كل ذلك « غيبا » محجوبا فى الأرض ..

ولولا الغرائز السفلى كالطمع والجشع والأنانية ، ما رأيت فى الأرض هذه الحياة العنيفة الحركات فى التعمير والاقتناء والتسابق عــلى كشف بقاع الأرض المجهولة واظهار غيوبها ، واقامة معالم الحياة العلمية المتحضرة فيهــا .

ولولا البأس الشديد فى الحديد والنار ، ما تكونت الامبراطوريات الواسعة التى ربطت بين كثير من أمم الأرض برباط التفــاهم والحب والخدمة المشتركة ، وما ابتدأت البشرية الآن تفكر فى جامعة عامة لجميع

الشعوب والأمم ، تجمعها على أسس العدالة والسلامة الاجماعية ، وخدمة العلم خدمة مشتركة ، وتقيها من شرور التدمير والتخــــريب وما تنتجه الحــروب .

وينتظر من التكوين الطبيعى للانسان أن يصدر عنه كل ما يمكن أن يصدر من خير أو شر ، لأن من طبيعته ومهمته أن تتضح غرائزه الكامنة فى أعمال الخير واعمال الشر حتى تتحقق الصور المقصودة من حيــاته وهى ابراز كوامن الطبيعة واشعاعات عناصرها ولن يمتنع الشر من طبيعة الانسان فى هذه الحياة الدنيا .

ونظرة الى تاريخ البشرية ترينا التقدم المطرد فى سبيل التجميع والتوحيد فقد كان الانسان فردا ثم صار أسرة ثم صار قبيلة ثم صار أمة ثم صــار امبراطورية وولايات متحدة ، ثم بدأ يصير « جامعة أمم » ستنتهى الى « حكومة عالمية » فى يوم ما ، قريبا كان أم بعيدا .

فالشر هو الذى يدفع دائما الى تقوية الروح بالجهاد للخير . لأن الأرواح لا تقوى الا بالمجاهدة ، كما أن الأجسام لا تقوى عضلاتها الا بالمقــاومة .

وان قيادة الانسان الى الله رب الطبيعة قد صارت الآن من أســهل الأمور لأن العلم قد ألقى كثيرا من اشعته على مواقع يد الله فى الطبيعة ، وعلى كثير من الأبواب التى توصل اليه ..

ولكن كثيرين جدا من الذين يحترفون قيادة الناس للدين أغبيــــاء محدودون عميان .. فكيف يقودون فى طريق مملوءة بكثــــير من جثث الخرافات والأباطيل التى لصقت بالدين فى زمن الجهل والظلام ، والتى صرعها العلم الواضح والعقل الطلق المستنير ؟ !

* * *

وأريد أن أخص « منطقة الشهوات » فى النفس البشرية بالتفاته فى القصة القرآنية السابقة :

قالت الملائكة وهم الأبرار الطائعون المخلصون حياتهم لله والخــير : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس

لك ؟ قال انى أعلم ما لا تعلمون » وكذلك كل ما نراه من الفلسفات والخطرات المبنية على سوء فعل الانسان ، وسوء الظن به ، والسخط عليه ، انما هو ناشىء من طبيعة السمو فى نفوس لا ترى الحياة الا فى المثل الأعلى الذى رضيته نذاتها هى ..

وما ضر منطقة « العقيدة » ومنطقة « العبادة » ومنطقة « العلم » ومنطقة « المعاملة » فى الدين الا الخلط والمزج بينها وبين منطقة « الشهوات » .

وفى اليوم الذى يفهم فيه الحل والفصل المعقول بين هذه المناطق ، يمكن أن نرد الى حظيرة الدين ، عددا كبيرا من الآبقين الهاربين الجاهلين باختلاف مناطقه واتساع آفاقه ..

ويريد بعض المحدودين ، أن يجعلوا تدبير الله كتدبيرهم ، وقياسه على قياس تفكيرهم المحدود .. ولو كان كذلك لخسف بالظالمين والكافرين الأرض ونكل بالأشرار تنكيلا بدون حلم وامهال .

ولكنه تعالى واسع العلم والحلم ، غفار ذو وزن دقيق للأعصاب وتأثير الوراثات وعوامل البيئات وهو لا شك ينظر للفساد الظاهر فى حياة الانسانية نظرة وزن لما تورثه أمشاج النطفة الآخذة من القوى الحيوانية والعناصر العمياء الحادة .

اننا — نحن القاصرين — نغتفر للطفولة عبثها وحمقها وطيشها وجرائمها ولو كانت القتل ، لأنها لا تدرك .. فكيف نريد أن نجعل حلم الله وتقديره للظروف أقل من تقديرنا !

ان الأمر فى ذلك يحتاج الى التنويه والتنبيه الى أن الانسان كان الى عهد قريب فى دور الشباب ، وأن ذلك كان علة صبر الله وحلمه عليه فى سبيل وصوله الى دور الرشد والعقل ، وان من العدالة أن نرحم الطفولة المجرمة .. كما ان من العدالة ايضا القصاص الشديد من الرجولة المجرمة العابثة بحدود الحياة وحرماتها . وهذا ما كان فى هذه الحرب ؛ فقد اثبتت للناس أيهم وصلوا الى درجة لا تحتمل العبث بحرمات الحق

والعدالة ، وأن حربهم وجرائمها صارت كحرب « الآلهة » لا كخصام الأطفال .. فليحذروا من الآن ، ولينتبهوا الى نفوسهم وما صار لها من قدرة خطرة ! والى أن الله حينما أباحهم أخيرا بعض أسرار علمه فى التكوين والتخريب ، انما ارادهم ان يستخدموه فيما يوحى به رشد الرجولة العاقلة ، لا حمق الطفولة الطائشة !

والحق أن ما يتلاقى فى مجموع الانسان عالم عجيب متناقض ! فهو بين تلك القوى الملكية البارة العاقلة الخيرة .. وبين تلك القوى العمياء الشيطانية الطائشة . فلا عجب أن يكون بينهما على اضطراب شديد وابتلاء عنيف ، يستحق من أجلهما نظرة حليمة راثية رحيمة توحى بالتفكير الدائم فى وسائل انقاذه من طغيان قوى الشر والجريمة والشهوة الآثمة .

فوق الموازنة

تأكيد انكار – نظرية النسوء والترقى – سعى الانسان للخلود بالجسم والفكر والصورة والصوت والحركة والروح – اهتمام الانسانية بنفسها وتيقظها لسير تاريخها – الانقلاب الاسلامى – انقلاب القرن السابع عشر – مزاعم عامية

نعود فنؤكد انكار أن يسوى بين حياة أى نوع من الحيوان والنبات وحياة الانسان ابى العجائب .. الانسان الذى يفكر فيها ويدرسها ويصورها ويكتب عنها ويتصرف فيها ويتغلب عليها ، وهى لا تفعل شيئا من ذلك .. الانسان الذى يولد وهو أقل منها قدرة على التغذى والدفاع عن نفسه ، ثم ينمو ويترقى الى مالا نهاية له فى الفكر والعلم بما يزيد عن ضرورات حياته ، بينما هى تقف فى نموها وادراكها عند حدود حفظ حياتها ..

الانسان الذى خلقت هى له ، بدليل تسخيره اياها فى خدمته ، ولم يخلق هو لها ، بدليل أنها لم تتغلب عليه وتسخره وتتصرف فيه .

الانسان الذى خطا فى ستة آلاف سنة — هى عمر التاريخ المكتوب — خطوات واسعة ثابتة متلاحقة ، فتغيرت حياته من العرى والبساطة فى المسكن والملبس والمدرسة والحرفة والعبادة تغيرا عجيبا ، يكاد يجن منه آباؤنا الأولون لو بعثوا ورأوا ما وصلنا اليه .. بينما الحيوانات والحشرات واقفة كما هى منذ عهد أجدادنا الأولين بها .

وهنا الدليل القاطع على وجود روح سام من الله فى الانسان ، يدفعه الى الأمام دائما فى هذا العالم ، حتى يكشف عن كل سر فى الطبيعة ويتصرف فيه ، ويدفعه الى ادراك الكمال التام الذى ينتظره فى عالم آخر.

فان لم نعترف بقيمة سامية للانسان خارجة عن نطاق حياته الحيوانية،

فسوف تختلط أمام الفكر المثل ، وتلتوى السبل ، ونضل ضلالا بعيدا يؤثر فى خدمتنا للعلوم والآداب الرفيعة والعمران تأثيرا رديئا .

وان سوء الفهم لنظرية النشوء والترقى من أكثر الذين درسوها دراسة سطحية ، هى التى لونت نظرة الكثيرين الى قيمة الانسان بهذه الألوان المزرية التى تبعث على تحقيره واسقاطه من العرش الذى أجلسه عليه الدين منذ أقدم العصور .

فبناء على تلك النظرة المبنية على سوء فهم للنظرية ، ذهبت عن الانسان قداسته ، واختلت مقاييس الأخلاق وموازينها ، وكان فى هذا أكبر دافع فى العصر الحديث الى التحاكم الى قوانين الأدغال التى لا مجد فيها الا للقوة العمياء والشهوات والسيطرة الوحشية التى لا تؤمن بخدمة الفكر والعلم ولذة الحياة فى مثل أعلى .

وعلى فرض ثبوت نظرية النشوء — وهى للآن لا تزال فرضا نظريا يحتاج الى حلقات مفقودة ليصير حقيقة علمية — لا يجوز لنا أن نخلط بين الحياة الآلية التى هى « مضروب مشترك » فى أجسام جميع الأنواع ، وبين الروح الانسانى الملموح فى رقى الانسان الدائم السريع ، ونزوعه المستمر الى الأكمل ، ونفاذ فكره فى عالم المعانى المجردة التى تبدو عجيبة رائعة فى الرياضيات العليا ، والخفقات الروحية العليا ، والمثاليات العليا التى لا يمكن تفسيرها تفسيرا « بيولوجيا » أو « فسيولوجيا » .

ولقد أحس الانسان ، حتى فى عصور جهالته ، بتفرده وامتيازه على سائر ما يحيط به فى الطبيعة ، اذ وجد نفسه أقوى قدرة ، وأوسع حيلة فى التغلب على المشقات ، وفى الرقى بالحياة رقيا مطردا ، ولذلك لم يستطع أن ينظر الى القبر كأنه نهاية أبدية لتلك الحياة ، بل وجد فى الهامه أن لابد وراء موته من امتداد لحياته على أسلوب آخر أو على أسلوب الدنيا .

فما باله يشك الآن فى قيمته السامية ، بعد أن تضخم أمامه ميراث علومه وآدابه ، وعمر الأرض عمرانا ، وافتن فيها افتنانا ، وصار فطنا لما فيها من جمال وأسرار ؟ !

انه ما فتىء منذ وجوده وهو يسعى لخلوده ، ليظل مغمورا بهـذا الاحساس العجيب بالحياة ، ولم يكن يستطيع أن يتصور الخلود فى أول الأمر بأكثر من أن يعطى شعلة حياته الى ولده . وقد وجد فى ولده أكبر عزاء له عن موته وفنائه ، ولكنه لم يقنع بهذا بل ظل يبحث جاهـدا عن وسائل خلود جسـده هو بذاته ، فحنطه ونقش صـورته على الألواح والتماثيل ، ثم خطا خطوة أخرى فخلد فكره بالكتابة ، ثم خطا خطوات متلاحقة فى العصر الحديث نحو هذه الغاية ، فخلد صورته الحقيقيـة « بالفوتوغراف » وصوته « بالفونوغراف » وأنغام نفسه « بنـوتة » الموسيقى ، وحركات جسمه «بالسينما» ، ثم تصرف فى الصوت والصورة والحركة ونقلها على أمواج الأثير ، فاخترق الحدود والكثافات بالراديو والتليفزيون فى أقل من لمحة ، ثم هو الآن يتجه ببحوثه الى عالم الروح ، لعله يستطيع أن يتصرف فيها ..

فأنت ترى انه مشغول دائما بخلود حياته ، اذ يحس احساسا فطريا وعقليا أنها لا يليق بها الفناء الأبدى الذى يرجعها الى العدم المطلق ..

وأحب ان ألفت الفكر الى أمر هام جدا وذى قيمة كبرى فى النظر الى قيمة الانسان : وهو أن حياة هذا النوع منذ ابتداء تيقظه لها فى العصر التاريخى ، وتقييد خطواته فيها ، حياة مطردة الرقى ، سائرة بسرعة الى الوضوح والانكشاف .

ولقد عاش أدهارا طويلة وهو يجهل أجناسه وانواعه ، غائبا فى اوطانه الضيقة ، يحسبها هى وحدها كل الدنيا ، لا يعلم حدود اليابس والماء ، منثورا لا رابطة تجمعه ، جاهلا بما فى الكون من عوالم وأسرار ، وقـد كانت أديانه اديانا خاصة . كل قرية فيها نذير يسدد حياتها بحسب ظروفها هى وحدها .

ثم كان الانقلاب الاسلامى قمة النضوج فى العقيدة الدينية ، اذ جعلها عقيدة طبيعية عقلية دولية وضعت فيها الأسس لوحدة البشر وتلاقيهم على المعانى المشتركة بينهم ، حتى يتأتى من وراء ذلك ، السعى الى وحدة العمل والخدمة المشتركة ، ولذلك لم تنتظر الأرض أن يأتيها هدى من السماء

على يد رسول بعد رسول الاسلام ، وأحست ان الله اغلق باب «الوحى»، وجعل محمدا « خاتم النبيين » ، وقد صدق الزمان ذلك فـلا مجـال الجدال . نلم تعد الانسانية تقبل ظهور البطل فى صورة نبى . وقد نبه الى ذلك «كارليل» فى كتاب « الأبطال » . ولعل هذا هو معنى قول محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فى خطبة حجة الوداع : « ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض » أى أن الانسانية قـد بدأت بعد الانقلاب الاسلامى دورة زمنية جديدة .

وحقا يجد كل من يتفرس ويستقرىء التاريخ ، أن عصرا عقليا جديدا قد ابتدأ بظهور الاسلام ، وافساح الامبراطورية العربية التى احتضنت جميع علوم العالم القديم ومعارفه وأنمتها وحملتها الى العالم الحديث . فالانقلاب الاسلامى ينبغى أن تجعله الانسانية كلها بدء تاريخ رشد للعقل ووحـدة للدين فيـه .

والآن صارت الأرض كقطر واحد بأدوات الاتصال السريع ، وكل أمة تعلمت لغات غيرها ، وارتبطت مجموعات كبيرة من الأمم برباط واحد واختلط الأبيض بالزنجى ، والشرقى بالغربى ، وسكان الجـزر النائية الغائبة فى المحيطات بسكان القارات ، وصار الانسان العادى يطلع كل صباح ومساء على أخبار العالم الأرضى كله ، ويرى حياة جميع الأمم فى السينما .. وهذه كلها مقدمات لنتائج لا شك فيها عند من يقيس ويعتبر بالمـاضى .

وكما ثبت أن الانقلاب الاسلامى كان بدء عهد عقلى وقلبى للانسان، كان القرن السـابع عشر الميلادى بدء عهد عملى وعلمى له . وبذلك طار الانسان بجناحين قويين من الحياة الفكرية والحياة العملية الى الغاية من خلقـه .

فليس من الصواب ولا من الانصاف أن ننظر نظرة تشاؤم الى حاضره ومستقبله ، بعد أن رأيناه يبنى حياته على العلم والنظام بناء كان يعد فى المـاضى من أعمال السحر وخوارق العادات ..

ومن النظر العامى أن نزعم أن الانسانية الآن أحط منها فى الماضى .. ولست أدرى ما مبعث هذا الزعم ؟ أهو ملاحظة فساد فى العقيدة الدينية ؟ إن العقيدة الدينية الآن أصح منها فى المــاضى ، فهى فى اكثر الأمم المتعلمة بعيدة عن الشرك والوثنيات والخضوع الأعمى للكهنة .. وما أصدق ان عاقلا يخلى الطبيعة من عقل يديرها . ولكنه ليس آلهة الكهنة . وعمــا قريب يذهب ما فى بعض الأديان من بقايا الوثنية والاشراك ، ولن يبقى للانسانية الا دين الفطرة والعقل بغير عنوان وانتساب الى جنس او شخص أو مكان .

وهذا هو المعنى الحرفى لكلمة « الاسلام » . فأى امرىء يؤمن بخالق واحد للطبيعة ، ويحسن العمل فى الدنيا فهو « مسلم » والمعنى الحــرفى لكلمة « اسلام » هو الانقياد والتسليم ، لسنن الله وقوانينه فى الطبيعة .

واقرأ ان شئت : « وقالوا لن يدخل الجنة الا من كان هــودا أو نصارى . تلك أمانيهم .. قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين . بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .. والآيات كثيرة فى هذا ، ولا محل الآن للخوض فى هـــذا الموضــوع .

وقد صارت الأديان التى تحتضن بقايا الوثنيات تختفى وتفر من نور العلم والفكر الحر ، ويزعم سدنتها أن الدين لا مناقشة ولا تحاكم للعقل فيه .. وهذا أول الاعتراف منهم بأنهم على باطل عما قليل يذهب مذموما مدحورا الى قبور الخرافات والاباطيل .

أم يكون مبعث هذا الزعم هو فساد الأخلاق الاجتماعية ؟ ولا هذا أيضا .. فان الأخلاق الاجتماعية تترقى باطراد فى كثير من الأمم التى بنت حياتها على العقل والنظام رقيا لا يمارى فيه الا من يرسل الكلام بدون هدى ولا دليل منير .. فحكم الشورى هو الحكم الغالب ، وحرية الفرد وحقوقه صارت مكفولة معترفا بها ، وقــد نظم الاحسان ، وحوربت الأمراض وطوردت الجرائم ، وصار التعليم والصحة والقوت حقا للفرد

على الدولة ، ومجدت صفات البطولة والنبل ، وأقيمت لهـا النصب والتماثيل والأوسمة وحفلات التكريم ، ووطدت وحدة الأمة وتكافلها بأروع المظاهر كما فى بعض الأمم العظيمة .

أظن أن مبعث الزعم بانحطاط الانسان هو انطلاقه وراء شهواته ، وافتنانه فى اشباعها .

وعلى فرض صحة هذا الزعم فان منطقة الشهوات منطقة منفصـلة عن منطقة العقيدة الأصلية فى الدين والحياة ، ولا يجوز أن تكون سببا لهذا التشاؤم الذى قد يصل الى الكفر والاعتراض الصريح على الله ، حتى من بعض كبار المتدينين الذين أرسلوا الى منذ حين ، وكانوا من أعظم الأسباب لتحرير هذا الكتاب : اذ أن أحدهم وصل به الحال الى أن يقول : ان الله تعالى غلب على أمره . ! اذ لم تتحقق غايته من خلق الانسان وهى العبادة .. وبعضهم يتهم الله تعالى بالأنانية ! لأنه لا يبالى بما يصيبنا من الآلام والعذاب فى عبادته . . !

وما أكثر ما يجنى قصور الفهم والتوجيه للنصوص على الناس ! وما أعظم مسخ الألفاظ بكثرة مضغها بدون ادراك ! وما أعظم جناية التقليد الأعمى فى أخطر أفكار الحياة وهى فكرة الايمان !

وقد بينت معنى « العبادة » فى كتاب « الحياة صادقة » المهيأ للطبع بما أعتقد أنه يقضى على بواعث مثل هذه الاعتراضات .

مسرح هائل وممثل واحد

نظرة واسعة ــ لمن الحياة ؟ ــ ممثل مجهول ... ــ زواج الفكر بالمادة ــ أعماق الكون ــ الحياة هي الانسان ــ الباقيات ــ أمومة الاخلاق وأبوة العلوم ــ نوعان من الرجال ــ العكازتان ...

فى السماء : كل نجم عليه غشاء سرمدى من السكون ... ولو ألقيت نظرة على النجوم والكواكب ، لم تر شيئا الا لمحة عينك أنت ، واختلاج ضوء يكاد يكون من خداع النظر ..

وفى الأرض : كل شيء يسير فى حركات محدودة وسنن مطردة ، وتكاد لا تسمع الا أصوات هبوات الريح ، أو لطمات الموج ، أو أصواتا تظهر من تلاقى الريح بالأشياء ، أو عبث الأمواج بالأشياء ... وما عدا ذلك فأصوات حيوان لا تعدو أن تكون مقاطع ونبرات بسيطة محدودة يصح أن تلحقها بعزيف الرياح على شعاب الجبال وقصبات الأشجار ، أو بهدير الأمواج ، ذلك الصوت الواحد المكرر على توالى الأزمان .

ولا ترى الا تلك الدورات الأبدية من ليل ونهار ، وربيع وخريف وشتاء وصيف ، ورياح وأمطار ، وفيضانات دورية ، وأرحام تدفع وأرض تبلع ، وحياة رتيبة للبهائم والوحش والطير والأسماك ...

تلك هى الحياة فى الأرض من غير الانسان .. لا تجديد فى أساليبها ولا تنويع ، الا ما خلق الله على الجلود والريش والأزهار والثمار ، والجدد البيض والحمر فى السفوح والجبال . والا ما تنقله الرياح والمياه فى دوراتها من مكان الى مكان . والا ما توزعه قوى الطبيعة بالمكيال الوافى والوزن الواسع ؛ فلا يضاف للطبيعة شيء لم يكن منها ، ولا يقلقل فيها شيء من موضعه ، ولا ينقح فيها شيء يستحق التنقيح .

اذا لمن هذا كله ؟ لمن الليل والنهار ، وهذه الآلات الهائلة التى تدار والحيوان الآبد والداجن ، والأزهار والثمار ، والأنهار والجبال ، وألوان

الشفق فى الأصائل والأسحار ؟ أهو للحمير والقرود والنمور والثعالب والفيلة والآساد والفهود والثعابين والخفافيش والبوم والحشرات والديدان ؟ !

كلا ! ليس فى هؤلاء من يصح أن يفقه شيئا من ذلك الابداع والجمال ، ولا أن يسند اليه الدور الأول فى رواية الحياة .. وانما هن أعاجيب وتهاويل وصور لزينة المسرح ، ودواب لحمل الأدوات والآلات اليه ... أو ان شئت فقل ان هؤلاء « حروف » فى أبجدية « الأسماء » التى يلزم أن تتألف منها رواية الحياة التى يمثلها ممثل آخر .. ممثل لابد أن يكون حرا يذهب فى أى اتجاه على المسرح ، ويجدد فى التمثيل والاخراج كل يوم ، ويقوم بأدوار جميع ما على الأرض ، ويتمثل فيه الابتكار الذى يجعل رواية الحياة غير يوم مكرور دائم مملول لدى النظار من سكان السماء ، وسكان الأرض من الراصدين الواعين .. ويحشر كل شىء فى تمثيل أدواره ، ويضع عقله وقلبه على كل شىء ..

ومن هذا غير الانسان ؟ !

لقد وزع الله عقوله وقلوبه على المواد والقوى سافلة وعالية ، فجعل أفئدة من الناس تهوى خدمة شىء ، وأفئدة أخرى تهوى خدمة شىء آخر ، كى لا يتعطل أفق من آفاق الوجود من غير نظر اليه وتفرس فيه ، ولكى يزاوج بين خواطر الفكر وخواص المادة فتنتج الأحكام عليها ، وتتبين حكمة الله المخبوءة وراء أسرارها ، ولتطلع العقول على فنه واحاطة علمه بكل شىء ..

قانون المزاوجة هنا أيضا : فبين فكر الانسان وبين أسرار المادة زوجية تنتج علما أو فنا أو احساسا أو شعورا ..

فالأرض من غير الانسان هى ذلك البيت الصامت ، وذلك الدولاب الدائر ، وتلك الدورات الأبدية التى لا غاية لها ، ولا يد تتلقى فيضها وتنتفع بقواها ، ولا اطراد فى ارتقائها ، ولا تغير فى أوضاعها ، ولا زيادة فيها . . .

فأين المخرج من تلك الحدود الواقفة الجامدة ؟ وأين الباب الى ماهو أعظم وأوسع ؟

ان عمق النفس هو الذى يؤكد سعة الدنيا وتنوع المناظر . فاذا لم يدخل المرء فى أعماق النفس البشرية ، خيل له أن الوجود فى وحدة قوانينه وتشابه دوراته ما هو الا شىء محدود ..

والانسان أدرك عظمة الله وعظمة الكون لما أدرك عمق نفسه ، وعرف الطريق الى الكمالات والصور التى لا تتناهى لما عرف باطن نفسه ، وخرج الى عالم أرحب وأوسع لما أطال النظر فى نفسه .

وما عرفت الانسانية جلال الله ، ولا تبينت صفاته وتوضحت لها حكمته ، الا من عقل الانسان الفائق الذى أطال النظر فى الدنيا ذات الدورات المحدودة المكررة ، وأطال النظر فى النفس ذات الدورات غير المحدودة ، وزاوج بين هذه وتلك .

وهذا يسلمنا الى أن نقول : ان الانسان هو الحياة الأرضية بالمعنى المعقد المركب غير المتناهى ..

ولا حد للحياة اذا التقت الطبيعة بالعقل الانسانى الذكى الحساس المفكر ..

ولا دخل للطبيعة الا فى تقديم المواد الخامة الى يده وفكره ليصنع بهما ذلك التنويع ...

ويخيل الى أن فى روحه ميراثا خفيا من نظام لعله نظام « الجنة » وجمالها وراحتها واتساعها . ولعله يحاول بعد طرده منها أن يوجد صورا لها فى الأرض ..

واذا كان كل شىء فى هذا الوجود يرمز الى معنى بسيط ، فان النوع الانسانى يرمز الى جميع أنواع الحياة وألوانها مضروبا بعضها فى بعض كما يضرب عدد هائل من الأرقام فى نفسه ، من الواحد الى آخر العدد ان كان للعدد آخر ..

فالانسان هو « مكان » التقاء عوالم الوجود المشهود كله ، ليحدث من التقاء كل شيء بكل شيء منفردين : تتائج وصور بسيطة ، ومن التقاء جميع الأشياء بعضها ببعض : نتائج وصورة معقدة ، لا يمكن تقريبها الا للعقول الكبيرة التى لا تكاد تدركها الا بالوهم ، أو بالذهن الرياضى صياد الأخيلة والأحلام والفروض ..

* * *

وعمار عالم الفكر بتلك المعانى الناتجة عنه هو ، وتنوعها الى ما لا نهاية له ، أمره عجب ! وخصوصا اذا تصورنا أنها معان محدودة بحدود الرءوس البشرية ، معدومة فى غيرها ، الا اذا خرجت وتجسدت وتشكلت فى قميص مادى .

ترى ، هل هى ذات وزن وحياة عند الله الكبير ذى العقل المحيط والعلم الواسع ؟ وهلهى علىتناقضها واختلاف الانفعالاتالمتصلة بها ذات قيم عنده ؟ أم هى ملاه وسلويات لذلك النوع المدلل فى الأرض ، تموت معه وليس لها فى سجل الوجود أثر بعده ؟

ان تصور فناء عالم الأفكار العظيمة الرائعة التى تتداول عقــول الانسانية ، كاف وحده أن يقذف فى قلوبنا الايمان بوجود عالم ثان وعقل آخر يحصى ذلك الحصيد ، ويجنى ذلك القطاف العجيب الناتج من ازدواج الحياة المادية والروحية فى الانسان .

* * *

أسرتان اثنتان من أفكار الانسان هما الباقيتان ــ فيما أرى ــ على وجه الزمان فى سجل الأرض :

أسرة الأفكار الخلقية ، وأسرة الأفكار العلمية التجريبية .

والأسرة الأولى هى التى سددته الى غايته ، وهيأته للخــلافة فى الأرض وتحدرت فى أعصابه ، وأيقظته الى سموه ، وجعلته ذا قيمة لدى نفسه .. والى تلك الأسرة ينتمى الدين ، ومنها انفتحت أبواب السماء للانسان ونزل اليه وحيها .

والأسرة الثانية هى التى مهدت له طريق الحياة المادية ، وسلطته على الطبيعة يرتفق منها مرافق حياته ما وسعته الطاقة ، وهى التى أنمت ثقته بنفسه ، وأظهرت آثار وجوده ، وجعلته متصرفا فى المادة بما لاطاقة لغيره من الأنواع به .

والأسرة الأولى كانت الأساس فى بناء الحياة المدنية ، واتاحة الفرصة للفرد أن يفكر ويعمل لخدمة المجموع فى حماية القوانين والمعاهدات ، وكانت الأساس فى توجيه روح الفرد الى المثل العليا ، وبناء مكارم الانسانية .

وقد استصبحت الانسانية بأنوار الأنبياء بناة الأخلاق ، قبل أن تستصبح بأنوار « العلماء » بمئات القرون .. وكانت الأخلاق للحياة بمكان الأمومة الرحيمة .. تنمو فى رعايتها الطفولة وتشب وترشد ، وكانت العلوم بمكان الأبوة الساعية الجاهدة .

فالأرض مدينة لنوعين من الرجال : الباحثين فى أطواء الروح الانسانية ، المستخرجين منها وسائل طمأنينتها ، السباقين الى ادراك سموها وتفردها ، الواضعين لها أسس قيمها الذاتية ، الرائدين بأبصارهم وبصائرهم كل أفق فى الأرض والسماء ، المستنزلين لها أسرار السماء بالاخلاص والبكاء ... وهم لا شك الأنبياء والأصفياء الذين لم يقفوا عند حدود الكثافات والسدود والقيود المادية ، بل أرحبوا وأفضوا فأتوا بالخير والتفاؤل والاطمئنان .

والنوع الثانى هو نوع العلماء المخترعين الذين يزيدون فى وسائل راحة الأجسام ، ويخففون الآلام والمشقات ، وينمون قوة الخلق والتقليد فى يد الانسان ، ويزيدون صور الحياة بالتنويع والترصيع والتوشيع والافتنان .

ولئن كان النوع الثانى هو صاحب الدولة على عقول الناس الآن ؛ لكثرة ما فتح عليهم من بركات الأرض ، فينبغى ألا ينسى المفكرون أن النوع الأول هو مقيم أساس الحياة الانسانية ، والآخذ بيد البشرية حتى

بلغت دور الرشد . وهو الأكبر خدمة ، والأبعد أثرا ، اذ هو الذى بعث فى النفوس طمأنينتها على قيمتها ، وأيقظها لذاتها ، وأرشدها لمدخرات روحها وعقلها ، وهو الذى أوجب عليها الملاءمة بين ما تصنع وما تنتظر .

وستستحيل كل بركات العلم الى آفات ونقم وشرور ، اذا لم تتذكر الانسانية جهاد آبائها الأنبياء القدماء وتقم حياتها الجديدة على أسس ما أفنوا أعمارهم فى وضعه وتوسيده ، وما قتلوا وصلبوا فى سبيل اعلائه وتشييده .

* * *

غير هاتين الأسرتين السالفتين من الأفكار فهو زبد يذهب جفاء هو باطل لا حقيقة له ثابتة دائمة . هو صور عابرة لتسلية النوع فى جهاده وتخفيف اعناته .

ويخيل الى حتى درجة الظن .. أن فكر الانسان لا يجدى عليه شيئا الا حين يتجه الى فتح جديد فى عالم أخلاقه ، أو فى عالم المادة للانتفاع بها وكشف خصائصها ، ولقط أسرارها واستخدامها ، وأنه ما وضع فى الحياة موضعا أصيلا الا فى هذين الموضعين .

فمعرفته بأخلاقه تقيم حياته على الصراط السوى الذى ليس فيه عقبات وسدود من فعل الغرائز والشهوات وعقابيل الطفولة ، وتفرغه للعمل المثمر الدائم فى المادة .

ومعرفته بأسرار الطبيعة تفتح له أبواب العمل فيها ، وتنتج له بركات من السماء والأرض ، وترقيه وتمكنه من العبادة بالفكر والعمل .

أما فترات التفلسف النظرى والهيام وراء البدوات والفروض ، فتلك لا محصول وراءها ، أو هناك محصول ضئيل .

* * *

هاتان عصوان لا يستطيع الانسان أن يمشى بدونهما خطوة واحدة وانما يدور على نفسه كما كان فى العصور الأولى ، ولو كان فى القرن العشرين .

ولا يمشى باحداهما ويترك الأخرى الا أصيب بالعرج والتعثر .

فأمم الروح بدون علم وعمل فى المادة ، أمم بائدة مستضعفة معطلة القوى ، محدودة الحياة ، مسلوبة الحقوق .

وأمم العلم بدون الروح ، سباع ضارية ، يأكل بعضها بعضا وتأكل غيرها ، ويتجه كل عملها وفنها الى خدمة الشر والاثم ، وتستحيل بركات العلم فيها الى نقم ، كما يتجه كل العلم والهندسة فى الشوكة الى قمتها الحادة وكما يستحيل الدسم فى الطعام الى سم اذا ذهب صلاحه واختلت أخلاطه .

* * *

فمبعث ثقة الانسان بنفسه ونوعه هما العلم والخلق معا . فالأول يريه أن فكره موضع تجلى أسرار الله فى التكوين ، وان الله يبيحه به كثيرا من أسرار ملكه ، لأنه مفتاحه ، ولأنه يعطيه من القدرة ما به يكون ويخرب ويشعر أنه صاحب سلطان .

والثانى يريه أن قلبه موضع القاء أسرار رحمة الله وعدله ورأفته وجماله وطهره ، وموضع القاء كثير من الأذواق للموجود من المعانى والصور . والأذواق هى الحياة فى الواقع ، فالصور الفكرية المادية بدون أذواق ، ميتة . والذوق هو الذى يحييها ويحددها ويدخل بها معنى الحياة الى القلوب .

* * *

وقد نرى الشيء يوما حسنا ويوما قبيحا ، بينما هو هو لم يتغير ، وانما تغير ذوقنا له . والواقع أن قلب الانسان هو مكيف لمشاهد الأرض بالنسبة لنا ، ولولاه لذهب الجمال والفن .

الانتظار !

الطبيعة تنتظر – عالم جديد من الفكر والحديد – حيوانات ووحوش حديثة – قدرة الفكر – الثقة بالانسان – كنوز مدخرة – حياة عريضة

كل شىء فى الطبيعة يبدو عليه انتظار غاية الحياة الانسانية ، ويبدو على الانسان كذلك انتظار غاية مجهولة فى حياته على الأرض .

كل شىء ينتظر بلوغ الانسان الى غايته ، كما ينتظر كبار البيت بلوغ طفل عزيز مبلغ الرجال .

وكل شىء فى البيت مسخر للطفل · تعرض أمامه أشياء البيت وحيوانه ودواجنه ولعبه .

وهكذا أرى الطبيعة تنتظر صابرة غير متململة أن يسير هذا الطفل ويهتدى الى الغاية المقصودة المجهولة .. وهو لا يزال يتعثر ويذهب ذات اليمين وذات الشمال ، ويرتد وينتكس ، ويعترك ويحترب ، ويخلد الى تراب الطريق يعبث فيه فى ذهول وغفلة ، لا يعرف كيف يمد بصره الى حدود الأفق البعيد الذى يناديه : انظر الى دائما ، واضرب بيديك ورجليك فى العقبات والسدود حتى تصل .

وكان لعبثه وتلبثه عذر فيما مضى ، أيام كان يدور على نفسه وسط المبهمات والألغاز ، وأيام كانت طريق حياته ملتوية معتمة ، تلفها جهالات ، وتحيط بها أهوال .. كل ما فيها غامض مغلق ، سواء أكان جامدا أم حيا ، ناطقا أم ساكتا .. فهو لا يرحم سائلا ولا يجيبه .

كهوف وأغوار ، ورياح مجهولة المهاب ، وأمطار غير مدفوعة بتدبير ، وصرخات وحش وطير وبهائم ، ونجوم تطلع وتغور ، وشمس تشرق وتغرب ، وجبال واقفة لا تريم ولا تزول ، وما لا عدد له من الأهوال والأحوال ..

ولكنه الآن راكب الريح والماء والأثير ، وطاوى الأرض فى خطفات ، ورائد السماء بالمقربات ، وكاشف الجن المستور بالمكبرات ، وقايس أبعاد النجوم وأضوائها بدقيق المقاييس ، وصانع « الحيوان » و « الوحوش » الحديدية من السيارات والدبابات والمدافع والطائرات والماخرات والغائصات ؛ فلا يليق به أن يصر على العبث والزحام على التراب بعد أن رأى الكنوز فى كل أفق تتفتح لعينيه .

وكان قدرا مقدورا أن تبقى العناصر والحيوانات خادمة له حتى يبلغ أن يستغنى عنها بما يصنعه تقليدا لها ومحاكاة لنماذجها .

فحين عجز الحصان وضاقت طاقته عن اشباع شهوة السرعة عنده ، ركب آلات سرعتها كذا ألفا من الأحصنة .

وحين عجز الزيت والشمع عن اشباع شهوته للضوء صنع مصباح الكهرباء فأضاء له بقوة كذا ألفا من الشموع ..

« وحين هدد بفناء أقواته ولباسه ابتدأ يركب أقواته من العناصر التى يتركب منها النبات واللحم .. وصار يصنع الصوف والحرير من اللبن والخشب .. وصار يأخذ والدهن من القذر بعد أن يحلل ويعزل ويطهر بالترشيح والتبخير والتكثيف ، كما ترفع الشمس والهواء الغازات والأمواه المقطرة من الأبوال والأقذار ، وتعيدها الى الأرض صالحة فى دوراتها الأبدية .

وقد رصد لكل قوة فى الطبيعة مقياسا يقيسها ، ويبين اتجاهها ، حتى يحترس منها ويتقى وينتفع .. فللامطار مقياس ، وللضغط الجوى مقياس ، ولاتجاه الرياح مقياس ، وللزمان مقياس ، وللمكان مقياس ، وللحرارة والرطوبة وغيرهما مقاييس .

وأظنه بهذا ، قد وضع عينه وفكره على حركة كل شىء واتجاه كل شىء فى الطبيعة . وذلك كله بمثابة خيوط الشبكة الحديدية التى يطرحها على قوى الطبيعة التى تنفعه أو تضره فى مرافق حياته .. وهذه الأرصاد التى رصدها لابد ستنتج له عالما فكريا جديدا يجب أن يسلم روحه الى عالم روحى جديد .

أجل ، انه عالم جديد من الفكر والحديد .. ! الفكر المطلق البارد القانص لأسرار المادة والقوة .. والحديد الطائع البليد القاسى المتمم لارادات الرجال .. الذى وجد فيه القلب الانسانى أعظم معبر عن بأسه وتصميمه فى اختراق السدود ، فصهره وشكله بنار عزمه ، قبل أن يصهره بنار كيره ، ويشكله بمطرقته .

ولقد ضمرت أظفار الانسان منذ أن اعتمد عليه . وكان كشفه مبدأ انقلاب فى حياته ، والآن يبتدىء به انقلابا أعظم ، بعد أن سلط عليه خياله وعلمه ، وصار يطير به ويزحف ويدفع ويجر .

وهل تظنون أن هذه الأهوال التى يشهدها الانسان الآن لا تترك فى نفسيته آثارها المحتومة فتخلقه خلقا آخر ؟

أتظنون أن قلبه وفكره لا تغيرهما رؤية هذه الطرق الحديثة فى البناء والافناء والهدم والسرعة والانقضاض والحشد والتعبئة ومعاشرة هذه الوحوش والحيوانات الحديدية ؟

ان من شهد تغير العالم بعد الحرب العظمى التى أظهرت قوة الآلة واختفى وراءها الانسان ، يوقن أنه ستختفى بعد هذه الحرب أشياء وتظهر أخرى .

وأتوقع ألا يقام للفردية والأنانية الشخصية والقومية بعد هذه المرحلة وزن كبير ، بعد أن رأى الفكر أن ملايين من الجماجم والقلوب البشرية تسحق وتحرق بمصهور النار ، وملايين من المعابد والمعاهد والمنازل المقدسة العامرة بالتحف ومخلفات العلم والفن والجمال ، تنسف وتذرى فى الريح هشيما وهباء ودخانا .

لقد احترق الانسان الأوربى مع جميع ما جمعه من الذهب واقامة من البيوت والمحاريب والتماثيل .

ولقد اختفت ملابسات روح الحياة الرفيعة الهادئة الضعيفة الماثلة فى اللحم والدم والأعصاب والاحساس ، وابتدأ عالم جديد من فكر مجرد يكاد يكون غير مصحوب باحساس .

وقد لبس الفكر أجســاما من المادة العمياء ، وكأنه قد انفصل عن الأجســام الانســانية ، واختبأ واستتر فى السيارة المصفحة والدبابة والطائرة . وصار يدب ويطير بهذه الأجسام الحديدية كأنه هو والحديد الذى يختفى فيه جسم واحــد . فهو للآلة كالروح والعقل فى الجسم الحى . وقد صنع للآلات أحشاء فيها حرارة ونبض ، ولكن ينقصها السر الالهى الذى فى « الأميبة » ذات الخلية الواحدة ، ويخيل الى أن الانسان هو ذلك السر الالهى لتلك « الحيوانات » الحديدية !

وحين قصرت دواب الأرض التى سخرها فى خدمته عن سرعة عقله ، صار يبحث عن القوى المجردة كالكهرباء ويلبسها أجساما من الجماد ، ويســيرها بها بطاقة عظيمــة مصحوبة بفكره وتســديده . فهى أطوع للانسان من الحصان ، لأنها ترى بعينه وتتحرك بسرعة فكره .

وآخر خطواته فى هذا الطريق الآن هو اســتخدامه اللاسلكى فى ادارة الآلات والسيطرة عليها ورصدها وملابستها بفكره من بعــد .. ولا ندرى ما يأتى به الغد من أعاجيبه فى هذا السبيل . وتفجيره الذرة واستخدام طاقتها الجبارة وغزوه الفضــاء بمراكب ومحطــات واطلاقه الأقمار الصناعية والصواريخ .

* * *

والفكر المجرد طليق فى غير حدود . والوجدان والاحساس مقيدان فى حدود الأذواق والمشاعر . فاذا لم يصحب الفكر بالوجدان والاحساس اخترق الانسان به الآفاق فى سرعة فائقة كأنه شعاع ثاقب ، بل هو أسرع من الشعاع . بل ليس شىء أسرع من الفكر .

ولقد يخيل لفكر الانسان أنه يستطيع أن يضع يده فى النار فلاتحترق ويمشى برجليه على الماء فلا يغرق ، ويسلم جسمه للريح فيطير ، وينظر بعينيه وراء السدود فيرى الآفاق . فالفكر لا يرى كل أولئك مستحيلا .. ولكن الوجدان والاحساس يقيدانه بالحدود الموضوعة للمادة ، ويهددان الجسم بالألم اذا لم يعترف بهذه الحدود والقوانين .

وقد خيل الفكر لبعض « السفسطائيين » اليونانيين القـدماء ، أن كثافة الأجسام وهم من الأوهام ، وأقام الدليل النظـرى لمعارضيه على ذلك ، فتحدوه أن يخترق بجسمه الجدار الذى أمامه ، فقام واندفع اليه بقوة ، وكانت النتيجة المحتومة : تحطم جسده وفدخ رأسه .

ان فكر السفسطائى لم يخطىء فى توهمه استطاعة اختراق الجدار ، ولكنه أخطأ حساب الوجدان والاحساس . والحقيقة أن الفكر لا حدود له ما دام يسير وراء القوانين الطبيعية .. فلقد استطاع أن يخترق الجدران والجبال بالصوت والصـورة والحركة حين خضع للنواميس الطبيعيـة فخضعت هى له كذلك . ولست أدرى أقريب أم بعيد ذلك اليـوم الذى يستطيع الانسان فيه أن يخترق الأجسام بالأجسام ، مع وجود الالتئـام وعدم الصدام ، وأن ينقل الأجسام من مكان الى مكان كما ينقل الصور والحركات والأصوات ، وبالسرعة ذاتها التى يجرى بها هذه المدهشات ؟!

ان الثقة بالعقل الانسانى بعد أن فعل ما فعل فى تغيير الأرض ينبغى أن تكون من البدائه ، للانتفاع بها فى بناء الحياة الجديدة .

وكما آمنا بعلم الطب لتنظيم حياة الأجسام ، ينبغى أن نؤمن بعلم النفس لتنظيم حياة الأرواح .

وقد كان الانسان فى الحقب السابقة منزوع الثقة بنفسـه ، لكثرة ضغط عوامل الطبيعة عليه ، وكثرة العقبات التى تعترض سبله وتجعله يشعر بحقارته وضعفه وسط عظمة الأسباب والقوى الطبيعية .

ولكنه بعد أن تمكن من صنع أغلب الأشياء لنفسه ، والانتفاع بأكثر القوى ، والمناعة ضد الأوبئة والطوفان والقحط والصـواعق ، يجب أن يكون ايمانه بعقله ايمانا أصيلا ليصنع به مستقبله صنعا يريحه ويرقيـه ويجعله يتفرغ للفكر فيمن خلقه قادرا هكذا . !

ان الانسان يأتى بأعمال عظيمة فى صميم غايات الحياة وهو عنها غافل لا يدرك ماذا تكون نتائجها فى مستقبله ومركزه .

وان مصانع « الولايات المتحدة الأمريكية » وحدها مثلا تخرج فى كل دقيقة سيارة كاملة ! هذا جبروت وملكوت انسانى واسع يتفتح أمام عيون الراصدين لحركات الانسان .

فهذه السيارات « حيوانات » حديدية ، تولد كاملة من « أصلاب » المصانع و « أرحامها » ! ولا تحبو ولا تدرج ببطء الطفولة الحيوانية ، وانما تسير بسرعة الفكر الانسانى كما قدمنا فى هذا المقال .

وهى وأشباهها مما تنتج من اللقاح بين الفكر والحديد ، قد ملأت الأرض وأدالت دولة الخيل والبغال والابل ، وصيرتها أشياء أثرية يوشك الناس أن يحتفظوا بها فى المتاحف أو حدائق الحيوان .

***

فى كل ذرة رمل ، وقطرة ماء ، ولمعة شعاع ، وخفقة نسيم ، كنز مدخر لمستقبل الانسان على الأرض .

فليعرف ذلك الذين يشكون الفقر وشح الموارد الطبيعية . أولئك الذين يثيرون الحروب من أجل الطمع والاغتصاب « أن تكون أمة هى أربى من أمة » .

وليسلموا قياد الانسانية لعلماء الطبيعة الذين يضربون معاولهم على كل منجم فى الأرض والماء والهواء والشعاع .

ولنأخذ الحياة عريضة ، بالانتفاع بكل ما فى الأرض ، وباستعمال جميع قوى الانسان والجماد والحيوان ، وباستخراج كل كامن من النبات والركاز ، وباستنزال كل معلق من الشعاع والماء والهواء ، وبتوليد كل ما يمكن أن يولد من العناصر والقوى ، وبوضع كل شىء أمام كل شىء لينشأ من الأوضاع المختلفة التى لا عدد لها ، حيوات جديدة معقدة لاعدد لها ، يترقى بها الفكر والحياة ويغزر فيضهما ، وترحب بها آفاق النفس ، ويظهر لنا بعدها كم أن الكون ملىء بالأسرار وكلمات الله التى لا تنفذ !

منابع الفكر ومصابه

انتقال اسرار الطبيعة الى الفكر — من أمارات جبروت الفكر — من عجائب حيرته — خليفة القهار — ادراك المادة ثم النفس ثم الله — لاعمق فى العالم المادى — للفكر مجال مؤقت ومجال منتظر — باب مفتوح وباب مغلق — مضى عهد مضغ الكلام — لاسدود أمام الانسان — الطبيعة هى الحكم فيما يمكن وما يستحيل — تربية تعلم غزوالطبيعة — الطبيعة المطيعة — عصر الاحساس بقدرة الفكر — أسئلة يجب ترديدها دائما

يرى الفكر البشرى نفسه وحيدا كملاح تائه وسط هذا الكون الفسيح ، وليس له الا دليله الخاص الذى أخذه من نواميس متحدة فى النفس وخارج النفس .

وقد ألقت الطبيعة أكثر صورها الى فكر الانسان ، وانتقل الى ذهنه جانب كبير من أسرارها وقوانينها ، فصار يقلدها ويصنع فى موادها ما يشاء من ألوان التجسيم والتشكيل والتحريك ، ويسلط بعضها على بعض ، وصار له مقام معلوم ملحوظ بين عوامل التكوين والتخريب فيها .

وقد وصلت يده الى منابعها وموادها الأولية : فهو يبحث الآن فى الذرة والكهرب ، ليعرف المبادىء الأولى للمادة والقوة ، والدفعة الأولى التى ابتعثتهما ودفعتهما .

ومن أمارات جبروت الفكر البشرى أن يحاول فى كثير من الأحيان أن يتدخل فى تخطيط الكون ، ويرسم له صورا مبتدعة ، ويقترح له وجوها أخرى غير ما هو عليه !

بل هو يحاول أن يفرض نفسه غريبا عن الكون ويدخله كمتفرج من عالم آخر ، فيحكم عليه ويصفه ويعجب به ، وكأنه موفد من عالم آخر وكأن له كيانا يستمد من منبع غير طينة الكون المادى .

بل هو يحاول أن يحكم على الله العلى الكبير بمقتضى ادراكه هو ! وكأنه يفرض أن علمه بقوانين الرياضة والميكانيكا والجمال والتكوين ، سابق على الكون ذاته .

ان هذا يدل على أن الفكر البشرى عميق المآخذ والمصادر .

ومرد جميع هذا ومنشؤه ، أن فيه سرا من روح الله الكامل القادر العالم الجبــار .

ومن عجائب حيرة الفكر البشرى ، كشفه عن حيرته ذاتها فى تعرف القانون المادى العام الذى يســير الكون ، وتردده بين الأخذ بقــانون « السببية » الصارم ، وبين مذهب « الاحتمالات » الذى يقول به بعض علماء الطبيعة فى العصر الحديث . وهذا يكشف عن أن وضع الفكر فى الكون هو وضع المتفرج الحائر الذى يدس يده فى مصانع الله التى يصنع بها الطبيعة وظواهر الوجود ، فيدهش ويحار .

ولعل فى ذبذبة الفكر بين الأخذ بالوجهين حملا للفكر نفسه على ألا يغتر ويضل فيجعل الخالق نفسه خاضعا لقوانين الطبيعة فتتحكم فيه كما تتحكم فى غيره ، أى أنه يجب أن يعلم من خلال حيرته بين القوانين ، أن بارىء الكون قد يجوز أن يسيره بقوانين متناقضة ليبرهن على أنه تعالى غير خاضع لأحدها . فهو يخلق بالقانون ونقيضه فى الوقت ذاته .

وان وضع الفكر فى الكون هــذا الوضع الحر الحاكم المتردد فى أحكامه ،المدرك لوجوه الصنعة المختلفة المتناقضة الأســباب والتعليلات لدليل على أنه من روح الله الذى لا يجوز أن يخضع للكون المادى (١) وقوانينه ، لأنه هو خالقه وخالقها . فالفكر كذلك قد جعله الله على شاكلة مصغرة من روحه تعالى ، أى أنه يعلو فوق مستوى وجوه التناقض الذى قد يبدو لبعض العقول وينتفع بها جميعا .

---

(١) بينا هذا فى المادية الاسلامية وأبعادها .

وفى رأيى أن قانون السببية هو القانون الذى وضعه الخالق ليغمر الكون كله فى أعماقه وظواهره ، ويتفق مع منطق الحيـاة على الأرض ومنطق الانسـان العام ، ويحفظ على الفكر البشرى يقينه وألفته فى أحكامه ، وتنتفع به الارادة البشرية والجهد الانسانى ، بخلاف مذهب الاحتمالات الذى لا يورث الا الشك والحيرة والذبذبة وعـدم اليقين بسبب ما .

ويخيل الى أن مذهب الاحتمالات انما أوحى به الى بعض العلماء أنهم رأوا يد الله طليقة فى الطبيعة غير مقيدة ، فهى تنتج الشىء من سـببه المعروف ، وقد تنتجه من نقيض ذلك السبب فى بعض حالات الشذوذ التى تشير الى القاعدة العامة للفت الأنظار اليها والتنبيه عليها .

مذهب « الاحتمالات » هو نظرة البارىء الى الكون المادى الذى يبدو متحجرا لدى كثير من العقول التى لم تعرف ما عند الله من القدرة . وأما نظرة الانسان المحدود العاجز فينبغى ألا تتخذ الاحتمالات محورا لتفكيرها فتضيع فى عباب الفروض .

* * *

ان الله قاهر فوق الطبيعة ، وهو يدرب « خليفته » فى الأرض على التغلب على العقبات التى تعترض طريق أحلامه الطليقة وأفكاره المحررة من قيود المواد الثقيلة . والله أنشأه فى الضرورات والآلام ليفتق الحيلة للخلاص منها . واذا اطرد السير على منهاج تاريخه الذى عرفناه ، فسوف يتغلب على أكثر العقبات .

ان فكر الانسان يتدرج غير واقف عند نهاية ، ونموه فى ذاته يجعل الطبيعة نامية به . وأرجو أن يفهم هذا القول فهما عميقا ، لأننا اذا فهمناه هذا الفهم أدركنا موضعه ورسالته فى الوجود ، وأحللناه محلا رفيعا يدفعه الى العمل والسير فى منهج واضح ، وحملنا ذلك على أن نحوطه دائمـا بقوانين تحفظه من الارتداد والضلال ، وتتدرج به حتى نستوعب كل مباحث المواد والقوى ، ونستخرج به أسرارها الكامنة ، وننتقل به نقلة تسلمنا الى الوقوف على عتبات عالم آخر ، لعله أن يكون عالم الروح ..

ويبدو أن ادراك عالم الروح لا يتأتى الا بعد ادراكنا ما فى الكون المادى ادراكا كاملا ، ولعل هذا هو سر قلقنا ونبشنا فى الطبيعة وعـدم اخلادنا الى ركن واحد منها ، فنحن كلما أخذنا من الطبيعة سرا ، أحسسنا أننا نقترب به الى ادراك روحنا الجزئية ، لندرك من وراء ذلك علما من الروح الأكبر !

أجل . ان ادراك الكون المادى كان لابد منه لادراك الروح ، اذ أن الفكر صار يرى كل عمق فى الحياة المادية ضحلا بعـد ترديدا النظر عليه واستيعابه بالادراك . وطبيعى أن تشعر النفس بعد هذا الاستيعاب أنها أوسع وأعمق من الموجودات المادية ، وأن ترى آفاق الحياة المـادية عددية لا أكثر ، وليس لها عمق ولا نهائية ، فهى فى موجودات الطبيعـة ومستحدثات الانسان لا تتعدى اختلاف النسب التركيبية بين العنـاصر التى تزيد قليلا على التسعين .

وما يخيل الى البعض من أن هناك أعماقا وأغوارا لا تنتهى فى المادة ، انما هو صورة مما يحدث للناظر الى لوحة فنية بارعة ذات صنعة موحية مثيرة للشعور باللانهائية ، حتى اذا ما كشط سطحها قليـلا ، تذكر أنها ليست أكثر من تمويه وتخييل وبراعة فى بسط الأصباغ والأضواء والظلال وقبضها ، وتكشف له السطح الزاخر باللانهائية عن باطن محدود لايتعدى ألوان الطيف السـبعة !

ان الانسان لم يعد يؤله الماء والنار والهواء والتراب ، ويفرغ عليها أوهام القداسة والهول اللذين كانا لها فى ذهنه قديما ، بعـد أن حلل عناصرها وركبها وتسلط عليها وسبر أغوارها . ولم تعد النفس العالمة التى تشرف على لجة البحر أو لجة الهواء ، أو أغوار التراب ، أو جحمة النار ، ترى فيها أكثر من مواد وقوى عميـاء محكومة بقوانين أخذتها النفس فى حوزتها ، وجعلتها من مدخرات فكرها ، وتستطيع أن تولد بها نارا وهواء وماء ...

انى أشعر حينما أقلب بصرى فى آفاق السماء وآفاق الأرض ، أن فكرى لا يسترسل فى التعمق فيها الى مالا نهاية ، بل يقف عند نهايات

معينة هى العناصر المحدودة التى تألفت منها مادة السماء والأرض ، والنسب الهندسية والحسابية التى قام عليها بناء الأجسام وتشكيلها ، ثم يبدأ الاحساس بعماء لا صور فيه ولا خواطر عنه .

وطبيعى أن نظرتى هذه لا يكون وراءها احساس بخشية من الطبيعة ذاتها كما كان الأمر عند سكان الأرض القدماء الجاهليين ، لأن عناصرها حللت ، وأسرارها عرفت ، وصورها طبعت فى النفس ، ولكن يكون وراء هذه النظرة احساس بخشية ورهبة من ذلك العالم القادر الذى خلقها هائلة هكذا ، وجعلها بهذه النسب الرياضية والهندسية والقوى الدائبة الجبارة.

* * *

اذن : ما هو المجال الحيوى غير المحدود لهذا الفكر الانسانى الذى عمق الكون المادى ضحلا بعد ترديد النظر عليه ومعرفة أسرار تركيبه وقوانينه الهندسية والرياضية ؟

انه لابد عالم لا نهائى لا تدركه الأبصار والمناظير ، ولا تحلله المخابير، ولا تسبر آفاقه المسابير والمعايير ، ولا تدركه علوم الزمان والمكان !

وطبيعى أن هذا المجال الحيوى بهذا الوصف ، لا يمكن أن يكون للفكر الانسانى قدرة على ادراكه هنا فى هذه الدار التى نعيش فيها بالحواس وقيود المواد الثقيلة الكثيفة ، والفكر المحدود .

ولهذا يجب أن ينصرف الفكر الانسانى عن محاولة اقتحام هذه السبحات ، ويتوجه الى المجال المحدود المؤقت الذى وضعنا فيه لندركه هو أولا ، ونفرغ من استيعاب أسراره وظواهره .

وان من يريد التعمق الآن فى ادراك ما وراء الطبيعة ، ولا يقنع منه باللمحات والخطفات ، فلن يظفر بمحصول غير الشرود والخبال .

وقد برهن تاريخ الانسان على ذلك . فالأمم التى لا تزال تطلب فى هذا العصر علم اليقين بالنفس وبالله ، قبل ادراك قوانين العلم الطبيعى ، والتى لا تزال تطلب الله عن طريق الشعر والوجدان وحده « كالهندوس »

ولا تطلبه عن طريق البحث فى أرضه وهوائه ومائه ، والتطلع العلمى الى سمائه ، ولا تقص آثار يده فى صنع نماذج الطبيعة ، لتعرف مقدار ماعنده من العلم والاحاطة بالجزئيات والكليات ، ولا تلخص أسرار صنعته وتختزلها فى قوانين ومعادلات حسابية وجبرية ، ولا تحاكى نماذج الطبيعة ، انما هى أمم بدائية ضلت طريق تحقيق الأوطار والأشواق اليه ، جل مجده ! قليلة العلم بما عنده من أفانين تتجدد ولا تنفد ، تعرفه عن طريق العواطف والرموز ، لا عن طريق الفكر والوضوح .

ان الارادة العليا مصرة على اغلاق ما وراء الطبيعة الآن أمام فكر الانسان ، ولعلها تفتحه بعد أن يفرغ من ادراك كل ما فى الطبيعة أولا .

أما الطبيعة ذاتها ، فقد دل تاريخ العلوم على أن أبوابها تفتح لمن تركوا اتخاذ الكلام غاية وحيدة للحياة ، وعكفوا على محاريبها وموجوداتها ، يقلبون النظر والفكر واليد فيها ، ثم يتكلمون بعد ذلك .

ان الكلام وسيلة لا غاية . هو قوالب لاختزان المعانى التى تنشأ من المزاوجة بين خواطر الفكر وخواص المادة . هو أوعية الحقائق المرفوعة من الأجسام الى عالم التعبير والصور والأرقام . فلا يصح أن يمتلىء بتكاذيب الأمانى وتخييلات الأحلام ، الا أن تكون تمهيدا من عالم الخيال والمثال لعالم الواقع . وكثيرا ما هدت سوانح الشعر الى حقائق العلم .

* * *

فلا يضعن أحد السدود النظرية أمام عمل الانسان فى الطبيعة مادامت هى تلبيه وتتفتح له وتنتج . ولا يجوز حمله على السكون والركون الى مواريث الأفكار القديمة التى تجعل الطبيعة أمام الانسان حرما مقدسا ، يجب التهيب من الشروع فى تغيير شيء فيه ، أو تنقيحه بالزيادة أو النقصان .

هى وحدها الحكم الذى ترضى حكومته فيما يمكن وما يستحيل .

فما دامت تفتح له الأبواب وتهتك الأستار ، فليدخل وليتوغل ، وهو موقن بأن هذا من عمله الذى خلق من أجله .. وليس ابقاء الطبيعة كما

هى بدون تغيير عبادة ، كما كان الزعم القديم ، ولكن صار تغيير الطبيعة الى الأصلح هو العبادة .

والتربية الناجحة هى التى توحى للنفس ألا تتقهقر وتتضاءل وتنزوى فى نفسهــا أمام قوى الطبيعة ، بل تجعل من النفس قوة غازية موجبة غير سالبة ، تؤثر فى الطبيعة بالتسخير والتحويل والتنقيح .

والتربية الشرقية على العموم ، لاتزال تؤول قصور النفس الناشىء عن الجهل والكســل والعجز أمام الطبيعة ، بتأويلات تحمل فيها الأقدار العليا أكثر مما تحتمل ، وتفر من وجه السدود والعوائق ، تحت تأثير قناعة مصطنعة ، تحكيها أخيلة طفلية ، ولا تأخذ ما فى الحياة ، وانما يأخذها ما فى الحياة .

وكأن الشرقيين لمــا وجد المرء منهم نفسه ضعيف الحجم وسط هذا الكون العظيم ، استكثره على نفسه فاحتقرها بالنسبة له ، وأثار فى نفســه شكوكا فى قيمتها فنشأ عجزه ، أو قل امتد عجز آبائه القدماء اليه فاضطربت حياته ، وصار رهين الأرض وأمراضها .

وقد كان الاعتماد على « القوى السحرية » هو أساس العمــل لتحقيق الأمانى عند الشرقيين على الأخص ؛ والآن صار الاعتماد على القوى العلمية الآلية فى الطبيعة هو أساس ذلك العمل .

وأعمال العلماء الطبيعيين قد اكتسبت من جبروت الطبيعة شيئا من الهول والاجتياح والاتساع ؛ فمدافع « كروب » الثقيلة البعيــدة المرمى والقنابل النووية الشديدة الانفجار ، والقنابل الطائرة البعيدة المدى والصواريخ الموجهة الجبارة عابرة القارات والقلاع الطائرة والمناطيد ، والخزانات العظيمة ، والمحيطات الكبرى لتوليد الكهرباء ، والمصانع ، والاذاعة المثبوتة باللاسلكى ، وتعبيد الطرق العظيمة كطريق (نيويورك — ميامى) مثلا أو اكسبريس الشرق ، وغير أولئك .. كلها أعمال عظيمة تمتاز بطابع الاتساع والهول والأثر الجبار .

فماذا ينتظر الفكر الانسانى بعد فراغه من هذا التسلط ؟ وما هى

النتائج ؟ وأين مصابه التى يصب فيها تياراته وفيض عبقرياته ؟ أهى المغالبة والمنافسة والشهوة على الأساليب التقليدية الجاهلية ؟ ان هذه النتائج لا تتلاءم مع عالم فكره العالى ، ولا يصح أن تكون أهدافا لهذه الصرامة وهذا الجد العظيم الذى تسير به الحياة وقوانينها فى خدمته .. وان المغالبة والشهوة بأساليبها المعروفة الوضيعة ، ينبغى أن تكون غير ذات خطر عنده بعد أن عرف آفاقا جديدة لشهوات رفيعة ، وهى تحقيق أحلامه فى الكشوف العلمية والانطلاق السريع الى عالم الفضاء الكونى والسبح والسبق فيه وازالة الحواجز والسيطرة على القوى الآلية ، وغير هذا من طلائع مجدة وملكوته المرتقب !

* * *

فلنبدأ عصر يقظة لحياتنا الممتازة ، واحساس بقدرتنا الفائقة على الأعمال العظيمة . وليكن ديننا هو حيرتنا ودهشتنا : كيف خلقنا ؟ وكيف اقتدرنا ؟ وكيف نعلم ؟ وكيف نعمل ؟

والراحة الدائمة هى فى أن ندفـع بأجسامنا وأفكارنا الى رحاب الطبيعة مفكرين فيها باحثين عاملين ... وبأرواحنا بين يدى ربها متعرفين اليه صابرين على الدهشة والحيرة والايمان بالغيب حتى يأتينا اليقين فى الآفاق وفى الأنفس . ولا بد وراء ذلك من تأويل ويقين !

* * *

قد تطير الطير فى أجواز الفضاء وهى فى ذهول ..

وقد يسبح الحوت فى جوف العباب وهو فى ذهول ..

وقد تدرج الوحش والأنعام والبهائم على أديم الأرض وهن فى ذهول ..

ولكن ابن الانسان ينبغى له أن يتساءل دائما : كيف أحيا ؟ ! كيف أفكر ؟ ! كيف أدرج ؟ ! كيف أسبح ؟ ! كيف أطير ؟ ! ثم كيف أريد وأقتدر ؟ !

وينبغى له ألا يغفل عن ترديد هذه الأسئلة :

ما الذى أخرج الانسان من ركام الموات والجمود ومختلط القوى العمياء التى يزخر بها الكون ؟

وما الذى وضع فكر الانسان واختياره وسط الدورات الجبرية التى تتداول الأرض ؟

وما الذى هيأ له مهاده الوثير المريح المستقر وسط النيران والصخور وتدافع القوى العمياء ؟

ان رحلة واحـــدة فى جوف الماء الزاخر ، أو الهواء الدافع ، أو النار الموارة ، أو التراب الثقيـــل الفادح المتراكم . . كافيـــة أن تشير لنا الى موضعنا وخصوصياتنا فى الكون ، والى رعاية من أخرجنا وسط هذه الأهوال والقوى العارمة المجنونة ، فى مهاد من رحمته ، بين عوامـــل جبروته وسطوته !

نضجت الثمار .. وآن القطاف

آلهة وحيوانات ـ عمل الطبيعة فى تكوين الانســـان الواحد ـ عصر الفوران والغليان ـ مدنية خالدة ذات سلطان عجيب شامل ـ جئنا لنحيا لالنموت ـ الحيـاة بالفكر فى المجاهل والمعامل

اذا جردنا الانسان مما أسبغته عليه الحياة المدنية من أفانينها وأنواعها وأشكالها ، ظهـر لنا أن البون بعيـد جدا بين الانســان الذى اخرجته الطبيعة ، وهذا الانسان الذى غيرته الصناعة وتعقيد الفكر ، وظهر لنا أن حياته الصناعية عالم مستقل منفصل خلقه هو . ولكنه عالم غير خالد ولا متوالد الا باطراد تقدم الانسان . بخلاف مخلوقات الله فى الطبيعة فانها أبدية دائمة تعمر بها الطبيعة .

وكلما فكرت فى الفرق العظيم بين حياة رجل على الفطرة ، وبين حياة رجل ألمانى أو أمريكى أو فرنسى أو انجليزى ، وعقدت موازنة بينهما فى المآكل والملبس والملهى والمركب والعمل والانتاج والفكر والاحاطة بآفاق الدنيا ، والتسلط على الطبيعة ، ظهر لى أن الأول يكاد يكون فى صفوف نوع آخر غير الانسان ، وأن الثانى ينقصه الروح والعدل والايمان ليكون الانســان المنشود البار بوصايا الله ؛ لأنه هو الذى أحسن الأخذ عنه ، وخلفه فى الماديات خلافة واســعة ، ونمت على يده الحيــاة وتنوعت ، وتشققت مجاريها وتوسعت .

ولا يجوز عقلا أو شرعا أن يعطى الأول كرامة الحياة وعزتها ، وأن يتسلط على الثانى ، ما دام كل منهمـا على حالته . كما لا يجوز لحيوان أن يسخر انسانا .

وكلما استعرضت معارف الانســان المدنى المدونة فى كتبه وصحفه وألواحه وأرضه وآثاره ، أدركت مبلغ ما حمله من أمانات الحياة ، وأسرار الدنيــا .

ولا شك أن الانسان المدنى العادى الذى يقرأ صحيفة يومية ، يحمل ذهنه من قضايا للعالم وأخباره فى الصباح والمساء ، ما لم يكن فى حسبان أحد من السابقين ووجدانه ..

ولا شك كذلك أن هذا قد ترك أثره الواسع الشامل فى تكوين الذهن الانسانى الحالى ، وتكييف أعصابه واحساسه بالحياة على غير ما كان عليه الناس فى زمن المواصلات والثقافات المحدودة .

فالأقدار تصنع عقل الانسان الحديث وقلبه صناعة تشترك فيها كل معارف الحياة العصرية .

ومن الأعمال العظيمة التى تقوم بها الحياة الآن ، عملها فى تكوين الانسان الواحد الخاضع لمؤثرات واحدة . ونحن الذين يقع علينا تأثير أعمالها العظيمة ، ونعيش فى غيبوبة عن خطواتها بنا ، لا يدرك منا هذا التأثير الا الراصدون المسجلون الذين تجعلهم الأقدار مخصصين لرصد خطوات الحياة وتسجيل ظواهرها . وهؤلاء يكادون يكونون نادين عن حبال الشبكة التى تلف غيرهم من أبناء الحياة .

لقد تركزت المعلومات ، فصارت القارات كالقرى ، وملايين الجنود كأصابع اليد ، والسيارات والمركبات كالنعال ، والطائرات كالعصافير ، وأخبار العالم الانسانى كله كأخبار الحى الواحد .. !

وهكذا تتركز الحياة وتتلخص فى فكر الانسان ، وتختزل صورها العظيمة فى أرقام وحروف .

* * *

وهذا العصر جدير أن يسمى « عصر الفوران والغليان » — على سبيل التشبيه بسطح ماء فى وعاء على نار — فقد لبث سطح الحياة ساكنا فى عصورها السالفة ، لا يتحرك الا حركات موضعية ، كما يلبث سطح الماء أول ما يوقد عليه فى النار . حتى اذا وصلت حرارته الى درجة الغليان ، هدر وفار واشتد وقذف وتبخر وتحول ..

ان عوامل الحرارة كانت تحته من قديم ، ولكنها لم تصل معه الى درجة النضــوج والحركة السريعة والتحــويل الا أخيرا . وكذلك عصر الانسانية الحالى ، هو عصر ظهور كوامن أسرارها وأسرار الطبيعة ظهورا شديدا متلاحقا .

وقد انكشفت حيوات جميع الناس للناس ، فعلموا أنواعهم ولغاتهم وأديانهم ومذاهبهم فى الحياة .

وقد كانوا ضائعين مغمورين تائهين كأسرة مفرقة ، فرقها حادث ، ثم جمعتهم الظروف مرة ثانية .

انى أتخيل صورة الدنيا فى عقول ساكنيها الأولين ، وصورتها الآن فى عقول بنيها المثقفين ، فيصيبنى دهش مشوب بفرح وبهجة وشكر لله على تسديده الانسان الى غاية ابتدأت وجوهها تنكشف .

وكان الأنبياء والحكماء القدماء وحدهم هم المدركون وجهات الحياة. وكانوا فى الناس ما يكون البصير بين عميان ، والأب الكبير بين صبيان ، والراعى بين قطعان . وكان قليل من الناس هم الذين يدركون ما يشيرون اليه . ولكن الآن صار العلم والدين والادراك الصحيح شيئا مشاعا كالهواء والماء ، تقاربت فيه المعتقدات والآراء .

* * *

أجل ، هذا زمن حصاد جهود الانسانية ، فقد نضرت الأزهار وأدركت الثمار ، وظهر الحقل مستوى السوق مستغلظ الأعواد ، قد أينعت فيــه علب الأسرار وحان قطافها !!

انظر فى بقاع الأرض جميعها ، تجد انسانية تفتح عيونها وتستيقظ من غفلاتها لتدرك الحياة الحديثة ، وتشترك فيها وتتلاقى مع غيرها فى خدمتها . وقد زال الابهام والغموض اللذان كانت عقول الانسانية القديمة والمتوسطة تراهما فى ظواهر الحياة ، وصار الانسان معتمدا على نفسه وحسابها الدقيق وأخذها بأساليب الطبيعة فى الانتاج والاختراع ، وترك الاعتمــاد على الأمانى ، فضاقت دائرة الاعتماد على الأقدار وحدها .

ولنتلفت الى الماضى كثيرا ، لندرك مدى ما كسبناه وحصلناه كانسانية واحدة من محصولات الحياة التى وضع كل شعب وكل حضارة لبنة فى بنائها ، حتى خرجت هذه الحضارة العالمية المشتركة التى اقتحمت كل قطر وكل مدينة فى الأرض ، وصارت من قدر الله الذى لا مرد له ولا مفر منه .

انها حضارة باقية خالدة ، لن تبيد ولن تفنى ولن ترتد ! اذ أن بذورها ألقيت فى كل مكان ونبتت فيه . فلئن ذهبت أوربا الى الخراب والدمار ، لسوف تبقى أمريكا .. ولئن ذهبتا معا ، لسوف يحمل المشعل أمم الشرق وتلك الأمم المنثورة فى القارات وجزر المحيطات ، وغيرهم ممن اقتنعوا بأن هذه المدنية هى نبوة الطبيعة ذات المعجزات الدائمـــة ، التى لا مفر من الايمان بها والعمل لها ، وأن هذا العصر هو أوان حصاد الغلال وجنى القطاف التى زرعها وتعهـــدها الأقدمون ، وزادت كل أمة فى ميراثها حتى صار فيها من كل قطر ورد ، ومن كل أمة مدد ورفد .

ان هذه مدنية فرضت نفسها فرضا على الناس جميعا : فرضت آلامها وشرورها ، كمـــا فرضت اســـعادها وخيراتها وعلومها ، وصار الناس لا يستطيعون منها فرارا ، بعد ما دخلت عليهم أقطارهم قسرا واقتدارا ..

هى قدر لازم لا فكاك منه كأنها الرياح والأمطار والأشعة ..

ومما يؤكد أنها خالدة مؤبدة ، انتشارها فى كل مكان وأنها ليست كالمدنيات السالفة الموضعية ذات العصبية القومية ؛ لأنها قامت على العلم الذى لا تتناقض حقائقه بتعدد الأماكن والأجناس ، بل تتلاءم وتتوافق بتوافق قوانين الطبيعة الواحدة .

وكانت المدنيات السابقة تجارب وجذورا متشعبة لجذع شجرة عظيمة هى هذه المدنية الحالية .

ولم يحدث فى الماضى أن صبغت مدنية الناس جميعا كما فعلت هذه المدنيـــة ، فخضع لهـــا الموحد والوثنى ، والملحـــد والمؤمن ، والزنجى والاسكيمى ، والشرقى والغربى .

ولم يحدث أن وجدت ميادين كثيرة مشتركة بين الناس جميعا كما

وجدت ميادين الاشتراك العلمى والآلى والصناعى والسياسى والأدبى فى رحاب هذه المدنية .

ولم يحدث أن اشتبكت مصالح الناس جميعا كما اشتبكت الآن بفعل السرعة ، وسهولة الانتقال ، وتبادل المنافع ، وتشعب الاحتياجات .

ولم يحدث أن درست ثقافة واحدة فى مدارس الأمم جميعها كما درست هذه الثقافة العصرية .

فأى مكان نجا من سلطان مدنية الزمان ؟

أى طريق لم تجس خلاله السيارة ؟ وأى جو لم تخفق فيه الطيارة ؟ وأى بلد لم يستصبح بنور الكهرباء ؟ وأى قطر لم يعرف ما عند غيره ؟

ان هذه المدنية تحيط بالانسان فى كل أفق من آفاق حياته . وانى أستعرض الآن كل ما يحيط بى وأنا أكتب ، فأجد جميع ما تقع عليه عينى قد اشتركت فيه آلاف العمليات الانسانية المعقدة ، وقد صار احساسى بها كاحساسى بضرورات حياتى . وأكاد لا أرى شيئا من يد الطبيعة وحدها الا جسمى ... وحتى هو لم يسلم من هندسة الحلاق و « رتوشه » !

ويمكنك أن تجرد الأرض مما فعله الانسان فيها ، وما عقده وركبه ، لتدرك مدى الحياة الأرضية من غيره ، ومدى العالم الذى أحدثه هو ...

واذا ألقيت نظرة على شارع فى نيويورك أو لندن أو القاهرة ، يروعك أن ترى ما فى مخازنه ومناظره ، وآثار الأيدى التى عملت فيه ، حتى لا تستطيع بعض الأذهان أن تتخيل الدنيا خالية منه ، من طول الألفة وطول الغفلة عن التفكير فى مبادىء الحياة ..

طوفوا فى شوارعكم أيها الناس بقلب ذاكر للطبيعة ، مدرك لمباديها لتعرفوا مقدار ما بينكم وبينها ، ومقدار قوتكم الابتداعية ، فتتلفتوا لأنفسكم متعجبين محترمين محافظين عليها وعلى قواها الفكرية والانتاجية من الضياع والذهول والغفلات !

ان أفراح الحياة تغمر قلبى حين أطوف بجسمى فى المدن العظيمة ، أو حين تطوف بى الحياة فى دور السينما ، فأرى عجائب ما استحدثه الانسان فى عوالم المواد والمعانى .

ولست أزهد فى رؤية الحياة المادية وتقصى دقائقها ، لأن كل دقيقة منها ترسل فى قلبى طاقة من التعجب والايمان ..

ما جئنا للحياة لنموت ونستحضر فلسفة الموت من أول يوم ! والقبر ليس نهاية ، وانما هو بداية مرحلة تالية ... فعلى الذين يجعلون القبور نصب أعينهم فيهونوا من أجلهـا كل عظيم ، ولو كان الصحة أو العلم أو التفاؤل ، أن يعلموا أنهم جاءوا ليحيوا ويحسوا الحياة عميقة فيما خلق الله من شيء ، وينتفعوا بالطيبات والزينات التى أخرج الله لعباده .

ومن الـكفر أن نترك الأجسام فريسـة للآفات وعوامل الشؤم ، انتظارا للموت الأكبر .. فيدب فيها منذ ولادتها ..

كذلك يجب أن يكون ايمان الرجل المتمدن ، ايمان البصير الواثق بأن عمل النفس البشرية فى المادة ومتاعها بها مع تذكر الله تعالى ، باب الى الايمان لا الكفر كما يتوهم الأغبياء البلداء الأغرار !

انى لا أعيش فى نفسى وحدها ، ولكنى أعيش فى نفوس بنى الدنيا جميعا ، لأرى الحياة بعيونهم من آفاتهم ، حتى أخرج من الدنيا ومعى كثير من أسرار الحياة فى القلوب والعقول .

وأنصح لأصحاب الايمان التقليدى أن يستحدثوا فى قلوبهم ونظراتهم ما استحدث ، ليعرفوا أى لذة وأى ايمان مضاعف يغمر قلوبهم .

وأنصح لأصحاب النظرة المادية والذهول عن المعانى ، أن يستحضروا أرواحهم وراء كل نظرة وكل عمل وكل علم ... فان هـذا هو الوضع الحقيقى لحياة الفكر ، والاستخدام المعقول للروح وقوى الجسم .

لنعش بأفكارنا وأرواحنا دائما ، سواء أكنا فى غابات خط الاستواء ، حيث الطبيعة بكر غير مفضوضة ، لم يطمثها انس ولا جان ..! أم فى مصانع روسيا وأمريكا وأوربا ، حيث يدور الفكر مع الحديد فى ضجة وتعقيد وقدرة !

الضمير ووصايته على الحياة

حارس الحدود ــ لاقدسية لمقدس الامه ــ هو الباكورة الاولى ــ لاتتعجلوا الحلقة الاخيرة ــ البوصلة الهادية الى القطب الاعظم ــ المجرى الخفى للحضارة ــ مقدمات الضمير العالمى ــ بركة من حرب كثيرة اللعنات ــ حديث الانسانية عن نبأ عظيم ــ لنكن أبناء الحاضر ــ بين الحضارة والثقافة ــ قلوب قرود فى جلود بشر ــ فرار الى العاصم .

كل مذاهب البر ، وحدود العدالة ، ومرافق الرحمة ، ومواضعات الفضيلة فى المجتمعات الانسانية الراقية والمنحطة ، انما هى آثار من آثار الضمير الانسانى : ذلك النبع العميق الذى يستمد من فيوض الله المقيم الجبال أوتادا ، والضفاف سدودا للمياه أن تطغى وتملأ الأرض بدون نظام موزون ، والجاعل بين المواد والقوى العمياء حدودا لحفظ الحياة ، ونسق الجمال .

وقد جعل للحياة الانسانية الاجتماعية حدودا كذلك بحراسة الضمير وكل شىء مقدس يتحول الى عمل حقير مجرم ، اذا لم يصحبه الضمير والاحساس بالعدالة والحق ، كالاحساس بالنفس .

خذ مثلا : تشريح جثث الانسان فى الموت المشتبه فيه ، أو فى حالة المرضى من الفقراء ، أو للتعليم : يحوله الأطباء الذين لا ضمير لهم ولا حس بالجماعة عندهم الى جزارة واهدار لجسم الانسان وكرامته فى سبيل التمرين ، حتى لتجد الجماجم البشرية فى المزابل ، والمخ الانسانى فى المراحيض ! مع أن العمل نفسه من أنفع الأعمال .

وخذ مثلا ثانيا : دراسة القانون للدفاع عن الحق ، ومعرفة الواجب ، تحولت فى أيدى المرتزقة من المحامين الى مؤاجرة لطمس معالم الحق ، وتضليل القضاء عنه ، والباسه بالباطل ، وايقاع من لا حيلة لهم ولا قدرة على الدفاع عن أنفسهم أو عن الحق .

وخذ مثلا ثالثا : مهنة التعليم : هى فى أصلها وصاية على الناشئين والجهال ، وارشاد من يجهلون العلوم والحقائق . ولكنها قد تحولت فى كثير من الأحوال الى مجرد عمل آلى لملء حافظة التلاميذ بالأرقام والحروف تحت سيطرة آلية ، واهدار للأخلاق والشخصيات .

وخذ مثلا رابعا : الجندية : انها أسمى مراتب المروءة وخدمة الحياة ، اذ هى جود بالنفس فى سبيل الحرمات والمقدسات . ولكنها قد تحولت الى وحشية حين فقد القلب نبل الفروسية ورحمة الأقوياء .

وخذ مثلا خامسا : حياة التدين : انها فى الأصل فيض ذاتى بين ضمير الانسان وضمير الوجود ، فاذا بها تتحول الى ألفاظ جافة واجازات ومنافسات ومناقشات وارتزاقات ووظائف ومناصب مدرسية .. دنيوية ..

وهكذا لو رحت تتقصى سائر أعمال الانسان المقدسة الكبرى ، تجدها قد خلت فى الأمم الضالة من خفقات الروح ومصاحبة الاحساس الانسانى العالى ، يفعلها الفرد وهو كآلة من الآلات !

ولئن زعموا أن أصل الانسان وحشى منحط بغير ضمير ، وأن هذا الضمير تاريخه حديث فى حياته ، وأنه نشأ من ضغط الحوادث المؤلمة عليه ، ومن تفاديه ما ثبت أن به مضرة له بعد ارتضاء حياة الجماعة .. فمن الذى جعل فى أخلاقه تلك القابلية وفى أعصابه تلك المرونة التى تتأثر بتلك الحوادث والأخلاق الضارة والنافعة وهواجس الخير والشر ، حتى لتكاد تلك القابلية تكون ميزانا لا يتغير ولا يتبدل فى جميع الأمم الحية الا بعض أمم تعيش على هامش الحضارة ؟

فميزة الانسان على غيره هى هذه القابلية فى أعصابه ، والمرونة فى طبيعته . وليكن مكانه من الأحياء قبل نشوء تلك القابلية ما يكون من الانحطاط والوحشية ، فلن يضير النخلة الفارعة المثمرة الجميلة أن يكون أصلها نواة ضئيلة محدودة ، وأن يكون البعد بين جذرها القبيح وتاجها الجميل بعدا بالغا ، فان كل كائن حى أرضى لا بد له من أصل منحط فى الطين ، ثم يبلغ أوج حياته بعد حين .

ويتأكد عندى يوما بعد يوم أن الانسان لم يبلغ بعد درجة نضجه النهائية ، وأن كل حقبة من حقب التاريخ تظهر جانبا خفيا من طبيعته ، وأن « القطفة » الأخيرة من ثماره لا بد أن تكون هى التى تحمل جميع الأسرار التى أرادها فيه خالق الأنواع ! فمن الانصاف ألا تحكم عليه حكما نهائيا قبل أن يبلغ مبلغه الأخير ، وألا نفقد الأمل فيه ما دام طريق ترقيه مفتوحا أمامه ، وما دامت الطبيعة تفتح صدرها له .

أجل ، انه قانون طبيعى لم تتم دورته لينتج نتائجه النهائية . وان الباكورة الأولى من ثمراته انما كانت تلك الحساسية الدقيقة التى أطلقنا عليها اسم « الضمير » وهى حساسية صادقة مرهفة تتأثر بعوامل نمو الحياة ، وتتفتح لها وتركن اليها وتحبها وتحتمى بها ، وتستكثر منها وتسميها « خيرا » ، وتتأثر بعوامل الدمار والألم والفناء وتنقبض عنها وتفر منها وتدفعها وتسميها « شرا » .

ولا شك أن الذى وجه الأنواع كلها الى طرق حيواتها المختلفة ؛ لا يجوز أن يكون قد وجه حياة الانسان الى غير طريقها . فغير معقول أن يستثنى الانسان وحده من بين الكائنات الأرضية ، ويدفعه فى طريق خطأ غير طريق حياة قدرها له ، فما عهدنا فى الطبيعة عبثا أو استثناء من قواعدها العامة الى هذا الحد ! وفيماذا يكون الاستثناء ؟ فى الانسان : الابن البكر للأرض !

لا شك اذا أن الضمير كان هو المجرى الخفى لحياة الانسانية ، وأنه ميزان حياتها ، وأنه « ابرة البوصلة » تهديها الى طريقها المقدر لها ، وتتجه بها الى قطب الكون الأعظم !

وما وقع لى مرة أن أغفل الحق فى غمرة من غمرات الضعف البشرى الا وجدت له رهبة تزلزل قدمى وتطمس النور فى عينى ! فالحق يقظ جدا . أو قل ان الضمير متيقظ لحراسته جدا .

وأنت اذا تصديت للدفاع عنه ، ثم استعملت فى سبيل ذلك الدفاع شيئا من الباطل ، شعرت ــ اذا كنت ذا ضمير ــ شعورا صاعقا ، أن

ذلك الحق الذى تدافع عنه بالباطل ، انقلب فى عقلك الباطن ووعيك الظاهر ، الى سلاح مهاجم لك يقول : لا ! لا ! طريقى ليست من هنا .. لقد ضللت وأضللت بى .. ارجع !

* * *

ومهما يكن من شىء ، فهل أضر نشوء الضمير حياة الانسان أو نفعها ؟ هل كان من الممكن أن تنشأ تلك الحياة الاجتماعية السامية المعقدة العظيمة فى غير ظلاله ؟ وهل قامت حضارة من الحضارات العظيمة التى أثرت فى تقدم الانسانية بغير سلطانه ؟ وهل من الممكن أن يحل شىء آخر محله فى الوصاية على الحضارة والثقافة والحقوق والواجبات ؟ هل تستطيع حضارتنا هذه على قوتها وعظمتها وتعدد أفانينها أن تتحرر من سلطانه وما نشأ فى أحضانه من أخلاق ، ثم تحيا بعد ذلك وتستمر فى نمو وازدهار ؟

ان حدود الخير والشر التى ندين بها ، وصورهما التى نعرف ، انما هى نتائج « عملية » تمت فى خفاء فى باطن النفوس الانسانية ، فعزلت طائفة من الأخلاق والأفعال واعترفت بها ورضيتها وأسمتها « الخير » أو «البر» أو « المعروف » ، وعزلت طائفة أخرى منها أنكرتها وكرهتها وأسمتها « الشر » أو « الاثم » أو « المنكر » . ولن تجد أمة ولو كانت متوحشة تنكر بفطرتها أصول الخير والبر التى رضيتها حضارتنا وتتألم منها ولا تستجيب لها ، وترضى أصول الشر وتسر بها وتستجيب لها بفطرتها .

نعم قد تنكر الخير والبر فى خارج دائرتها الخاصة وتأبى فعله مع غيرها من الأمم ، وترى من الخير لذاتها والبر بها أن تفعل الشر مع الأمم الأجنبية عنها ، ولا تشعر بوحدة الضمير بينها وبين سواها .. ولكن هذا

لا يكون الا فى تلك الجماعات الصغيرة التى لا تزال تعيش على هامش الحضارة ، ولا تزال متخلفة تخلفا كبيرا عن سير الحياة بالأمم العظيمة .

على أن هذه الظاهرة ان وجدت فى المتوحشين ، فيخيل الى أنها سرعان ما تزول منهم ان نشأ ناشئوهم فى أحضان مذاهبنا الخلقية

وحضارتنا وثقافتنا . فليس انكارهم للخير العام طبعا أصيلا فى نفوسهم لا يتخلون عنه . وقد مرت جميع الأمم بذلك الدور حين كانت الفردية طابع الحياة الانسانية . ثم تحولت الفردية والأنانية الى غيرية وايثار فى نطاق الأسرة ثم فى القبيلة ثم فى الجماعة ثم فى الأمة ثم فى الامبراطوريات واتحاد الولايات . واذا اطردت النتائج مع مقدماتها ، فستنشىء معارك هذه الحروب ضميرا عالميا أوسع وأرهف ، بعد أن وجدت مقدماته من وحدة الثقافة العلمية والفكرية والفنية أو تقاربها فى الأمم ، ومن اختزال الأبعاد والمسافات بين بقاع الأرض ، حتى صارت أمريكا بعالمها الجديد النائى جارة للعالم القديم ، ومن اهتمام الكثرة الغالبة بقضايا الانسانية واحاطتهم بتفصيلات حيوات الشعوب والأجناس ، ومن اختلاط الناس فى نطاق واسع ، واشتباك مصالحهم اشتباكا ليس منه فكاك .

وانى كلما رأيت تلك « التشكيلة » العجيبة التى حشدتها بريطانيا فى جيوشها بمصر ، من زنوج افريقية وهنود آسيا وصفرها وبيضها ، ومن جنود اسكتلندا وارلندا وكندا وجنوب افريقية ، مضافا اليهم تلك التشكيلة الأمريكية وسائر الأحلاف .. أشعر شعورا سارا متفائلا ، خصوصا اذا رأيت الجنود الزنوج والماورى وغيرهم من الأمم التى تعيش على الفطرة الى الآن ، يرتدون ملابس الجند الانجليز والأمريكان ، ويتحدثون حديثهم ، ويخضعون للنظم العسكرية خضوعهم ، ويمهرون مهارتهم فى قيادة الطائرات والسيارات وسائر الآلات الدقيقة ، وقد خرجوا من أدغالهم وأكواخهم وصحاريهم وكهوفهم الى العالم المتحضر ينظرون ويدركون ما يدرك اخوانهم السابقون فى العلم والمدنية ، ويشاركون « الرجل الأبيض » أهدافه ويحاولون اللحاق به .

وان عملية الخلط والمزج هذه التى تجريها هذه الظروف بين شعوب الأرض جميعا ، هى لا شك من بركات هذه الحرب الكثيرة اللعنات ... وما كان لعامل آخر فى ظل التدرج والتطور أن يفعلها ، ما دامت هناك نزعات استعمارية ووصاية جائرة جشعة خائنة من الشعوب السابقة على الشعوب المتخلفة .

وأحسب أن هؤلاء الجنود الملونين المتخلفة أممهم ، لن يرضوا بعد عودتهم الى ديارهم أن يعيشوا عيشهم قبل الحرب ، بل لا بد أن يعلوا مستواهم ومستوى أمتهم تبعا لهم ، ولا بد كذلك أن يزول منهم كثير من روح سوء الظن وقبح الثقة بغيرهم من الأمم بعد مخالطتهم اياهم وامتزاج دمائهم فى سبيل غاية واحدة .

* * *

هذه الانسانية تتحدث الآن جميعها عن نبأ عظيم واحد : هو المثل العليا المرجوة لحياة الناس بعد هذه الحرب ، وقضايا الحق والعدل ، بعد أن أصابها جميعا طائف من آلام الحرب وفظائعها ، وقبح آثارها . ولا بد أن يتسع ضميرها ويجنح من القومية الضيقة والأنانية الغاشمة ، الى نزعات انسانية شاملة سامية ، يتجرد فيها الحق والعدل من العنعنات والنعرات الجنسية التى طالما تقسمته وتوزعته ، وخلعت عليه من ضيقها وسفهها ما جعله حقا لدى قوم وباطلا لدى آخرين ، وما جعله يوما شرقيا وآخر غربيا . مما أورث كثيرين من المفكرين شكا فى وجود الحق وريبة فى تحقق العدالة بمعناها الجليل الجميل المرسوم فى الصحف المأثورة وفى الفكر المثالى .

واذا تجرد الحق والعدل من النعرات والتعصبات ، ووضعا فى نصابهما المثالى أمام الانسانية جميعها أبيضها وأسودها وأحمرها وأصفرها ، وطبقت آثارهما عليها فى حراسة الضمير بدون تحيز وتمييز ، فقد وصلت الانسانية حينئذ لفردوسها المؤقت المنشود ، وتفرغت لما يجب أن تتفرغ له وحده ، وهو فتح مجاهيل الطبيعة وكشف أسرارها ، وتسخير قواها لتقليل المشقة وزيادة المنفعة .

غير أن الناس لسوء ظنهم بأنفسهم ، ولقبح رأيهم فى الانسانية ، وانعدام أملهم فى سمو مستقبلها ، لا يحاولون أن يأخذوا أحداث هذه الحرب وظواهرها أخذ دراسة وتمعن واتعاظ بعبرها ، بل يحسبونها طبيعة من طبائع الحياة لا يمكن أن تتخلى عنها الانسانية . ولذلك لا تحتاج لديهم الى تفكر وتدبر مخلصين للنجاة من أهوالها بقطع دابر أسبابها .

وسوء ظنهم بأنفسهم ، وقبح رأيهم فى الانسانية أثران من آثار الماضى الجاهلى الذى كان فيه الضمير الانسانى ضيقا ، والتفكير البشرى محدود الأفق ، والخلق رهين الغرائز المنحطة ، والجهد عاجزا قاصرا عن ادراك العلوم والأعمال الكثيرة البركات والمخففة للمشقات .

ولذلك تمنيت ولا أزال أتمنى ان نتحرر من التاريخ ، وان نكون ابناء الحاضر العظيم الذى سما فيه فكرنا وجهدنا ، وانكشفت لنا فيه من الطبيعة أكثر الوجوه التى كانت مستورة غامضة ، وأدركنا اطراف جسم امنا الأرض ، وأنواع مواليدها من الجماد والحيوان والنبات ادراكا بالمقاييس الدقيقة والمعايير العلمية التى وزنت دقائق صنع الله وأبرزتها لنا واضحة جلية .

والواقع أن الدنيا برغم كثرة المتعلمين والمتحضرين فيها ، لا تزال مجتمعاتها مسيرة بآراء غير آراء المفكرين والعلماء المدركين لحقائق الحياة والباذلين جهودهم لتذليل العقبات وجلب المنافع . والذين يمسكون دفة المجتمعات ويديرونها ، هم الذين كان أمثالهم يسيطرون عليها فى القديم ، وأكثرهم من السماسرة والدجالين ومحبى الجاه والمناصب للسيادة والخيلاء والانتفاع الشخصى واللعب بالشعوب وشفاء الحزازات والأحقاد .

ولا تزال خمائر الماضى تبث جراثيم الفساد فى الحاضر ، فيبنى الجديد بانقاض القديم . وقد تتغير الصور والأشكال ولكن الجوهر باق كما هو . وقد حسب الناس أنهم ماداموا قد لبسوا لبس المتحضرين ومشوا برشاقتهم وحركاتهم ، واصطنعوا أدواتهم فى الزينة والرياش وطرق الأحاديث ، فقد تغيرت الدنيا وصاروا فى مدنية القرن العشرين ، بينما قلوبهم وغرائزهم على ما كانت عليه قلوب قوم « نوح » وغرائزهم .

وينبغى أن نفرق بين الحضارة والثقافة : فالحضارة هى العيشة الجسمية فى الحضر ، وهى تكسب الأشخاص رقة ورشاقة وخبرة بمواضعات الناس الاجتماعية وزيهم وحركاتهم ، ولكنها لا تكسبهم ثقافة عقلية خلقية عميقة تتصل بأصول الحياة والآراء والمذاهب والعقائد والأفكار

والأخلاق والمعلومات التى يقوم عليها بناء حياة صحيحة . أما الثقافة فهى العيشة العقلية والقلبية بالمعلومات الرشيدة ، قديمة أو جديدة وبالأفكار والآراء الصـالحة .

ومع الأسف لايزال المتحكمون فى الشعوب أكثرهم متحضرون غير مثقفين : يدركون صور الحضارة وقشـورها ، ولا يدركون جوهرها ولبابها ، ولا يحسـون حاجات الزمن ، ولا يعيشون فى قمة الفكر والعلم ، بل لايرونها ؛ اذ ليس لديهم أدوات النظر .

فمن أين لهؤلاء الحاكمين أن يسيروا بمن تحت حكمهم من الشعوب الى اهداف الانسانية العليا وغاياتها المشتركة ، وأن يفقهوا لغة الحوادث ويسـمعوا نداء الزمان ، ويروا تلك الخطوات المطـردة التى تخطوها الانسانية فى طريقها الى غايتها المجهولة ؟ ومن أين لهم أن يقلبوا ضمائر الشعوب الضيقة الأنانية الى ضمائر انسانية عالمية تمهد لحياة السـلام والاستقرار الدائم ؟

ان الأمل الوحيد هو فى المربين الذين يتولون الناشئين فى جميـع الشعوب . وواجبهم أن يوقظوا ضمير كل ناشىء ، ويوسعوا مجراه حتى يشعر بمعنى الانسانية الحقيقى ، فلا تكون حياته المدنية طلاء ودهانا فوق جلدة قرد وحشى !

وحسب الحياة ما لقيته من كيد هؤلاء الذين لهم مساليخ الآدميين وقلوب القرود ، وما تحملته من أنانيتهم وسفالاتهم التى شوهت وجهها وجعلتها مأساة دامية !

وكل يوم ، بل كل ساعة تصطدم حواس الذين لهم اخلاص الفكر والقلب بما يشوه جمال الحياة ، ويضع تحت الأضراس حجارة قاسية من الغيظ والاضطرام والألم الماحق لبشاشات النفوس وايمانها بالعدالة فى حياة المجتمع !

وما قذف الايمان بالانسانية فى قلوب هؤلاء المؤمنين ، ونبههم الى قيمتها الحقيقية ، الا رؤية هذه الطبائع المسوخة .. فما كانت الانسانية لهذه المهازل والآلام والجرائم والسفالات التى تزخر بها المجتمعات الفاسدة

التى يسيطر عليها من يأخذون الحياة كأخذ السباع والذئاب والكلاب والخنازير ، فهم لا يفهمونها الا على وجه الختل والسطو والجريمةوالنباح والعواء والتهويش والانحطاط .

ولسنا نحلم بجنة فى الأرض كاملة الأوصاف ، فيها ملائكة من الناس يحكمون .. ولكننا نريد بيئات تدين بمثل عليا على الأقل فى الحقــوق العامة ـــ ودع عنهم الحقوق الخاصة .

فالى الضمير : ذلك المصباح الذى توقده يد الله دائما فى ظلمات القوى العمياء التى تعج بها متاهات الحياة وحنايا الصدور ، ولن تستطيع أعتى الأعاصير أن تطفئه أو تخنق شعاعه ـــ اليه يجب الفرار للاعتصــام من امواج هذا الظلام !

حيث الأنس بالإنسان

زال عهد الصمت والجمود ـ رسالة يبعثها سر الانسان ـ ضآلة لاتبعث على الاستكانة ـ لاتتعجلوا النتائج ـ موارد فياضة معطلة تنتظر الصنعة ، السيد هو انسان الصناعة ـ بين قيادة البقر وقيادة الفولاذ ـ مضى زمن التخريف فى الله وبقى التخريف فى الانسان ـ برزخ على هوة ! سر ظهور الدين قبل العلم ـ أسس خفية لحياة الاجتماع ـ أباطل أصلح للحياة من الحق ؟ ـ مم تفجر نبع الضمير ؟ ـ حيث الانس بالانسان .

قديما كان كل شىء فى الطبيعة صامتا جامدا ، أيام بدء ظهور الانسان ، فلم يكن يتكلم غيره هو ؛ بل كان هو أيضا أبكم محبوس اللسان لايتكلم الا بمقاطع ساذجة ، وأصوات وجدانية ، وكانت وجوه الطبيعة جامدة مبهمة ، وأبوابها موصدة .

والآن صارت الأشياء متكلمة محدثة طليقة الوجوه مفضوحة الأسرار . أنطقها الانسان الذى علمه الله البيان ، فعلمه هو بدوره اياها ، وجرد منها حناجر تحدثه وتعيد عليه حديثه ، لتؤنسه فى رحلته الى صوب مجهول .!

ولقد زادت عجائب الكون بانضمام العجائب الانسانية الى العجائب الالهية فى الطبيعة ، وكان كفر الانسان بالله ناشئا من ذهوله عن بدائع مخلوقاته تعالى ، وكذلك صار الآن كفر الانسان بنفسه ناشئا من ذهوله عن مصنوعاته هو !

ألا ان حمله على الايمان بنفسه ، رسالة لاتحتاج الى رسل يبعثهم سر السماء الى الأرض ، وانما تحتاج الى رسل يبعثهم سر الانسان ووحى أعماله فى الأرض .. !

وقد ظل الله ربه يقول له وهو طفل جاهل قاصر عاجز : من هنا الطريق .. الى الحياة والملكوت .. افعل هذا واترك هذا .. كن كذا ولاتكن كذا .. حتى أدرك جادة الحياة الكبرى ، وبانت له تباشير المدنية المنشودة

التى كان يحلم بها ويطلبها من الرسل كمعجزات .. فأسرع اليها وغمرت حواســه أعاجيبها ، وألهاه ذلك عن التفكير فى نفســه ، فعاش فى ضجة ما يصنع كما تعيش دودة القز فى الشرنقة .

وقد خلى الله بينه وبين الحياة ، بعد أن ترك له وصاياه فى الصحف الأولى .

قد يقول قائل من ذوى الروح المتشائمة المعطلة : ماذا يريد ذلك الانسان المحدود من ضجته فى الأرض ؟ ضجة حناجره ومصانعه ومدافعه وجراراته ودباباته وطياراته وبوارجه ؟ انه ضئيل ، وان مسرحه ضئيل : فهو شيء صغير على سطح الأرض ، وهى ذرة سابحة مع ملايين الملايين من النجوم والكواكب ؛ فماذا عساه أن يصنع ، حتى لو ركب الأرض نفسها وصرف مقاليد سيرها كما يصرف مقاليد طياراته وجراراته ؟ أليس الفناء نهايته ونهاية ما يصنع ؟

فأقول لأمثال هذا : رويدكم .. لاتتعجلوا نتائج حياة الانســان ولا تشــكو أنها ستكون عظيمة أعظم مما تتصورون ، بعد أن رأيتم من فعله مالو رآه آباؤكم لماتوا عجبا !

انكم تشكون فيه لأنه لم تثبت لحياته نتائج دائمة ، وعندكم أن كل أعماله ملاه وسلوى فى شئون خاصة ، كالشئون الخاصة بأى فصيلة من فصائل الحيوان .

كذلك قال الذين لا يعلمون من آبائكم مثل قولكم ، اذ لم يروا ميتا يرجع ومفقودا يؤوب .. !

ولكن الأمر فى حيــاة الانســان وخلوده ليس كما تتوهمون أمرا متعجلا .. انه ثمرة لا بد من نضجها فى زمن معلوم تظهر بعده نتائج خالدة ، وأسرار مخبوءة ، لها صلة وثيقة بالكون الطبيعى نفسه ، وبالروح الأكبر الذى وراء الطبيعة .

وما دام الانسان لم يصل الى حدود جامدة لاوراء بعدها فى الكشوف والاختراعات والوقوف على أسرار الطبيعة ، فثمت له بقاء ، ولوجوده

غايات ، هو لايذهب من الأرض حتى يحقق جميع الغايات من خلقه .

ان كل شيء يبدو عليه انتظار تحقق تلك الغايات المجهولة المرتقبة ، وربما يذهب من الأرض حين يستطيع أن يحول جسمه الى قوى وطاقات تعبر الأرض فى لحظة وتوجد كما تريد باذن الله !

وسيرى الذين يذهبون الآن ، أنهم بعد الموت فى دور انكشاف وظهور ، اذ لا يعقل أن يمضى هذا « الخالق الصغير » الى الفناء المطلق .

ثم أقول : ماذا تريدون أن يفعل اذن ؟ أتريدونه ينام حالما يدخن النارجيلة والحشيشة والأفيون كما يصنع أغلب انسانية الشرق المضيعة ؟ ام تريدونه يجلس فارغا ينتظر الموت ، وينشد الأشعار ولهو الأحاديث ؟

ان عليه أن يملأ هذه الأرض بالضجة والقوة التى يستطيع تسخيرها ، وأن يسلط قوى نفسه الكامنة على هذه المواد الساكنة ، ويثيرها أيما ثورة ، ليدخلها فى نطاق الحركة بعد السكون والحياة بعد الركود ، ولا عليه بعد ذلك أنه ضئيل ، فوق زورق ضئيل ، يسبح فى عيلم كبير ..

فلو نظر الانسان الى جبروت الطبيعة وهول السماء ، لاستصغر جهده على الأرض مهما عظم ، ولم يفعل فى حياته الا ضرورات احتياجاته . وبالطبع هذا يرده ضعيفا مستضعفا ، شقيا ، فريسة لغيره كما كان . ولكنه اذا آمن برحابة نفسه وقوة فكره وقدرته على أن يفعل الأعاجيب ، وأنه على ضآلة جسده ، يستطيع أن يحرك الجبل وينسفه بتسليط قوة طبيعية أخرى عليه ، اذن ، كان هذا أنفع وأجدى ، وكان أشرف له ، اذ يجعله قوة من القوى العاملة فى الحياة .

ان الطبيعة تغازل فكره وتثيره للعمل فيها منذ أيامه الأولى ؛ فالطفل يبحث فى محيطه ويسلط جميع حواسه على محتوياته ، فيراه ويلمسه ويذوقه ويتسمعه ويشمه ، حتى يحيط بخواصه ويثير كوامنه ويطلقها خيرا من تعطيلها وسجنها .

وقد وجدنا كل ما فى الطبيعة من مواردها الكبرى بسيطا غير معقد ، فياضا بكميات كبيرة جدا ، خاضعا للتعقيد والتركيب والتأليف والتوزيع

والتنويع ... فدلنا ذلك على أن هذه المواد انما وضعت هكذا هائلة فياضة ، انتظارا لصنعة ستتناولها بها يد صناع .

وكلما رأيت غزارة الماء — وهو أصل الحياة — وكثرة المقادير التى تصبها الأنهار فى البحار فتذهب من غير انتفاع الا بجزء قليل جدا منها ، قلت ، ان هذه الكميات الهائلة انما أفيضت لا لاخصاب السهول الحافة بها فقط ، والتى تصل اليها مياهها فى سهولة ويسر ، وانما أفيضت لاخصاب هذه الأراضى البور من الصحارى والسهوب الظمآى العقيم .

وكلما رأيت مناجم الأرض تمتلىء بالمعادن والركاز المعطلة ، وهى ذات النفع العظيم والامتاع الدائم ، قلت : هنا مواد ظلت الطبيعة تحفظها فى صدرها ، حتى أتى يوم بعثها على يد من عرف أسرار الانتفاع بها فى زمن نمو علوم الآليات والكهرباء .

وكلما رأيت أغلب مناطق الأرض لا تزال خالية من السكان أو غير متشبعة بهم ، قلت : هذه مساكن احتياطية لأقوام آتين ستلجئهم ضرورات الزحام الى سكناها وتعميرها وتعديل مهودها واجوائها واخصاب بقاعها .

وكلما رأيت البحار السبعة وما فيها من عوالم وعناصر وموارد للطعام والحرارة والصناعة ، قلت : هذه قدور هائلة يطبخ فيها مستقبل مجهول لهذا المخلوق .

فهذه المقادير العظيمة من المياه والمعادن والأراضى والغابات ، ظلت تفيض فيوضها بالكيل الواسع ، وتدور دوراتها وترجع من غير أن ينتفع بها أحد انتفاعا يبرر غزارتها ، الى أن أتى عصر تفتح حاجات الانسان الصناعية والعمرانية بتفتح أسرار الطبيعة لفكره ، فاذا بهذه الموارد التى كان يظن البعض أن فيها اسرافا وتبذيرا ، يبدو لعيون العلماء وأرباب الصناعات والأعمال أنها موزونة متكافئة مع نمو حاجات الانسان واتساع افتنانه .

* * *

هذه الحياة الصناعية البارعة المعقدة الكاشفة عن قوة الانسان الابتداعية النامية المنمية ، التى بها تفرده وامتيازه بين الكائنات ، وبها تغلبه

على غيره من الحيوانات ، بل وتغلب بعض أقوامه على بعض ، قد نمت نموا عظيما حتى بدت فى هـذه القوى الساحقة التى يستخدمها الآن فى حربه .

ولا شك أن انسان الصناعة هو سيد الأرض . أما انسان الزراعة فمهما افتن فيها وهندس واجتهد ، فان حياته حياة بدائية ، لا تعقد الفكر ولا تترك فى الأعصاب أثر القوة والابتداع والسيادة . وقد صارت الزراعة الآن خاضعة الى حد كبير للصناعة ، وذات تبعية لها .

ولذلك رأينا الأمم الصناعية تسود الأمم الزراعية ، على رغم القلوب الطيبة والمثل العليا التى تشيع بين الزراعيين فى العادة ، منتقلة اليهم من اعتسادهم بعد بذل جهودهم على منزل الغيث وباعث الخصب ، ومن طول معاشرتهم للنعـاج الوديعة والبقر المطيعة والأنعام التى تعطى ولا تأخذ ، وتسام على الخسف ومع ذلك تجتر سعيدة حالمة ... !

وطبيعى أن يتغلب من يدرب أطفـاله على ركوب « الحيوانات » الحديدية ، وقيادة « الوحوش » الفولاذية ، على من يدرب أطفاله على ركوب الحمير والبغال ، وقيادة الأغنام والأبقار....

وكل ما يحدثه الانسان فى المواد يدل على اتساع مدى نفسه وامتداد خيالها ، وأخذها من محيط واسع عميـق ، وامتياحها من ينبوع زاخر بالصور والأشكال والأنواع ، وقوة تعقيد فكرها وقدرته على احداث نسب جديد ، بين العناصر والمواد ... وهذا مالا وجود له فى الزراعة .

ولكى تدرك ما أرمى اليه ، فكر فى الحياة الصناعية من المسمار الصغير الى المصنع الكبير وما بينهما .

* * *

يلام الانسان على غفلته عما صنعه هو بيديه وملأ الدنيا به ، كما كان ولا يزال يلام على غفلته عما خلقه الله فى الطبيعة .

ولقد مضى زمن التخريف والضلال فى العقيدة بالله رب الطبيعة ، لأن الحياة لا تحتمل الجهل به تعالى الى الحد السخيف الذى كانت تقبل فيه

عبادة الأصنام والأشخاص والنجوم وغيرها ، ولا تحتمل أن تجرد الطبيعة منه تجريدا كالذى كان من المعطلين منكرى القصد والارادة والعناية فيها ، ولفظت العقول الأديان التى تعتمد على غير العقل فى اثبات حقيقة الوجود الأولى والحقائق التى تليها ، وعشق الناس جمال الطبيعة وصدقها ، وعرفوا من أسرار الصناعة فيها ، فيبقى عليهم لتكمل عقائدهم فى الحياة ، أن يتيقظوا دائما لمنشئها ومدبرها ، ويتقربوا اليه بالفكر فيه وتكريم اسمه ، كما يتقربون — على الأقل — لأساطين علمائهم الذين عرفوا من علومه جانبا ضئيلا .

ولكن ، جد تخريف وضلال فى العقيدة بالانسان ، بسبب فرض لم يثبت فى نظرية النشوء ، أطلق حوله كثيرا من الاعتقادات الفاسدة . ومقاومة هذا التخريف الأخير هى من أهم رسالات الدين فى هذا العصر .

* * *

هذا الفرض جعل كثيرا من الناس لا يريدون أن يصدقوا أن بينهم وبين الله صلة محترمة أو عناية . وكأنهم يجفلون من التكريم والاحسان اللذين يقول الدين ان الله يصطنعهما فى معاملة الانسان .

وهم يقولون ان حياة الانسان بالنسبة لله تعالى — على فرض ايمانهم به — حياة ضئيلة ، وان بينهما هوة سحيقة لا عبور لها ، وأن الحياة الانسانية على الأرض لا تقدم ولا تؤخر فى سير الناموس الأعظم الذى ينتظم الكون . فسواء على الله وعلى الكون أن يضل الانسان أو يهتدى ، أن يعف وأن يشره ... فتلك شئون خاصة به ، خاضعة لاعتبارات مجتمعه ، وسوف يفنى بأخلاقه وأعماله كما تفنى النمال والنحل وكل ما لبسته الحياة ، من غير رجعى أو مصير أكمل ..

ولكن الواقع أن ضجة الانسانية وحدها ، وتغير الأرض بها وحدها وتعقد الدنيا بها وحدها ، واطراد نمو الحياة المادية وانكشاف خصائصها بها وحدها ، وارتقاب غاية مجهولة منها وحدها ؛ هى أمور من الحق بحيث تشغلنا عن سواها ، وهى ذاتها البرزخ الذى نعبر عليه تلك الهوة التى بيننا وبين الله !

وما دمنا لم نر كائنا غيرنا يعمر الأرض ويثيرها ، ويستحدث فيهــا أعاجيب لم تكن ، وما دمنا نؤمن بحكمة بارىء الوجود الذى أدخلنا اليه ، اذن : لا نستطيع أن نعتقد أنه ليس بيننا وبين الله برزخ أو صلة ، معانا نرى أنفسنا كل شىء فى الأرض ..

وعند ما ينظر السطحيون لظاهر مجموع الناس ، يخيل اليهم أنه لا صلة بين قلوبهم وأفكارهم وبين السماء ، وأنهم غير مأبوه لهم من صاحب الوجود ... وحينئذ تنطلق الاعتقادات الفاسدة والتافهة بالحياة وتنطلق وراءها الغرائز الخطرة ، وتوجد « طمأنينة الكفر ! » وينظر الانسان للانسان على أنه شىء تافه ، يصح سلبه واستعباده وقتله .

ولكن عند ما ننظر للحياة الانســانية من داخل الأرواح والأفكار والقلوب ، نجد النظر يخلق المنظور خلقا آخر جليلا ، ويشعر الناظر أن عين الله راعية وصية على هذا المخلوق .

فما أعظم أثر هذا فى طمأنينة النفس حتى لو كان باطلا ! انه يرفع آمال النفس البشرية وأفكارها حتى يجعل منطق الله خالق الطبيعة الهائلة منطقها هى ! مع أن الهوة التى بينها وبين الله سحيقة ، اذا استسلم الانسان للحس وحده فى عبورها لن يتمكن ! اذ يجــد مكانه فى الوجود يكاد يكون لا شىء ... اذ الأرض ذاتها لا شىء بجوار عظمة الكون ، فما بالك بالفرد الضئيل فيها !

هذا النظر الروحى العميق يجعل للنفس ثقة واحساسا بالعظمة ، اذ يجد به الانسان لنفسه مكانا ملحوظا فى الوجود ، حين يجد علاقته وثيقة بصاحب الوجود مباشرة .

* * *

ومن العجائب فى ظهور حياة الانسان وتدرجهــا ، أن حياة الروح والتدين فيها سبقت حياة العلوم ، فبنيت حياة التعزية والثقة على الدين قبل العلم .

ولو سبق العلم الدين ، اذن : لكان موقف الانسان فى الحياة موقف

ابن الطريق الشريد القادر الفاجر ، الذى لم يجد أبا وأما يأخذ من حنانهما حنانا لنفسه ، ويعرف أن قلبيهما منبعان غزيران لصفات الاخلاص والرحمة والحب ، بل يجد نفسه مدركا رشيدا ، ذكيا قاسيا ، على قارعة الطريق ، تدافعه زحمته القاسية ، يعرف جرائم الحياة وجفاءها ، وأخلاق الشوارع والأسواق ، ولا يعرف روابط الأسرة ومعاملة الأخوة والبنوة ووصايا الأمومة ؛ فيكون موقفه فيها موقف قاطع الطريق المسلح بالأدوات والمهارة.

* * *

علام يقوم بناء الحياة الانسانية ؟

حين أستعرض نظام مدينة أو أمة أو أمبراطورية ، فأجد ناسها يعيشون فى تفاهم وتعاطف ومبادلة منافع ، وأجد مرافقها ومبانيها وشوارعها ومصانعها ومعاهدها تقوم فى دقة وموازنة وجمال وأمانة ، كأنها من الطبيعة الموزونة بيد الله ... أسائل نفسى :

من الذى أقام بناء هذه الحياة الانسانية فى تلك الأمة أو المجموعة على هذه الأوضاع العظيمة ؟ !

ومن الذى سدد جهاد أفرادها جميعا نحو غايات مشتركة وأهداف موحدة ؟

ومن الذى أعطاها تلك الروح الاجتماعية الواحدة التى تجعلها تسلك فى أعمالها وآمالها مسلك الروح الواحد فى الجسم الواحد ؟

ومن الذى هذب طباعها ورققها وجملها وصقلها وسار بها شوطا بعيدا من عيشة الوحشية والتأبد ، الى هذه الانسية والاجتماع ؟

ومن الذى أقام هذه الأسر « والعائلات » على التراحم ، وجمع أطفالها ورجالها على الحب ؟

انه لا شك سر النبوات التى هبطت على القلوب الكبيرة التى كانت للانسانية فى مهد نشوئها ، كالأمومة الرحيمة المضحية المربية المسددة .

ان هذا لا شك هو الأساس الأول الذى قامت عليه الحياة الاجتماعية وذهب بناؤها مطردا فى العلو والسمو .

فجامعو المعانى الكريمة التى اكتشفت فى الطبع الانسانى هم الأنبياء .

وقد صارت المعانى الأخلاقية الكلية هى أساس بناء الدول المحكمة الوضع ، بعد أن كانت فى أول أمرها معانى شخصية فى قلوب هؤلاء الأفراد القلائل . ونسبة المؤمنين الآن أكبر من نسبة المشركين والمعطلين وصارت الأديان السماوية ممثلة فى أعظم أمم الأرض .

فلئن غابت الآن هـذه الأسس المعنوية لحيـاة الاجتماع عن الأنظار القصيرة والأفكار المشلولة ، فكما تغيب أسس الأبنية العظيمة فى باطن الأرض ، لا ترى ولا يعرفها الا الناظرون فى الأعماق ..

ولقد مات الرعيل الأول من الآباء والأمهات ، ولكن بقى الأبناء دليلا متجددا عليهم .

* * *

ثم نسأل : أيهما أصلح للحياة ؟ أأن يعتقد الانسان أن الله به حفى ، وأن يؤمن بالانسان فيحتفل لولادته ، ويقوم لجنازته ، ويؤثره على نفسه ، ويتواضـع له ويحترم دمه وعرضـه ، ويعيش بالأخلاق التى تسـمو بالحياة الاجتماعية ، وتقلل الخلاف والشقاق ، وتنمى المدنيـة وتحيط الانسان بجو من سكينة العلم ورقة الفن ، وتسخر العلم فى خدمته وتخفيف ويلاته ، وتضع أمامه أهدافا مرسومة ومثلا عليا ، وفلسفة يطرد بها الوفاق؛ وتجعل ابراهيم وموسى وعيسى ومحمدا وغيرهم من الرجال الآباء نماذج وقمما يتطلع اليها ... ؟ أم أن ينظر الانسان الى الانسان كما ينظر للنبات والحيـوان ، فاذا ولد فكجرو الكلاب أو سخل النعاج ، يسخرويلعب به ، ولا عرض ولا ناموس ولا قيود ، وحياته حياة فنها آلى وعلمها للتدمير والغلبة ، ومثلها وصولية ... واذا مات هلك وقذف به الى ظلمة الأبد من غير رجعة أو ذكرى أو أمل فى مصير أكمل ؟ !

أما والله لو كان دين الانسانية هذا خداعا باطلا ، لكان أعظم أثرا فى صلاح الحياة من ضده ولو كان الحق ! لأنه قانون الحياة الاجتماعية ، فاذا تركه الانسان كان عليه أن يرتد الى حياة الغابات . وقد ارتد بعضه فعلا الآن ، ولكنه سيعود ..

ولست أدرى : ما هو غرام بعض الناس فى أن يزعموا أنهم كشفوا تيارات واتجاهات فى الحياة تجعل الناس يحطمون الحياة الاجتماعية التى نمت مواريث علومهم وأخلاقهم فى أحضانها ؟

ان كل ما يضر حياة الجماعة هو شر يميت الضمير وينزع منه الايمان بالخير ويسلم الى النكسة والارتداد . فينبغى ألا يفلسف به .

* * *

على أسوأ الافتراضات فى تفاهة أصل الانسان وضآلة مكانه فى الوجود، فتفجر نبع الضمير فى قلبه ، وطواعيته تحت تأثيره ، لا بد أن يكونا بوحى وضغط من عالم أعلى ..

وهذا الروح اللطيف الذى يوجد فى القلب حين الحب ، أو حين مبادلة العلم والفكر ، أو حين تفتح القلوب بالخير ، أو حين النظر للوجود بالعين الصافية الآملة المتفائلة ، أو حين استحضار المعانى الكبيرة : كالمروءة والايثار والتضحية الصامتة ، أو حين الايمان العميق الرحب المشع ... هذا الروح هو مكان رصد الانسان والأنس به والأمل فيه .

فلنرصده من هناك ليكون المنظر جميلا أخاذا ، يبعث على التفاؤل والحب والسعى الى الاكتمال ... أولى من أن نرصده من مكان آخر يبدو منه مطموس الجمال ، مقبوح الخصال ، منحط المكانة ، باعثا على التشاؤم والبغض والحقد وسوء المآل !

التحرر من التاريخ

التحرر من التاريخ ـ نحن غير البائدين ـ تلاميذنا اصبح علما بالطبيعة من أرسطو ـ العلوم والفنون ليست تحفا تقتنى منفصلة عن النفس ـ لابد من قلوب حديثة ـ من جرائم التاريخ ـ الانسان يصنع كثيرا من أقداره استطراد الى مشكلة القدر ـ الى المنتظرين بعثا من غير نفوسهم ـ الان فقط وجد الحق أدوات كاملة للدعوة الى تصحيح الافكار عن الحياة ـ عباب التاريخ يجرف الطفولة النضرة مع الجيف القذرة ! ـ لامفر من عزل الطفولة لتصحيح أفكارها ـ مناقضات بين مافى الشوارع وماقى الجامعات صورة من دراستنا الحالية للتاريخ ـ طبائع مدلسة ليست بنت زمانها ـ مايستهلكه الشر ـ هل مضت الحاجة الى دور الغرائز فى خدمة الحياة ؟ ـ حرب الالهة

طالما ألححت على التاريخ : هذا الجدار الهائل .. هذا السد القوى .. هذا السجن العتيد .. لأحطمه وأنقذ نفسى من جوه المعتم الخانق !

وطالما قلت ما دام هذا الماضى القاصر الجاهل المخرف الوحشى يحمله الانسان فى أوعيته وأعصابه الى الحاضر ، فهو دائما فى ضلاله القديم ، كما يعيش حامل الميكروبات الضارة دائما فى أمراض ونكسات .

والحقيقة التى يجب أن توضع نصب العيون الآن ، هى أن هذا الانسان العصرى ، هو غير الانسان البائد بلا شك ! هو غيره فى علمه وادراكه للطبيعة وتذليله لعقبات الحياة واضطلاعه بأدوات تحقيق الاحتياجات ، وتفتيحه لكنوز الأرزاق والأقوات .

فكيف يرضى آن يحمل ذات قلبه القديم وغرائزه كما كانت ، وأن يحمل غشاوات القرون الأولى ليعيش بها فى عصر الانكشاف والظهور والقدرة الفائقة ؟ !

كيف يرضى من ملك زمام اليابس والبحر والجو ، وذرع الأرض

بالطول والعرض ، ونبش كنوزها ، أن يعيش بأساليب الذى كان لا يعرف غير طريق القرية أو النجع أو الجزيرة التى يعيش فيها ؟

ان تلاميذ المدارس الابتدائية أصح علما عن الأرض والطبيعة من سقراط وكونفوشيوس وأرسطو وابن سينا وابن رشد وغيرهم من حكماء القدماء ، فكيف ترضى الانسانية الحالية أن تعيش حياتها النفسية بأساليب جهلاء عصورهم ؟ !

ان التاريخ النفسى للحياة الانسانية ينبغى أن يدرس بعين غريبة عنه ناقدة له فى شك وتمحيص ، فما هو الا سجل جهاد الناس فى سبيل وصولهم الى حقائق هذا العصر الحالى ، وما يليق أن تؤخذ مرحلة من مراحله محطا يطمئن الناس اليه بعقولهم ، لأن مراحله السابقة كانت مراحل موضعية ضيقة خاصة بأمة ما من أممه ، ولكن أمر أمم الناس الآن أمر جماعة توشك أن تتقارب أهدافها وتشتبك مصالحها وتشتجر اشتجارا لاخلاص لفروعها منه ، أبت أم كرهت .

هل من المعقول أن نلبس ملابس الحياة الحديثة على الأجساد ثم لا نغير ملابس النفس ؟ أنكون قرودا وببغاوات تحكى قضايا العلم بألسنتها وظواهرها ولا تمثله قلوبها ونوازعها ؟

هل يكفى من العلم أن يقتنى فى الحوافظ والذاكرات غير ممزوج ولا مدمج فى الأعصاب والأحاسيس والانفعالات ، وأن يوضع فى الرءوس كما توضع التحف والدمى على الرفوف والمناضد للزينة والخيلاء والبيع والشراء عند الحاجة ؟ !

ان العلم ينبغى له أن يكون فى كياننا كالماء فى أعواد الشجر الحى ، لا يقف تسربه اليه وانماء حياته الا اذا جف وأحطب ومات .. فلا شجر بدون ماء .

ان « جراحة » عظيمة فى داخل الحياة النفسية الانسانية تنتظر اجراءها لبناء قلوب حديثة تتلاءم مع الأفكار الحديثة !

* * *

ومن آثار التاريخ فى الحياة العصرية هذا الخلاف العنيف بين سدنة الأديان بعد ما سطعت شمس الله الواحد ... وبعد ما أدرك العقل التناسق والانسجام والتوافق بين قوانين الطبيعة فى الذرة والمجرة مما لايمكن أن يكون الا بادارة يد واحدة !

ومن آثاره فيها أننا لا نزال نخضــع لمنطق الأمم التى كانت تعيش متحاجزة فى سدود وتخوم تفصل بين عقولها وأخلاقها ومرافقها ، وتجعل الدنيا دنيوات ، والانسانية الواحدة أنواعا متباعدة ، وتجعل من اختلاف الأجناس والألوان واللغات اختلافا أصيلا جوهريا بين الطبائع الانسانية يبيح هذه العداوة الفاجرة المريرة المخربة للعمران ، ويحمل على المبالغة فى البطش والطغيان ، ونسيان الصفات المشتركة بين بنى الانسان .

ومن آثاره أن أكثر الناس لم يدرك بعد مــدى الانتقال العظيم ، والترقى السريع ، والتفاوت البعيد بين الحياة قبل القرن العشرين والحياة فيه ، ولذلك لا يزالون يضمرون فى أنفسهم اعتقادات متشائمة فى الانسان ومستقبله ، ويدينون فى الحياة بدين السخط واطلاق الغرائز الخطرة والآراء التافهة التى تجعل الانسان يعبر الحياة بدون أن يجهتد فى ملء نفسه بأسرارها ، وفى اضافة كشف أو اختراع أو منفعة أو فهم الى ميراث الحياة الانسانية ... وليس هناك شىء أضر على الحياة الانسانية من نزعة التشاؤم والتبرم والسخط على حاضر الانسان ومستقبله !

ومن آثاره أننا رضينا أن يعيش أكثرنا جاهلا أميا لا يفقه مبادىء العلم والحياة التى فى رءوس العلماء ، مع ان نمو تلك الأسرار يتغير ويتقدم كل صباح ومساء . وكأننا بذلك وأدنا هؤلاء الأحياء ودفناهم كما كانت تفعل جاهلية العرب بموءودة الأجساد .. وكان هذا الاهمال منا كفعل من يرى أهله يموتون ظمأ واحتراقا ، وهو على علم بمنبع ماء غزير يطفىء غلتهم ولوعتهم ويحيى نفوسهم ، ولكنه لا يسعى الى انقاذهم ..

ومن آثاره أننا نعيش فى ذهول عما يحيط بحياة الانسان الآن من كنوز تتفتح وأعاجيب تخترع ، فترى الناشىء منا ينشأ بين القطارات والسيارات والطيارات والراديو والتليفون والغواصات والفوتوغراف

والسينما وغير أولئك ، ثم يجهل أمرها وتركيبهـا ولا يدرى عنها شيئا ، ولا يكلف نفسه سؤال أحد عن نبئها العظيم .. كأن ذلك شيء تافه أو أمر بدهى لا يحتاج الى فكر شديد وتعجب بالغ !

ومن آثاره أننا برغم ادراكنا الآن كثرة الأقوات وكفـاية الأرزاق كثرة وكفاية تشبعان حاجات الانسانية جميعها ، لو وزعت توزيعا معقولا بدون احتكار وتحكم واتلاف لجانب من المحصول فى سبيل الاحتفاظ بالأسعار المرتفعة .. لا نزال نطيع الجشع والطمع ونعصى دواعى العدالة والرأفة بالطبقة المحتاجة المجهودة !

ومن آثاره أننا لا نزال نغطى عجزنا وكسلنا بالاستسلام لما نسميه « الأقدار » ، مع أن مفتاح كثير من الأقدار بأيدينا ، ومع أننا نرى فى الظاهر أننا نصنع أغلب أقدارنا ،ومع أن دائرة الايمان بالأقدار فى الدين لا تتعدى منطقة الصبر على المصائب والكوارث التى تأتى الينا بدون حيلة أو خيرة منا ، ومنطقة الرضا بما نحصل عليه بعد الجهاد ..

وهنا مكان استطراد الى مشكلة الأقدار لا بأس أن نرسل فيه بعض الحديث :

* * *

هناك أقدار نريد أن تتحقق ، وهى أقدار الخير والسعادة ، وهذه موقفنا منها يجب أن يكون كما يأتى :

أن نسعى جهدنا للتمهيد لتحقيقها بالأخذ بأسبابها التى تهدينا تجاربنا الى أنها عوامل جالبات لما نسعى اليه ؛ فان تحقق ما نبغى فذاك ، وان لم يتحقق — وهذا قليل نادر — علمنا أن الارادة العليا المسيطرة على وجودنا ، لها غاية غير غايتنا فى تلك المسألة التى نسعى لتحقيقها . والايمان بتلك الارادة يقضى حينئذ بالاذعان والتسليم لقدرها العالى الذى لا حيلة معه .

وهناك أقدار نريد ألا تتحقق ، وهى أقدار الشر والشقاء . وهـذه موقفنا منها يجب أن يكون كما يأتى :

أن نسعى جهدنا للتمهيد لدفعها بالأخذ بالأسباب التى تهدينا تجاربنا الى أنها عوامل دافعات لما نخشاه وتتجنبه . فان كان ما نبغى ، فذاك ، وان لم يكن ، كان أيضا الاذعان والتسليم للارادة العليا .

تلك هى مشكلة الأقدار فى جانبيها . وفى كلا هذين الجانبين رأينا أن على الانسان أن يقدم جهده فى التمهيد لها أو دفعها . فاذا وقف أمامها منتظرا مكتوف اليدين مشلول التفكير ، كان حريا أن تأتى اليه أقدار الخير فلا ينتفع بها ؛ اذ لم يبذل لها جهدا من فكره وأمله ، وكان حريا كذلك أن تنزل عليه أقدار الشر فلا يسعى لتخفيفها ، وأن يجزع منها جزع الذى يظن أنه كان فى مقدوره أن يدفعها ولكنه قصر فى ذلك ، فيظل ملوما محسورا ..

* * *

والحياة العملية ذات البراهين البريئة من الجدليات توحى الينا ، بل تحدثنا بكلمات مقروءة مسموعة بريئة من غموض الرمز والايماء ، أن الذى ينتظر أقداره بدون أن يسعى لجلبها أو دفعها ، لن تكون حياته الا كحياة ذلك البدوى ساكن الصحراء الذى لا يعمل عملا لجاب الماء ، وانما هو ينتظر سقوطه عليه من السماء . وطبيعى ألا تكون آماله بيده ، وأن يعيش حياته معرضا لأخطار الظمأ والجفاف ، معلق القلب ، مهدد العيش ، يتجدد قلقه كثيرا لأنه لم يمسك من أسباب الحياة الا بحبل بعيد ، هيهات أن يكون فى يده دائما ..

وأنى تكون حياة هذا البدوى من حياة بدوى آخر ، سعى حتى اهتدى الى ضفاف نهر تمسك منابعه بحوالب السحاب ، وتجلب الماء اليه جاريا ميسورا ليده وأفواه دوابه وقطعانه ، ثم هو بعد ذلك يقيم الخزانات ويشق السواقى والقنوات ، ليصل منها الماء الى كل بذرة بذرها ؟

لاشك أن كليهما أخذ من مصدر واحد ، ولكن أحدهما حمل نفسه على العسرى ، والآخر حملها على اليسرى .. وشتان ما بينهما !

فلينهض الراقدون على آذانهم فى الشرق الاسلامى مستسلمين فى صغار لعوامل الشقاء والحرمان ، حاسبين أن أحوالهم ضربة لازب ، حتى

يأتيهم آت من غير أنفسهم ، ينفخ فى الصور ، فاذا الأرض حولهم جيوش وجحافل ، ومصانع ومعامل ، ومعاهد ومعابد ، وحقول وجنات وعيون ، واذا هم — بقدرة قادر ! — آلهة فى الأرض يحكمون !

لينهضوا ليحرروا أنفسهم من قيود التاريخ النفسى الذى انحدر اليهم من الجاهليات ، فهم يعيشون به فى الماضى ، وان كانت أجسادهم تلبس أثواب القرن العشرين ..

ولتكن قوارع هذه الحرب أجراسا وأبواقا تجمعهم وتدفعهم الى السير مع قافلة سريعة المراكب ، متلاطمة المواكب ، غليظة الأثقال ، حاشدة جبال الحديد والفولاذ والقوى العارمة المجنونة التى يقول قائلها : « أنا القدر ! أنا القدر ! يابنى البشر! » .

هل لنا أن نزعم أن الحق وصل الى نفوس أكثر الناس فأدركوا صدقه وجماله ثم مع ذلك رفضوه ، وحينئذ يحق لنا أن نتشاءم فى مستقبل الانسان ؟

أحسب أنه لم يصل فى عصر ما من عصور التاريخ الا الى القليل من الناس . والى الآن لم تقم دعوة الى الحق الواضح فى الطبيعة بدون أن توضع عليها وفى طريقها أغشية وعقبات ومعوقات تحجبه وتمنع الناس من ادراكه .

والآن ، وقد تيسرت أدوات الدعوة وأدوات الاقناع وأدوات التربية يجب بدء دعوة ..

وان فى الناس لخيرا كثيرا جدا أعظم مما يتضح من النسبة التى نجدها فيهم الآن ..

والدليل على ذلك ، نجاح الدولة الاسلامية الأولى ونجاح أمم الشمال فى أوربا خلقيا وعلميا ، فقد أثرت فيهم التربية حتى أوشكت بلادهم أن تخلو من السجون والجرائم والخيانة ، حيث الثقة بالنفس الانسانية وطيدة .

ان أدوات صحة النظر فى الحياة واتجاهاتها ، موفورة الآن لأغلب سكان الأرض ؛ ولكنهم مأخوذون عن ذلك بجرائر التاريخ . وكان من الواجب بعد العلم الغزير أن يوجد الفكر الهادىء والقلب الكبير الذى نضج وطاب ؛ ولكن عباب التاريخ وسيوله لا تزال تجرف الطفولة والبذور مع الجيف والقش والغثاء ، وتلقى الجميع الى المصب الذى تلتقى فيه الأخلاط من الضلالات التى تركها أبناء الجهالة الأولون ..

فلا مفر من فصل البذور والطفولة وعزلها عن مجرى سيل التاريخ ، وانشائها بأيد غير ملوثة ، انشاء يرضى به هذا الزمان وعلومه وفنونه ، ويؤهل الانسانية لتلك الخلافة الواسعة المتعاونة فى جهاد الطبيعة واستنزال بركاتها وثمراتها .

ولا مفر من تصحيح الفكرة عن الحياة وتوجيهها الى الايمان بها كرحلة ممتعة أتاحها القدر لمن يخرج من العدم ، فيجب صرفها فى العمل والفرجة والاطلاع على ما يمكن الاطلاع عليه من آفاقها .

و لامفر من تحويل عبقرية الفكر الى عبقرية القلب والخلق والجسم. فالعلم والفن يجب صقل النفس بهما ، واشراب الجسم اياهما ، واخراجه على مقتضاهما ، بحيث لا تتخلف حياة النفس والجسم وقواه وحركاته عن المدى الذى وصل اليه الفكر ، وبحيث لا يتخلف ما فى الشارع والحقل عما فى مدارس الفنون والعلوم والتجارة والزراعة وما اليها ، حتى تكون حياة الجماعة صورة ومظهرا صادقا لحياة الجامعات والأندية الثقافية ، ولا يكون فى الأمة مفارقات ومناقضات بين حياة الفكر وحياة الواقع .

ولا مفر من حمل كل انسان على أن يدرك نفسه ، ويستغرق فى التفكير فى حياته وحياة الانسانية ، ويتيقظ لتلك القوة والقدرة التى تتسلط بها الانسانية على القوى العمياء الجبارة وتسخرها فى خدمتها .

* * *

وما الانسان بدون يقظة للمعنى الفائق والروح السامى الذى فى حياته الا جسد يختلج ويضطرب فى ذهول وبلادة ، ويحيا هكذا حياة مغناطيسية آلية .

ولكى ندرك جرائر التاريخ على العقول ، وأثره فى تدليس الحاضر وافساده وتزوير النفوس ، سأعيد عليك حديث صورة لا تجهلها عن طرق دراسته على ألسنة العجائز وفى المدارس ومجالس القصص :

يتفتح عقل الناشىء منا فتلقنه عجائز بيته ، وشيوخ قومه ، ومعلمو مدرسته : تاريخ قوميته ، وتاريخ الانسانية بأغلاطه ونقائصه ، ومحاولات العصور القاصرة فى فهم الحياة ، وجهاد الانسانية فى شق طريقها الأول بين الصخور والمتاهات والعقبات ؛ فما يكاد عقل الناشىء يصل الى دور الحكم والموازنة ، حتى يكون قد تطبع بما وعى ، وأصابه ثقل التخمة ، وحيرة الامتلاء والتبلبل .

ذلك لأن التاريخ لا يدرس على انه محاولات أولية من الانسان ، فيها أخطاء كثيرة ، فيجب الحكم عليها حكم دور الرشد على دور القصور ، ولكنه يدرس وعليه طابع التقديس والاعجاب بالأقدمين والاعتزاز بهم فى مغالاة وتعصب ، وبخاصة تاريخ القوميات والجنسيات .

وكان من كبرى نتائج ذلك ، أن عاش كثير من الماضى السىء فى الحاضر . بل وجدنا جماعات تفر من الحاضر لتعيش فى الماضى وترى أنه كان الحياة .. ! وتمدح الناس بما فعلت الجدود وقالوا انا على آثارهم مقتدون .

فلم يفتح أبناء العصور المختلفة عيونهم على حياتهم فى زمانهم ، بل فتحوها على الماضى وعاشوا به فى الحاضر ، وظهر أثر ذلك فى الافتتان بهوامش الحياة ؛ والعكوف على دراسة سطوحها ، وترك دراسة أصولها وعلومها النفسية الطبيعية والتجريبية التى تبقى لها نتائج دائمة تسلم الى نتائج أخرى فى سلم الترقى والتطور .

وقد لاقى أكثر الناس الحياة بطباع مدلسة ليست بنت زمانها ، وانما هى بنت الماضى السحيق ، وحملوا معهم فى رحلة العصور خرافات ووثنيات وسخافات احتفظوا بها ، حتى فى القرن العشرين ، ووضعوها حواجز وعوائق فى طريق الحياة الحديثة ذات المعجزات والنبوات الدائمة التى لا تحتمل جدلا أو مخرقة .

وكان من نتائج ذلك أن وجد المصلحون فى كل عصر ركاما من الغباوات والجهالات توضع فى طريق دعواتهم الى الاصلاح والعلم وفتوح الذكاء ونور البصيرة ..

* * *

ليس قبيحا جدا بالطفل أن يعترك مع اخوته على شىء يريده لنفسه ويريدونه لأنفسهم ، فيتصايحوا ويتضاربوا ويحطموا ما أمامهم ؛ لأن الطفل يعيش بالغرائز ، فهو أنانى ضيق التفكير ، لا يدرى أن أباه يملك الكثير ، ولا يفهم فضيلة الايثار الا بعد التمييز والتدريب .

ولكن ما بال الأمم التى رأت خيرات الله تملأ فجاج الأرض ، تتقاتل على البحر الزاخر والحقول المرعة والجو الواسع ؟ ان ذلك من أخلاق الطفولة ، وضيق آفاقها ، وتحكم الغرائز فى حياتها . وهذه صفات وجدت لها فى مخلفات التاريخ مبررات وحججا وتأريثا !

ومن العجائب أنهم يدمرون ما يسعون اليه من الغنى والثروة حين تثور غرائزهم ! وان الحقد والشره والطمع لتستنفد وتهلك من مال الأمم الأثرة الجشعة ، ومن بذلها الدم الفياض ، مالا يمكن للخير والسلام والاحسان والتعاطف والتفاهم أن يستهلكه أو يستهلك عشر معشاره ! !

ونظرة واحدة الى النفقات اليومية للأمم المتحاربة الآن تكفى فى البرهنة على هذا ، وعلى ان الانسانية ما دامت مصروفة عن طاعة الحق والعدالة والحسنى ، الى تحكيم الغرائز الدنيا والانحدار فى مجرى التاريخ ، فسوف تظل هكذا تعمر لتدمر ، وتعلم لتجهل ، وتتقدم لتتأخر .

وكأن المقصود بحياة الانسان ، اذا استمر على هذا ، هو تحقيق مشتهيات الغرائز ، واظهار عبقريات النفس البشرية فى التخريب بعد التكوين : فهى طورا تبنى وتعيش فى صفات البناء وأخلاقه ، وطورا تهدم وتعيش فى أخلاق الهدم وصفاته ، لتدرك معالم الضدين المتقابلين الأبديين : الخير والشر ...

ولكن ان صح هذا كتعليل لحياة الشر فى الماضى ، حين كانت الحياة محتاجة الى دوافع الغرائز لتدريب الانسان فى طفولته على ما تهيئه له الأقدار فى مستقبله ، ولحمله على الاقتحام والكشف وتفتيق الحيلة ، وحين كانت نتائج ثورات غرائزه محدودة ضيقة لا تتعدى أضرارها الى هدم أصول الحياة ، وتحطيم أسس الاجتماع ومخلفات الانسانية ذات الحرمات والقيم التى لها اعتبارها ، كما هى الحال الآن فى نتائج هـذه الحرب .. فلن يصح الآن هذا التعليل بعد أن صار قتال الانسان كقتال الآلهة لا كخصام الأطفال !

وقتـال الآلهـة — لو كان هنـاك آلهة الا الله — تخريب لأصـول الحياة ، وسحق لبراعمها ومناطق نموها . وهم يعلمون بالطبع طرق التسلل اليها والاطباق عليها ؛ لأنهم — فرضا — خالقـوها وواضعو أسرارها ..

فلنوحد الانسانية بعد أن صار لها قوة الآلهة فى التخريب ، كمـا وحدنا الأرباب !

ولنعل بأرواحها وأفكارها عن مستوى بنات الطين والتراب ، من كل ذات ظفر وناب !

- ٣ -

في أصول الاجتماع والسياسة والاقتصاد

عقيدة النوع

قلوب الامهات ــ حدود النوع ــ الاحساس بالمجتمع فى الذات ــ فى الدورة الصغرى ــ للدورة الكبرى ــ جوهر واحد فى ألوان مختلفة ــ منطقة التلاقى والاتفاق ــ سدود العامية تنهار .

يدين الانســـان السوى فى أعماق نفسه بشعور الاحســـاس بالنوع البشرى ، وبوحدته معه وفنائه فيه ، وخدمة أفراده ومجموعه وأهــدافه العليا .

وفى ضمائر بعض الناس أغوار عميقة رحبة فى حبها الانسانية وشعورها بها وبوحدتها معها ، كأنها قلوب الأمهات فى شعورها بأبنائها ..

لا شك أن هذه القلوب تستمد من فيوض رب الرحمة والعون والحب! ولا شك أن ضمائرها تتلقى من ضميره تعالى وتنظر اليه دائما ...

ولن أستطيع أن أفسر التضحية الكاملة والغيرية والايثار العجيب ، تلك الصفات التى نجدها فى قلوب خدام الانسانية وآبائها وروادها ، الا اذا قلت ان يد الله تعمل فى هذه القلوب ، وتتصل عن طريقها بخدمة الحياة وحفظ لبابها ، وتعمل أعمالها العظيمة للاصلاح عن سبيلها .

والا فما هذا الشعور العميق عند هؤلاء بالفناء فى خدمة النوع ؟ ! انه من عالم غير أرضى ..

والا فما هى العدالة التى رضى البشر جميعهم الدعوة اليها منطلقة من تلك القلوب ، ولهجوا باسمها ، وطالبوا باقامة الدول والمجموعات البشرية والعلاقات الدولية على أسسها ؟ انها ان لم تكن مستمدة من عدالة الكون ، فما هى الا لفظ كعلبة فارغة يملؤها كل حاكم قوى بما يهوى .

ان هذه القلوب ذات العمق والاتساع ، تشعر شعورا أكيدا أن كل

ظلم أو فساد يقع على انسان أو مرفق من المرافق الصالحة لحياة الانسان ، انما هو واقع عليها بالذات ، وتحس لسعة الأفعى كلما أصاب الأفراد أو المجموع ظلم أو فساد .

لا شك أن الله تعالى خلق هذا النوع من القلوب لحفظ المجتمع القاصر وارشاده ، كما خلق غرائز الأمومة والأبوة لحفظ الطفولة وارشادها .

ودائما يشعر هذا الصنف من الناس أن حدوده مع الله تعالى تكون حيث حدود الآخرين ، وأن منطقة متاخمة ذاته لذواتهم يقف عليها حارس يقظ ، هو ذلك الذى يسمونه الضمير ، ومعه جرس التنبيه ، تدقه يد الله من داخل النفس ، فلا يسمع رنينه الا حامله ... وهو حارس حريص على أن يرفع صوته دائما ، سواء استجيب له أم لم يستجب .

وحيث تتنادى أكثر ضمائر الانسانية وتتقابل أصواتها على شىء ما فثم حدود النوع كما أقامها الله !

والانسان الاجتماعى ينبغى أن تكون له عقلية وشعور وآمال تغاير ما يكون للفرد الآبد المتفرد مغايرة تامة . وليس الأمر فى الانتساب الى جماعة والعيش معها أمر عنوان أو رابطة ظاهرية ، وانما هو أمر عميق فى النفس ، لا أمر خوف من الانتقادات ، أو قوانين العقوبات .. هو أمر احساس بالذات فى مجتمعها ، أو بالأحرى أمر احساس بالمجتمع فى الذات ! وكل مصائب الاجتماع ناشئة من ترك أدوار النمو فى الفرد بدون رقابة وتعهد رشيد يسهر على انبات النفوس نباتا اجتماعيا مسالما ، لانموا شيطانيا طاغيا . وان حياة الجماعة يجب أن تخضد الأشواك فى أعواد الأفراد ، وتجمع تلك الأعواد كما تجمع طاقة الزهر فى تنسيق وتصنيف لا تختلط معه أشواكها الحادة المشرعة بأوراقها الرقيقة الحريرية فتمزقها تمزيقا ، وتعكس المطلوب من جمال منظرها مجتمعة ، الى قبح منظرها مجتمعة ممزقة ..

أجل ، ان براثن الناس وأنيابهم فى الأمم المنحطة التى لا تزال الفردية والأنانية متغلغلة فيها ، تمزق وجوههم وتقطع روابطهم ، فتبدو حياة

اجتماعهم قبيحة الظواهر قبيحة البواطن ، ويشعر حينئذ الانسان الحر العامر القلب بالمعانى السامية ، أنحياة التفرد والعزلة أجمل وأكمال وادعى الى راحة الفكر ، وصيانة أمانات الحياة فى النفس .

والنـــاس لا يزالون فى دورتهم الصغرى حـــول نفوسهم وذواتهم وقومياتهم . لا يزالون محكومين بأنانيتهم ورغباتهم الخاصة ، كما يحكم الأطفال بغرائزهم الدنيا وحدها . أما دورتهم الكبرى كنوع عظيم يعمر الأرض ويثيرها ويسخرها مسددا الى هدف واحد ، فتلك لمـا يشعروا بها بعد .. مع أنها من الغايات العظمى لخلقهم .

اننى أشعر أنه يجب أن نسقط الأنانية الوطنية والقوميـــة الآن من حسابنا حين نتحدث فى شأن الايمـــان بالنوع ، وأن ننظر الى الانسانية الواحدة من أزلها الى حاضرها ، ونتخيل مستقبلها ، لنراه وحدة جامعة تسير فى دورة كبرى بخطى مطردة فى طريق تعلو وتسمو .

وقد أخذت كل أمة تقريبا دورها التاريخى فى حمـــل الشعلة على طريقتها الخاصة ، حتى ضعفت يدها عن حملها فتسلمتها أخرى ، ثم وصلت الحال الآن الى أن الأمم جميعها توشك أن ترفع بأيديها مجتمعة شعلة الحضارة .

واننا حين نجـــرد الأشخاص الانسانية من جلودها الملونة وألسنتها المختلفة ، نجد جوهرا واحدا فى قلوبها وعقولها ؛ فالعواطف الشريفـة والنوازع الخسيسة واحدة فى الجميع ، والاستجابة لحجج الحق والعدل واحدة فى عقول الجميع .

وفى كل مكان وجدنا زرعا انســـانيا متشابها فى طباعه واجتماعه على المعانى الكلية التى تنظم حياته ، وفى تلبيته لدواعى العلم والدين والجـد واللعب والحياة والمجد . وما وجد فى مقادير ذلك من تفاوت ، فهو لا يضير وحدته ، ولا يمنع الاعتقاد بأنه من بذرة واحدة .

نعم ان الله بذر بذور النوع الانسانى فى بقاع الأرض المختلفـة الطبيعة ، وجعلها تنبت متباعدة فى عهد طويل ، حتى تكونت الانسانية الحالية منوعة الظواهر بفعل الأمكنة والتربية واختلاف اللغات ، وتنوعت أفكارها تبعا لذلك .

فمن أراد بعد ذلك أن يمحو آثار ذلك كله ، فهو جاهـــل خائب .
ولكنه يستطيع أن يجمعها على صفاتها الكلية المشتركة وجوهرها الواحد ، ويقيم حياتها السياسية والاقتصادية على العدالة التى تدركها عقولهـــا وضمائرها جميعا ،ثم يترك أمر تفرقها فى الفرعيات بدون محاولات .

فالناس لا يمكن جعلهم أمة واحدة فى غير العدالة والمجال السياسى والاقتصادى ، لأن غير ذلك مناقض لقوانين الفطرة فى اختلاف النـــاس اختلافا كبيرا فى الأمزجة واللغـــات والألوان وسائر الفرعيات ؛ اذ أن خالقهم أراد تمايزهم وتنوعهم هكذا ليتعارفوا ، وتكثر معانى المعرفة بينهم تبعا لكثرة التفرع والتغاير والتميز والاختلاف ، ولأنه نوعهم كما ينوع البستانى الحاذق الثمار والأزهار ، فذلك أجمل وأوقع ، وأدعى للتنشيط وكثرة المعلومات والأذواق .. أما التوحيد السياسى والاقتصادى فى نطاق واسع مشترك ملحوظ فيه حق كل وواجباته ، ســـواء أكانت « الوحدة » فى ذلك النطاق الفرد أم الأمة ، فذلك ممكن ما دام مدعما بوسائل القوة والسرعة والاخضاع للتنظيم ، واحترام السلامة الاجماعية ، واشتراك الجميع فى اخضاع الثائر على نظام الجميع .

ومهما فعلت « العامية » فى نفوس الساسة المتخلفين عن ادراك هذه الحقائق السامية فى حياة النوع ، والقاعدين عن الوصول الى قمة الفكر والخلق ، الذين يأبون أن يعترفوا بما توحى به حقائق العلم والايمـــان وسير الزمان ، ويقيمون الحدود المصطنعة بين جوهر القلوب والأفكار التى وحدها الله ، ويجعلون الفروق السطحية موانع وعقبات كأداء لايمكن اجتيازها — مهما كان من ذلك ، فان السيل الجارف والتيار الدافق النابع من عالم الفكر الانســـانى والضمير الواحد ، سوف يجتاح ما أقاموا من سدود ويدمر ما صنعوا

* * *

وقد انبثقت البثوق فى تلك السدود ، واتسعت الثغرات بما قدمتـــه الكهرباء الساحرة ، والأثير الجامع ، والعلم ذو الطبيعة الواحدة الموضوعية

وبما قدمته الحروب القديمة والحديثة من مزج الدماء ، حتى يخرج منها لون جديد تراه بصائر الأبناء بعد هلاك الآباء !

وان أحـداث القوة والدم ، وفتـوحات الروح والعلم ، هى التى تستطيع دائما أن تجعل دائرة الجوهر الانسانى الواحد أساسا مشتركا لتلاقى الضمير الواحد للأمم والأفراد ، على استنكار جرائم القوة والدم ، والاستكثار من فتوحات الروح والعلم .

النقص والتكامل

الانسانية الواحدة ـ أدوار نمو الانسانية هي أدوار نمو الفرد ـ من وحي الحرب العصرية ـ مقدمات الوحدة ـ عصر القبيلة الأممي ـ الاقدار تفصل الجسم الواحد ـ دفع وهم ـ الخميرة في أمريكا ـ أم مجنونة وبنت عاقلة ـ من توحيد الارباب الى توحيد الانسان ـ لاحياة مع هذه الحرب ـ قيامة صناعية ـ سلم طويلة من حرب خاطفة ـ المبضع من السيف ـ دم الحرب دم مخاض ـ معان تبقى من أمم تفنى .

ألمس فى نفسى ، وفى كل فرد عرفته مهما كان عظيما ، نقصا أجد تكميله عند غيرى وغيره . وهذا مما يؤكد فى فكرى أولا أن الناس جسم واحد يكمل بعضه بعضا ، ولا يستقل عضو منه بحياته الا ظهر مبتورا ناقصا . وكماله وجماله فى أن يتضام الى غيره ، ويتعاون ويصبر على مضايقة ذلك الغير حتى يستطيع ادراك الكمال الميسور .

وكذلك ألمس فى كل أمة نقصا أجد تكميله لدى غيرها من الأمم . وهذا مما يؤكد فى فكرى ثانيا أن الأمم فى المجموعة البشرية ، كالأفراد فى مجموع الأمة الواحدة ، كل منها لها ميزة تكمل غيرها ، وفيها نقص يكمله غيرها .

فالفرد الكامل الذى يستطيع أن يحيا وحده لم يخلق بعد ولن يخلق . والأمة الكاملة التى تستطيع أن تحيا وحدها لم تخلق كذلك ولن تخلق .

تلك حقيقة توحى الينا الايمان بالانسانية الواحدة ، وتحتم علينا أن نتناسى مواريث الوحشية القديمة والعصبيات الأولى ، وأن نفكر للحياة الواحدة المستقبلة التى يصح أن تنتظم الانسانية جميعها ، بعد أن ذهب عنها دور الطفولة التى كانت فيها حدود الأرض ومعارفها مجهولة ، ومواردها وأرزاقها محدودة .

ويعظم فى نفسى يوما بعد يوم وجه الشبه بين سير الحيـاة بالفرد الواحد من طفولته الى رشده الى شبابه الى كهولته ، وبين سير الحياة بالانسانية جميعها من طفولتها الى شبابها الى كهولتها .

وانى أكاد أجزم أن خطوات سير الحياة بالانسانية كلها ، هى خطوات سيرها بالفرد الواحد . وكل من يتفرس فى الحياة الاجتماعية يجدها وحياة الفرد سواء فى تدرجها من الغرائز والعواطف الى الرشد والعقل .

وكما يحصل للطفل والشاب أن يغضب كثيرا ، ويكون أنانيا فرديا فى حاجاته ، ويحطم ما أمامه ولا يبالى النتائج ، كذلك الانسـانية فى دور طفولتها : أنانية غضوب تحطم كل شىء فى سبيل منفعتها الضيقة .

ولكن كما تمنع التربية وضبط الأعصاب وفعل الزمن الرجولة من أن ترتد الى أساليب الأطفال وغرائزهم ، وتحبسـها عن الغضب والتحطيم — الا اذا امتدت فيها حياة الطفولة ، للشذوذ أو عدم تقدير النتائج — كذلك الانسانية لابد أن تصل الى هذه المرحلة فى يوم ما قريب أو بعيد .

يوحى الى ذلك ، ما أراه فى الحرب الحالية من عنف التحطيم وشدة البأس ، وجنون الانسانية ، وقسوة الآلة ، بحيث لايمكن مطلقا أن تحتمل الحياة بعد هذه الحرب ، اذا لم تقمع الغرائز والحماقات التى أثارتها ، واذا لم يوضع أساس حياة مشتركة للانسـانية الواحدة التى ابتـدأت وحدتها تبدو وتستعلن فى هذه المجموعات الكبيرة من الأمم ، وهـذه الرباطات الوثيقة بينها ، ومن اختزال المسافات والأبعاد واشتباك المصالح ، واشتراك مناهج الدراسة والثقافة العامة ، ومن معرفة كل جنس بخصائص كل جنس ، ومن الدراسات المنظمة ، والمؤتمرات الجامعة ، والجمعيات العالمية ، ومن كثرة الأسفار وامتزاج الطبائع ، واختلاط الأجناس ، وتفكير أرباب التجارات والأعمال فى الأسواق العالمية ، ومن تبادل تعلم اللغات والأغانى والملاهى وأدوات الزينة ، ومن « الصندوق السحرى » : الراديو الذى سيصوغ حواس الطفولة وقلوبها غير صياغة قلوب الآباء الذين نشأوا محجوزين ، محجوبا بعضهم عن بعض بالسدود والحدود والتخوم ،

ومن « السبورة السحرية » : السينما التى تنقل الدنيا وناس الدنيا ، وتعرض الجميع على أنظار الجميع فى حجرة ضيقة .

* * *

يصح أن نسمى عصرنا الحاضر « عصر القبيلة الأممى » . والانسانية كلها الآن تمر به كما مرت كل أمة بعصر القبيلة . واشتداد التناحر بين مجموعات الأمم المختلفة فى هذا العصر ، هو صورة مما كان يحدث بين القبائل فى الأمة الواحدة .

ولم يحمل القبائل المتعادية فى القديم على الصلح الدائم والاندماج والوحدة الشعبية ، الا ما كان بينها من حروب وتخريب وتعطيل للحياة . فلما رأت أنه لا حياة مع الحرية الكاملة والوحشية المطلقة ، تنازلت كل قبيلة عن بعض حقوقها وحرياتها ، ورضوا ذلك ، اما بضغط الأقوى الأعدل ، واما بالادراك الصحيح للموقف ومراعاة مقتضيات الحياة .

وكذلك كان الأمر فى تكوين الأمبراطوريات المختلفة : حروب ونزاع مستمر ، وتخريب للمالك والملوك ، ثم اتفاق أخير ونزول من الجانبين عن بعض المصالح فى سبيل المصلحة التى لا غنى عنها للجميع .

وكذلك تكون الاتحاد السوفييتى ، والولايات المتحدة الأمريكية من جنسيات وأديان ومذاهب مختلفة ، بعد حروب ونزاع دمر حياتهم فى بعض مراحل تاريخهم .

وكذلك وجدت البذرة التى لابد أن تنمو بعد هذه الحرب : وهى بذرة « عصبة الأمم » التى سيحافظ الغالب والمغلوب فى هذه الحرب على ايجادها وجودا فعالا مسلحا (١) ، لا وجودا صوريا كالذى كان عقب الحرب الماضية .

---

(١) تحرر هذا للطبع مصادفة فى ٢٨ ابريل سنة ١٩٤٥ (بعد أن نشرناه فى ٢٨ ابريل سنة ١٩٤١) ومؤتمر « سان فرنسيسكو » مجتمع لتكوين « مجلس الامن الدولى » المستند الى قوة عالمية . وفى قلوب الانسانية التى دمرتها الالام صلاة حارة ان ينجح الله هذا الامل العظيم ، وأن يوفق الجميع للاخلاص فيه وتجنب أسباب انهياره .

وعندى يقين غالب ، أن الأقدار تفصل الآن بالحديد والنـــار جسم الانسانية الواحدة ، ذات الحكومة الواحـــدة ، كما فصلت جسم كل امبراطورية على حدة ، كما فصلت جسم كل أمة على حدة ، كما فصلت جسم كل قبيلة على حدة ، كما فصلت كل أسرة على حدة ، كما فصلت كل جسم على حدة ، كما فصلت كل عضو على حدة ، كما فصلت كل خلية على حدة .. !

هو قانون واحد ينتظم الكون كله ! قانون الجزىء والذرة هو قانون المجاميع .. واللقاح السياسى واللغوى والعلمى والاقتصادى فى المجموعات الكبرى والأمبراطوريات واتحاد الولايات ، هو الوسيلة الى ذلك الأمل المنشـــود .

ولا يتوهمن واهم أننى أزعم أن الخلاف سيذهب من الأرض .. كلا . وانما سيبقى كما هو ، فى حدود الدولة ، بين الأحزاب والآراء والمذاهب الاجتماعية ، وكما هو بين الأسرة الواحدة وكما هو بين القوى المتنازعة فى الفرد الواحد : بين العقل والعاطفة والغريزة ، لأن الدفع قانون طبيعى كقانون الجذب ، ولكنه دفع لا يفلت من قانون القوة والقهر ، كما هو الحال فى الدولة الواحدة القوية التى لا يفلت منها من يريد الخروج عليها.

ان نفوس الأمم وطبائعها تتغير تغيرا سريعا من التمايز الى الاندماج والاتحاد السياسى . فلم يبق فى الولايات المتحدة نعرات أجناس الا ما بين البيض والملونين ــ وهو نزاع خارج على القانون والدســـتور ــ وانما صارت كتلة سياسية واجتماعية واحدة بمرور جيل أو جيلين ، وبتوحيد اللغة العامة .

والولايات المتحدة « خميرة » للحياة الانسانية المقصودة . هى نموذج ناقص ،ولكنه أقرب الى الكمال من غيره ، وكان من الواجب أن يحذو العالم القديم حذو هذا العالم الجديد السعيد ، ويترك مواريث التاريخ السيئة ، وعصبيات الأجناس ونعراتها ، ويتفق على الحد الوسيط الذى يرضى الجميع ، مع التضحية ببعض الاعتبارات والحريات .

أوربا ولدت أمريكا . والبنت هنا أعقل من أمها وأسعد ! فلا تزال القارة العجوز تحتفظ بأحقادها القديمة ، ومواريث تاريخها السيء فى عالم الحسد والبغض والخديعة والبطش والتنازع . ولا تزال تشقى الأرض كلها معها . بينما أمريكا تسعدها وتجدد الحياة يوما بعد يوم ، وتنثر الأفراح والمباهج فى كل مكان .

لقد برئت أمريكا فترة من الزمن من حب الاستعمار والتنازع عليه ، فبرئت من السعار الذى يصاحبه ، وبرئت من الصفات الذميمة التى تصاحب خلق الافتراس . وصارت حبيبة الى جميع أمم الأرض .

اتخذت حينئذ الطريق المشروع الى الغنى والثروة ، وهو طريق التجارة والمنافسة المحمودة واستغلال الموارد الطبيعية ، لا طريق الغصب والغلاب ، فأخذت تجمع من هذه الطرق المشروعة وتعيش بما تجمع ، وتوزع منه على مؤسسات البر والعلم فى بقاع الأرض ، ثم لا تفجع فيما تجمع ، ولا تحترق وتدمر معه كما جرى لأمم أوربا .

وتورطها فى الحرب الماضية والحالية انما كان لتأمين هذه الطرق المشروعة ، وللدفاع عن أقرب الناس الى عقائدها فى الحياة (١) .

* * *

لقد خطا الانسان بادراكه عقيدةتوحيد الله : خطوته العظمى الىالكمال العقلى والقلبى ، حين رأى أن العالم كله يساق بيد واحدة ، وتوزن أموره بميزان رب واحد ، فيجب أن يتجه بقلبه اليه وحده .

وسيخطو خطوته العملية والعلمية العظمى ، حين يدرك « الانسانية الواحدة » ويؤمن بها . وكما حلت عقيدة توحيد الاله مشكلات الاعتقاد ،

---

(١) يلحظ القارىء ان ما كتب فى هذا الكتاب عن الولايات المتحدة الامريكية من حسن ظن بها كان بدافع مما ساد حياتها قبل الاربعينات والخمسينات والستينات من هذا القرن . أما فى هذه العقود المذكورة ، فان شيطان الصهيونية وشيطان الاستعمار الجديد قد ظهر أنهما قد ارتدا بها الى تكسة فظيعة توشك أن تقضى على آمال الانسانية فيها ، اذا لم تتداركها بطولة كبطولة (واشنطون) أو (لنكولن) .

ووجهت الحياة وجهة واحدة ، بعد أن كانت موزعة على أرباب متفرقين .
كذلك سيحل الايمان بوحدة الانسانية مشاكل وعقدا مستعصية ، وتتجه به الأمم وجهة واحـدة ، هى وجهة الخير المشترك ، بدل الخير المتفرق الضيق الأنانى ، ووجهة العلم البانى المعمر ، بدل العلم المخرب المدمر .

لقد كان منطق الفرقة والتنازع العنيف بين الناس معقولا فى الأزمنة الماضية التى كان بين الأمم فيها حواجز سميكة من الجهالة والأسـفار الطويلة واللغات المجهولة ، والثقافات المختلفة الى حد التناقض ، وانحطاط الأهداف ، وكان دور تحكيم الغرائز مقبولا لحمل ذلك الانسان الجاهل على التسابق العنيف الى كشف بقاع الأرض المجهولة ، لا للذة العلم وسمو المعرفة ، وانما لمنافعها المادية الضائعة ، اذ لم يكن له علم وعقـل يغنيانه عن الغريزة . وكان الاختلاف الحاد بين الناس متمشيا مع منطق أحوالهم حينذاك ، لأنه لم يكن هناك أفق عقلى أو علمى أو عملى مشترك بين أمة وأمة متجاورتين ، بله المتبـاعدتين ، ولم تكن الظروف لتسمح بوجود ذلك الأفق المشترك الا عن طريق الحرب التى كادت تكون الوسيلة الوحيدة للاختلاط بين المتفرقين ، والتعارف بين المتجاهلين ..

أما الآن فقد صار هذا التفرق والتنـازع ضارا بالجميع ، قاطعـا للعلاقات التى تنمو فى وقت السلم نموا عظيما غزيرا لم يكن له مثيل فى العصور الأولى ، وصارت العودة الى تحكيم الغرائز ارتدادا وانتكاسا فى الحياة كانتكاس الرجل الحليم الى غضب الطفولة الذميم ، اذ قد صار فى يد الانسان من أدوات الهلاك والدمار أشياء فظيعة تهدم الحياة من أساسها ، وتسحق براعم نموها ، وتجعل العمل للحياة والسعى لها فى وقت السلم ، عبثا لا طائل تحته ، ما دامت الحرب تأتى بعد ذلك لتأكل الأخضر واليابس ولا تبقى ولا تذر .

وقد ثبت الآن أن كل ما يصل اليه العلم من أدوات السيطرة والتغلب على قوى الطبيعة ، وأدوات ترف الحياة ومباهجها ، يتحول الى أدوات دمار وابادة اذا ما ثارت بالأمم ثورة الحرب وبراكين الحقد الدفين .

فلا أمان على الحياة من شيء مع غضب الانسان . وقد عاد شعار الجاهلية القديم الذى كان يهتف به المحاربون القدماء ، وهو تلك الصيحة : يا منصور أمت !

وكانت الأديان والأخلاق قد جعلت للحرب فى العصور المتوسطة قوانين فيها بقيا على مناطق نمو الحياة ، وفيها ذكرى الود القديم والدم والنسب وصلة العلم والفن والعمران ، وكانت الحرب تجد فى وقت احتدامها ما يخفف آلامها من نبل الفروسية ، ورحمة القادرين ، ووصايا القواد بالضعفاء والمرضى والشيوخ والأطفال والنساء والحرث والنسل :

اذا احتربت يوما ففاضت دماؤها   تذكرت القربى ففاضت دموعها !

أما الآن فاذا بطشوا بطشوا جبارين ! لا يذكرون طفولة ولا شيخوخة ولا مخلفات فنون وعلوم وآثار ثمينة ، هى ملك الانسانية جميعها .

ومن كان يظن أن الانسان الأوروبى العالم الفنان الذى فتنته أحاسيس الحياة وجن بها جنونا ، فعبدها فى الزهور والرياحين والحب والألحان والعناية بالطفولة ، واقتنى التحف والمخلفات الأثرية من الجماجم والعظام والأحجار والخرزات ، ولم يدخر فى سبيلها مالا ، وجمع مجموعات النبات والحيوان ، وحرص على استخراج كنوز الأرض ، والتقى على صفاء فى المجامع العلمية والأدبية والملاعب الرياضية والمؤتمرات العالمية ، وتبادل تعلم اللغات ، وسكن جميع بقاع الأرض ، وعرف آلام الأجسام والأرواح ، وأنفق الأموال الطائلة على نبش الأرض ليستخرج منها حلقة مفقودة تنير له تاريخ الانسانية التى يعتز بها ... من كان يظن أن من فعل كل أولئك يجرؤ على أن يهدم حاضر الانسانية بكل ما حمل فى طياته من الماضى ، ولا يبالى أن يزهق الانسان ومدنه وكل ما حمله عقله وقلبه !!

فأين عالم الدفاتر والمحابر والمنابر والمؤتمرات والمجامع والمعاهد والمعابد ؟ أين عالم العقول والقلوب ؟ أين الشعر والفن والرحمة والحب والجمال والخير ؟ أين المعانى التى سجلها الدين والأدب عن الآلام ، ودارت عليها فلسفات وقصص ومسرحيات ؟ أين مؤسسات الرفق

بالحيوان ؟ أين كل « الدراما » و « التراجيدى » التى كانوا بها يبكون فى المسارح على آلام الانسانية ؟ !

أكانت ملاهى وملاعب لا أكثر ؟ يا لها اذن من خديعة عبقرية !

ولكن هـذه هى الحرب العصرية : صـورة مصـغرة من أهوال « القيامة » .. بل القيامة ساعة ثم تنقضى الحياة ويستريح الناس بالموت الى حين .. ولكن الحرب العصرية « قيامات » لا عدد لها . بها يموت الناس ويبعثون ، ثم يموتون ويبعثون ، كلما شنت عليهم غارة جوية الى أن تضع الحرب أوزارها .

فيا بنى الحياة ! أى حياة هذه ! ؟

ان الله أرحم بالناس من أن يجعلهم لمثل هذه الحياة . والناس أرحم بأنفسهم من أن يحيوا مثلها . انها مرحلة لابد منها فى طريق الانسـانية الشقية الى الاستقرار والراحة واللقـاء الذى لابد منه بعـد الافتراق والتقلقل .

ومن بين ظلمات هذه الحرب الخاطفة السريعة يلمع نور السلام البطىء الطويل ..

ومن بين نيرانها وزلازلها وبراكينها يبدو بردالحياة وثباتها واستقرارها.

ومن بين قسوة القلوب فيها ، بقسوة الآلات والمدمرات تلوح عواطف الرحمة والحب .

لقد كان من نتائج الحروب الكبرى دائما ابتداء دورة زمنية بالانسان وانقلاب فى أوضاع الحياة . والذين عاشوا قبل الحرب العظمى الماضية وبعدها يدركون الفرق الشاسع بين الحياتين .

هذه السرعة التى فى آلات الحرب ستكون فى آلات السلم مضاعفة وكما استحال سيف الحرب الى مبضع للطب ، ستستحيل جميع آلات الدمار الى آلات انتاج وتعمير ورفاهية وهدم للسدود والعقبات فى طريق تعمير الحياة .

ولا شك أن تشبيه الحرب بحادث المخاض والولادة تشبيه صحيح

من كل وجه .. فكل حرب تلد مولودا من الطباع والأوضاع والأفكار والآلات والمرافق .. مولودا يجدد الحياة ويقذف فى شعلتها حطبا !

ولا ضير فيما يصحب ذلك من الألم والدم والهزة والخوف ، فكل هذه أعراض تصحب حادث الولادة فى حياة الانسان .

ولن تضيع سدى تلك الأرواح التى ذهبت قرابين للمعانى السامية فى قلوب الأمم المحاربة لاقرار الحرية والحق والسلام ، وانما هى لبنات فى البناء الخفى للوجود الانسانى .. وانها كلها حية تنظر الى عراك الجماعات فى عالم الظواهر كعراك ذرات تحملها الريح ، أو حصى يحمله ماء السيل حتى تبلغ مكانها المرصود فى بناء الوجود .

وسواء أوضع حجر فى خفاء الأساس ، أم رفع فى علانية القمة ، فالكل بناء واحد .

وتبلغنا أنباء انكسار أمة وانتصار أخرى فلا نلتفت الى الأفراد فيها ، وانما يعلو عنوانها أو ينخفض ، وهى صورة موحدة ليس فيها توزيع ، فتفرح كلها بالانتصار ، ولو باد فى سبيله كثيرون ، وتستاء كلها بالانهزام ولو انتصر فيها كل فرد نصرا فرديا ، وأتى بأعمال البطولة المعجزة .

فهل لأصحابنا الفرديين الأنانيين أن ينظروا موضع الفرد من الأمة فى ضوء نار هذه الحرب ، وموضع الأمة من مجموعة الأمم التى تنتسب اليها ، حتى يتبينوا أنه لا وجود الا للمعانى العامة التى هى ملك الدولة أو الانسانية جميعها ؟

ان هذه النظرة الى المعانى الكريمة العامة تجعل الناس يحملون السلم بقلب عارف بها ، ويحاربون اذا كتبت عليهم الحرب بسيوف كمباضع الأطباء : تقطع لتشقى ، وتقتل فتحسن القتلة بدون مثلة ولا نية اثم أو جريمة ، وتجعلهم خصوما شرفاء رحماء ، يحاربون بروح رياضية كأنهم يلعبون ، وتجعل من السيوف ظللا للضعفاء والمسالمين .

وتلك نظرة الربانيين المؤمنين بالله وبالانسان : أثمن ودائع الله فى الأرض !

الـواحـد

البحيرة الكبيرة من المنبع الصغير ـ هذه الحرب من قلب واحد ـ صمامات التيارات العظمى ـ الفرد المنشود عالم معقد ـ التبادل بين الفرد الواحد والانسانية الجامعة ـ توزيع الدنيا على الافراد والافراد على الدنيا ـ من جذور الشجرة الانسانية الى ثمارها ـ لابد لحياة الشجرة من اعتراف كل جزء فيها بكل جزء

تظهر بوضوح قيمة الفرد البشرى الواحد ، ومبلغ آثار تصرفه ، فى تدبير تشرشل أو هتلر أو روزفلت أو اينونو أو ابن سعود أو ستالين أو أيزنهاور أو أمثالهم ، فان تصرف أحدهم يجر على أمته اما الحسنى والفخار ، واما السوء والدمار .

ففى أمثال هؤلاء يتبين كيف يجر فرد شعبه أو العالم وراءه فيخفضه أو يرفعه . ومعنى هذا أن الفرد البشرى ذو قيمة كبرى فى حياة الاجتماع، وأن وضعه هذا يحتم على الدولة وعلى العالم أن يحترسا دائما من سوء تصرفاته ، وما يجلبه على الاجتماع من الضر ، وأن يحفلا دائما بحسن تصرفاته وما يجلبه الى الاجتماع من النفع .

فتصرف الفرد فى الحياة الاجتماعية أشبه بتصرف ماء مستبحر من ثلم رخو على أرض منخفضة ، يبدأ ضعيفا ، ثم لا يلبث أن يتحول سيلا حدورا لا يستطاع رده .

ومهما قيل فى حكم الديمقراطية المطلقة ، والشورى الفضفاضة ، فروح الانتقال والبطولة وفتح آفاق جديدة ، تتركز غالبا فى فرد واحد ، وخصوصا عند الأزمات الخطيرة ، ويكون هذا الفرد حينئذ كموضع نبع الماء فى البحيرة التى يكونها ويكون آثاره وعظمته بها ، فموضع النبع صغير ، ولكنه هو البحيرة الكبيرة فى الواقع .

وكيف انبثق هذا الدمار فى هذه الحرب على العالم ؟ لقد انبثق من

قلب رجل واحد ملىء بالحقد والضغينة على الذين رآهم لم ينصفوا أمته . وتجمع الحقد والضغن فيه ، وانتقل منه الى أمته ، كما يتجمع القيح والصديد فى رأس « خراج » ، فيصيب جسم صاحبه بالحمى والرعدة ، ولا يمكن اندماله الا بعد التصفية النهائية .

فهل بعد هذا يحتقر بعض الأمم شئون الفرد الواحد ويتركونه مهملا زاعمين أنه لا وزن له ازاء الأمة أو العالم ؟ !

وهل قام الخير أو قام الشر الا بواحد ؟ الواحد هو أساس العدو اللانهائى .

وهكذا ، اذا أراد الله أن يتصل بالناس اتصال تغيير فى نظمهم المعاشية أو السياسية أو الدينية ، وضع يده فى قلب واحد ، وسلط منه تيارا خفيا على الجميع . فاذا كان يريد خيرا بالعالم أطلق تيار الخير من قلب رجل الخير ، واذا كان يريد نقمة وقصاصا أطلق تيار الصعق والحرق السريع أو البطىء من قلب رجل الشر .

فلنجتهد أن نجعل قلوب الأفراد مواضع ليد الله حين يريد الخير .

* * *

والعناية والمشيئة الالهية التى تخرج وجوه الناس ونفوسهم وعقولهم صورا شتى متمايزة ، مهما كثرت الأعداد ، بحيث لا يتشابه وجهان ، ولا يتماثل عقلان فى كل شىء ، حتى ولو كانا لتوأمين ، ترشدنا الى أن نرى فى كل فرد جانبا متميزا من الانسانية ، وأنه موضع عناية وقصد من مخرجه الى الوجود .

ولو فهمت الدولة قيمة القصد فى الفرد الواحد ، وخطره فى الحياة فى حالتى صلاحه وفساده ؛ ما كانت تسمح لنفسها أن تترك فردا دون أن تمر عليه بمنظار مكبر يكشف عن أدوائه ومنافعه .

فالفرد اما بؤرة ظلام ونجس وفساد متنقلة تحمل الجراثيم الفتاكة معها حيث حلت .. واما بؤرة صلاح وطهارة واشعاع تحمل وتعكس

عوامل الحياة والجمال معها حيث حلت . وشتان ما بينهما ! فكيف نهمله الدولة هذا الاهمال الشنيع وهو ما هو فى جسمها ! ؟

لو أفلت فرد شرير شيطانى من قيادتها وحراستها ، اذن : لعاث فسادا فى حرثها ونسلها وعمرانها . ولو ضـاع فرد ملكى من رعايتهـا وتعهـدها وتشجيعها ، اذن : لضاع عامل عظيم من عوامل نموها وارتقائها وسعادتها ولعل فيه ما يرفع النوع كله .

ويظن أكثر الناس أنه يكفى لانشاء « الفرد الانسـانى » أن نطرح بذرة منوية فى رحم من الأرحام ، تولد بعد مدة ، فتنمو حتى تكون ذلك الجسم المعهود الذى يملأ أسواق الحياة .. ونسوا أنهم فى انشاء شجرهم وغراسهم وحيوانهم يسلطون يقظتهم وعملهم وتعهـدهم الدائم ، حتى يحصلوا على ما يريدون من الأصناف المطلوبة المرغوبة ، وأنهم يسهرون لمحاربة الآفات التى تدنو من حرثهم وحيوانهم .

ألا ان الانسان المنشود عالم معقد ، ليس الجسم الظاهر الا وعاءه وقالبه ! اما سره ومعناه ولبابه ، كما يريد رب الحياة من « النوع » ، فأمور لا تظهر الى عالم الاجتمـاع الا اذا اجتمعت لها عوامل الحيـاة الصالحة بنسب موزونة .

وان الروح التى عنها يتحدثون ، هى نتيجة تفاعل الحياة الحيوانيـة فى الجسم مع نتائج التربية والبيئة والتعليم وجميع المؤثرات . انها كائن يكون نتيجة وجود هذه العوامل الأرضية المختلفة . وان من أدواتها ذلك اللوح الخفى السريع التأثر ، الذى ينطبع فيه ما يقع عليه أو يتخايل أمامه من المؤثرات .

فالذين يلقون « بذور » الانسان فى الأرحام ، ولاينتقونها قبل القائها، ولا يهيئون لها الجو الصالح وهى فى مستودعها ، ولا البيئة الصالحة وهى فى نشأتها ، ويتركونها هكذا تتداولها العوامل الطبيعية مصادفة ، هؤلاء ينبغى ألا ينتظروا من الحياة أن تعطيهم تلك الوحدات الانسانية المنشودة القريبة من الكمال فى صـفات نوعها .

* * *

والانسانية ملك الفرد ، والفرد ملك الانسانية . وما كان من المستطاع أن يحصل الفرد الانسانى مايحصله الآن من الأفكار والمعلومات والتجارب والأرزاق والمتاع لو أنه عاش فريدا متأبدا معتزلا حياة الاجتماع .

فنحن جميعا بازاء بحار المعانى يأخذ كل فرد منا غرفة منها يلونها فى انائه بلونه الخاص ، ثم يقدمها الى غيره من الناس . وكلما أضيف فرد الى المجموع ، زاد أفق من آفاق الحياة فى الأرض . ولن يمكن أن يحل فرد محل آخر ، فان كل ثمرة انسانية لها سر خاص لا يرى فى سواها . وانى ما جلست مجلسا مع فرد ما ، الا رأيت فيه صورة للدنيا لست أراها مع غيره .

ومن العجيب أن كل فكر يريد أن يطبع الانسانية على غراره هو ويحملها على حياة تصدق منطقه الخاص ، مع أن التوزع والتمايز بين الوحدات الانسانية قانون مطرد .

وينطوى فكر كل فرد على صورة للدنيا غير الصور التى فى أفكار الآخرين ، فكل فرد يرى الدنيا من خلال نفسه ، وكأن الأكوان عدد العقول ..

وما أعجب أن تقرأ وجوه الناس ورءوسهم ايضا انها صفحات يبدو للناظر العجلان أنها سطحية ضحلة ، ولكنها للناظر المتملى المتفرس ، تقذف به الى لا نهائية ذات أعماق .. والعيون هى مسالك تلك الأعماق !

هكذا يثير وجه كل فرد وعقله صورة من صور الدنيا . وكل فرد كأنه الحياة كلها مستقلة ، حتى ليخيل اليك أن الدنيا الانسانية تنقص بموت فرد واحد ، وأن مكانه لا يملؤه غيره ، سواء علا أم سفل علم أم جهل فتوزيع الدنيا على الأشخاص وتوزيع الأشخاص على الدنيا ، يعطى صورة فنية أو حبكة مسرحية يحشد فيها الفن الرفيع ، والاخراج البديع .

ولذلك قالت التوراة والقرآن : « أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد فى الأرض ، فكأنما قتل الناس جميعا ، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا .. » .

ومن هنا جاءت قداسة الحياة الفردية فى الشرائع ، واستنكر الاعتداء عليها استنكارا اجماعيا . وقد أعطت الانسانية الفرد حرية تخيلتها لنفسها ، واستوحتها من احساسها العام وضميرها المشترك .

* * *

والانسانية كجسم شجرة واحدة : فيها جذور لابد أن تعيش فى الطين والظلام والعفونة ، لتحلل غذاءها وتأخذه عناصر بسيطة تركب منه ما تشاء من اللباب والقشور والأزهار والثمار والعطور ، الى آخر ما فى عالم الأشجار .

وفيها سيقان لابد منها لتحمل غيرها وترفعه الى عالم الجو والضوء والنسمات .

وفيها أوراق تبلغ من الكثرة حدا كبيرا يرتفع الى مستوى الزينة ويشترك فى صميم العمل الضرورى لحياة الشجرة ، لأنها « رئات » يتنفس بها الشجر .

وفيها أزهار وهبها واهب الحياة العطر والجمال ، وأخرج فيها روحا خاصا يخيل للناس أنها ليست من عالم الطين والعفونة والتحلل والظلام .

وفيها ثمرات هى صناديق أسرار الشجرة ومستودع حياتها المقبلة ، وهى روح الشجرة ، تحمل سر نوعها من الماضى للمستقبل .

ولا مفر من اعتراف كل جزء من الشجرة بكل جزء آخر لتحيا جميعها ، ولابد أن يعلم كل جزء أنه وضع فى موضعه الرفيع أو الوضيع ، ليخدم نفسه ويخدم الجميع . والسفالة فى الموضع أو العلو فيه ، والعلانية أو الخفاء ، كلها نظرات اعتبارية فى الظاهر . والحقيقة أن نصيب العمل واحد ، والنتيجة واحدة : هى حياة الشجرة بحياة أجزائها ، وحياة الأجزاء بحياة الأم .

وينبغى آلا ينظر جزء من الشجرة لآخر نظرة حسد أو ازدراء ، وانما ينظر نظرة طاعة لليد التى وضعته فى هذا الكل ليؤدى دوره وخدمته .

ويكفى عزاء لما سفل واختفى أن حياته كثيرا ما تكون أثبت وأدوم مما علا ، ويكفى عزاء لما علا وارتفع عن سرعة فنـائه أنه أجمل وأشهر . وكلا المعنيين جدير أن يحار بينه وبين قسيمه الاختيار !

ألا اننا ممثلون نؤدى أدوارا يرسمها ويحملنا عليها مؤلف رواية الحياة ومخرجها ، بديع السموات والأرض ! فينبغى أن نعرف مواضعنا الحقيقية من الكون ، وأدوارنا فيـه ، لنؤديها على أكمـل وجه ، ثم نختفى وراء « الكواليس » الى يوم اصدار الرواية الأخرى التى سنؤديها فى المسرح الأكبر ، فى الكون الواسع !

* * *

فقط : اضمنوا لكل عامل بارع ، مهما كانت مواد عمله خسيسـة أو كريمة ، مكافأة وتكريما وتعظيما لمواهبه ، ولا تقصروا اهتمـامكم وتمجيدكم على الأجزاء الرفيعـة الملونة المزوقة من شجرة الانسـانية : كالساسة والحكام والأثرياء ومن اليهم ، من الذين خصهم المجتمع الجاهلى بالاحترام ؛ بل امنحوا وقدموا ذلك الاهتمام والتمجيد لكل عامل بارع فى عمل من أعمال الحياة الانسـانية ، تنفتح لكم أبواب من سـعادة الحياة ما كنتم تتصورون أن وراءها شيئا ذا قيمة وتأثير فى حياتكم يعادل تأثير السياسة والحكم وما اليهما .

اقضوا على تخصيص الحكام وذوى السـلطان والثراء بتعظيمكم وخشيتكم ، وانظروا لغـيرهم كذلك من العمال ولو كانوا كنـاسين ، وكرموهم كرامتهم ، فان لهم فى الدولة أثرا لابد منه كآثار « أصحاب الدولة ! »

اللؤلؤة والصدفة

رد على « نبى » النازية « نيتشه » الذى كان ايمان « هتلر » بفلسفته فى عبادة البطش والخيلاء والكبرياء أعظم سبب فى فداحة جرائم الالمان فى هذه الحرب

●●●

رحمة القبح والنقص — الفارون من الزحام — النقص هو مادة فن الضحك والتهريج — الشعور بالنقص وخدمته للحياة — عبقريات الغباء — فى سعير الذكاء — الحذر من جموح الذكاء — تبادل الفهم بين العاجزين والقادرين

مات صديقى المفكر المخلص ، المشوه الخلقة ، المحروم من الجاه والثروة ، الموهوب من الحكمة وصدق الاحساس ، فتحررت أفكاره العظيمة من شخصه الضعيف وجاهه المغمور ، وانقطعت الصلة بين الكاتب الضئيل والمكتوب العظيم ، وابتدأت كلماته تدب فيها الروح وتبرز مستعلنة بهيئتها المجردة من هلهلات ملابسه وسقم جسمه ومهانة فقره !

وكان يدرك ما يجول بخواطر الناس عنه حين يغشى مجالسهم ويحتك بهم ، من الاستصغار لشأنه ونبو البصر عنه ، فكان يجتهد أن ينأى عنهم ، ويتحرج أن يغشى مجامعهم التى يعرضون فيها أجسامهم الرشيقة وملابسهم الأنيقة ، وأحاديثهم اللبقة التى يتحدثون فيها عن أنانيتهم واختباراتهم فى علائق الطين والذهب ، وضجيج المخاصمات والمنازعات التى لا تتصل بصميم الحياة ولبابها ، ولا بقدس الفكر وحقائق العلم .

ولم يشأ أن يترك صورة لشخصه ، حتى لا يقترن وجهه — وكان دميم الخلقة — بأفكاره وميراثه الروحى ، فتذهب قباحة بزته وهيئته ، بقداسه فكره ونزاهة حكمته . وقال : أتركها كلمات يتيمة محررة من وجهى وجملة جسدى ، كما تلقيتها كلمات طليقة محررة انسربت الى فؤادى موجات عذراء ليس لها نسب الا ضمير الكون !

وكان يشعر بجسمه الناقص شعورا عميقا عصافا عصف بزهرة

صباه وضحوة شبابه ؛ اذ كان مبكر الحساسية بذاته وشذوذها عن ذوات أترابه ولداته ؛ وضاعف من آلام شعوره بشذوذه الجسمى ما كان يلقاه من عبث أولئك الرفاق الصغار به ، وسخريتهم من قماءته وخروج خلقته على غير استواء .

وفى قلوب الصغار جبروت وقساوة لا ترحم الضعف أو القبح فى حيوان ولا انسان ، اذ لم يعودوا أن يستقبلوا الدنيا بشىء من فلسفة رحمة النقص والقبح ، لأن القبيح أو الناقص لم يخلق نفسه ؛ ولم يخير هواه ، ولو خير لاختار وكان المهذب الكامل الجميل .

ولما مضت به السن من بيئة الطفولة العابثة الساخرة بألوان من السخرية الصريحة القاسية ، وأقبلت به على بيئة الشباب الذى عرف من ضروب الحياة ألوانا من النفاق الاجتماعى ، وعرف من آداب الاجتماع أنواع المجاملة والمصانعة التى قد تخفى من الرحمة والرثاء او الهزء المقنع والسخر المبرقع ، أقسى أنواع الايذاء على النفس الحساسة الشاعرة بنقصها بين الكاملين ، أيقن انه لا قبل له بزحمة الاجتماع ، ولا احتمال منه لضغطه وقسوته ؛ فأخذ ينآى عن موارد الحياة الاجتماعية وانحاز الى نفسه وحدها ، وانطوى عليها فى صبر وسكينة وبراءة صدر من ذلك الغل والحقد الذى يعترى كثيرا من الناقصين ، حين يطاردهم زحام الكاملين القادرين الذين سلحوا بالغفلة أو الفجور أو بالاقتحام او بالثروة او بالجاه ، فينقلب الناقصون الى أبواق سخط وبؤر تشاؤم ومصادر اجرام ليحصلوا ما فاتهم الحصول عليه من طريق السباق الشريف والمواهب القادرة ، أو ليحطموا المتاع الذى لم ينالوا منه شيئا ونال منه غيرهم اى منال !

قلت له مرة : — « يا كمال — وكان هذا اسمه ! وكأنه كان من تمام سخرية الظروف به — انك لا تصلح لجد الحياة وصرامتها التى أخذت بها نفسك ، لأن للجد والصرامة أدوات مادية من السمت والقامة والقوة تكون اطارا لازما لمعانيها ، وليس لك من ذلك شىء ! وانما أراك تصلح لعبث الحياة وبحبوحاتها وأضاحيكها التى تفرج عنك ضيق ذلك الجد

الذى حبست فيه نفسك ، وتفرج عن الناس حين يرون منك الاعتراف بنقصك ، واستغلالك اياه فى العبث بالحياة والناس وبنفسك ؛ أو يكون هذا على الأقل وسيلتك الايجابية لاثبات وجودك فى هذا المجتمع الذى يصبح فيه كل شخص لاثبات شخصه والاعلان عن ذاتيته » .

فقال : « تعلم عنى ، منذ طفولتنا ، أنى برغم نقصى تعشقت الكمال وهمت به ، وأنا اعلم انى لا امثله ، وان الأروح لى وللناس ان ارسل نفسى على سجيتها ، فأعترف بعجزها ونقصها ، وأستخدمهما فى فن الضحك والتضحيك على الأقل ، وأعلم أنى حينئذ أكون قريبا الى قلوب الناس حين ارضى احساسهم بكمال شخصياتهم بمضاهاتها بنقص شخصيتى . ولكنى من أجل عشقى للكمال وشدة شوقى اليه ، تمسكت بالسبب الوحيد الذى أتيح لى منه ، وهو هذه السكينة وهذه العزلة النفسية ، وهذا الرضا المستسلم بالواقع المقسوم لى من حظ الدنيا . وهو الفكر المخلص الذى يرصد الحياة والناس بعين غريب عن الحياة والناس . وانك لا تدرى ما أهتدى اليه من فجوات لا يهتدى اليها المغمورون بضجة الحياة ، القادرون على الخوض فى زحامها . ودائما يلقط الضعيف ما فات القوى ، وكثيرا ما يفوت ! فالقوى دائما مشغول بعنف نفسه وكثرة ما يحصله من مظاهر الحياة عن الاشتغال بما تحت الظاهر . والضعف يسبب للضعيف الذكى يقظته الى ما يفعله القوى وما يتركه ، ويجعله يظفر بالحق المغمور فى دنيا القوة ؛ والتجربة دلت على أن الضعفاء أو الذين فيهم « مركب نقص » هم من خدام الحياة ، وموطدى الاجتماع على أساس الحق والواجب والرحمة والعدالة .

ثم قال : ان الحياة مدينة لنا نحن الناقصين بأعظم نصيب . . وان الأقوياء المدلين بقدرتهم على الخوض فى معترك الحياة لا يدركون أن الشعور بالنقص أعظم عامل فى حمل اصحابه على الانتاج ومتابعة خطوات الكمال الحضارى والخلقى .. لأن الفاقد يدرك لذة الواجد وحولها هالة من أحلام الحرمان .. ولأن الناقص يكمل الحياة بارهاف حسه بالفجوات التى فى حياته وحياة الناس ، ويزيد عليها ما لم يستطع أن

يحققه فى نفسه . والاستعراض التاريخى لمن كملوا الحياة من العلماء والحكماء والصالحين يكفى أن يقيم الدليل على تلك الدعوى . فقد كان دائما الرواد فى الخلق والسلوك والعمل والانتاج هم من يشعرون بعدم القدرة على الخوض فى معترك مظاهر الحياة مع الأقوياء المسلحين بأدوات القدرة على الزحام . ثم قال : من أجل ذلك تحملت العزلة والحرمان من المتاع بالناس ، لأفكر فى وضعى ووضع أمثالى ، ولأذود قسوة الجاهلين عن الضعفاء والشاذين . ولأحاول احداث انقلاب فى نظرة أولئك لهؤلاء حتى يروا أنهم شركاؤهم فى خدمة الحياة شركة متساوية ، وأنهم حتى ولو كان شذوذهم وضعفهم عن غباوة وتخلف ذهن ، هم وحدات من الانسانية لا غنى عنها ، وأن للغباوة عبقرية كعبقرية الذكاء ! ! هى عبقرية الصبر والاحتمال والقيام بتوافه الأعمال التى لا غنى للحياة عنها ، والسير فى الحياة فى ذهول ورضا وقدرة على تقبل العمل الرتيب المكرور فى غير سأم ولا ملل !

فلئن كان للذكى فضل السبق الى كشف واحات جديدة فى الحياة ، وفضل اضافة ما ليس منها أو تنقيح ما يستحق التنقيح فيها ، فللغبى فضل عظيم فى احتمال واقع الحياة بدون تذمر وكفران ، وعدم تطلع الى شىء غير ما كان ، وفى التعبد للحياة والتعلق بها .

وله كذلك فضل الرضا بما يكلفه فيها من عمل ضرورى حقير كالكنس والكسح والخدمة وما اليها . وانى أتخيل الحياة خالية من المحدودين فى آمالهم وعقولهم ، فأراها حينئذ سعيرا محتدما بين الأذكياء القادرين الذين يتطلعون جميعا الى السيطرة والسيادة ، ولديهم وسائل الخديعة والغلبة ، وفيهم الحسد والقلق والحقد والنفاق والجرأة والاقتحام . ! فالذكى دائما منتقض على الحاضر ، يحاول أن يغير ما يحيط به ، ويخلق لنفسه عالما آخر يكون هو وحده رأسه وغيره الذنابى .. وان الذئب أذكى من الحمار والشاة ، ولكن شتان بين نفعهما للحياة ، واضراره بها ! ولذلك أهدرت الحياة ذكاءه وطاردته ، شأنها مع كل ذكاء بارع يعتدى على قوانينها فى سبيل غاية شخصية ،

لأن الذى يهدم دعامة بيت ليستعملها أرجوحة مزوقة يتمتع بها ، يجب عقابه واهداره مهما كان عظيم الصناعة بارع الافتنان .. وقد ثبت أن عالم الذكاء الانسانى يشتط كثيرا فى الخروج عن نطاق الطبيعة وحدودها ؛ ويأتى بأشياء غريبة عنها ؛ فيجب الاحتراس منه !

وأغلب ذكاء أذكيائنا القادرين وعلومهم كذكاء الثعابين والذئاب ، لا رحمة معه ؛ ولا خلق ولا شعور بالمسئولية الاجتماعية ، ولا بالمعانى السامية التى تحمل على العطف والتواضع ورحمة النقص وتقدير حياة الأقل ذكاء وقدرة . فكلهم يخاتل ولا يخلص للجماعة ، لأنه لم يشعر بالجسم الاجتماعى الواحد ، ولم يؤمن بعقيدة النوع .

ان الأولى أن نعتقد أن الحياة الاجتماعية مبادلة بين القادرين الأذكياء والعاجزين الأغبياء . فلقد أخذ الآخرون من الأولين عبقرية الفكر وانتفعوا بها ، وأخذ الأولون من الآخرين عبقرية الصبر والاحتمال والعمل وانتفعوا بها كذلك لتحقيق أفكارهم وأحلامهم . وأكثر من ذلك : أخذوا منهم غفلتهم ونقائص خلقتهم وصيروها « قفشات » وتهريجات وأضاحيك أوسعت مدى أفراحهم ومباهجهم وسلواهم جميعا ساخرين ومسخورا منهم .

ثم قال : تلك هى التعزية عن حياتى وحياة أمثالى من الذين خرجوا على غير استواء .. جنت عليهم الجهالة القديمة ، وأوشكت الثقافات والتأملات الحديثة ان تنصفهم وتضعهم مواضعهم فى خدمة الحياة مع خدمات القادرين الكاملين .. ولولا ضعف قوتى وهوانى على الناس ، وقلة أدواتى المادية للدعاية بين الجماهير لهذه المعانى ، لصدعت بها دعوة الى تكريم كل كائن بشرى والعناية به ، وتفهم الحكمة فيه مهما بدا به من نقص ظاهرى ؛ فليس المهم أن يكون المرء تاجا على رأس الانسانية ، وانما المهم أن يكون نافعا ولو كان نعلا لها !

* * *

استمعت فى عجب الى هذا الحديث الصادق الذى دوى فى فؤادى ، ووجه فكرى لبعض أسرار الانسان ، وجعلنى وأنا من « وحدات »

الانسان العادى الذى لا يشعر بنقص يخيل اليه ذلك ـ أتضاءل أمام هذا الذى ينبو عنه نظر أكثر الناس ازدراء له وتهوينا من شأنه ، وتذكرت به لباب الانسانية الذى ضيعه وأخطأه الناس وراحوا يبحثون عن القشور المزوقة . ويقيسون المرء بعرضه وطوله ، ولونه وثيابه ، مغفلين وزنه من أصغريه : قلبه ولسانه .

ثم قلت له : لقد كنت أرثى بعض الرثاء لك ولأمثالك ممن أخطأهم حظ كمال الأجسام واصابوا من كمال الفكر والروح .. ولعلى الآن أرثى لنفسى وأمثالى ممن لا يفقهون كثيرا من أسرار الحياة ، ولا يبقى منهم شىء حين يضرح لهم فى القبور التى يستوى لديها جسم العملاق وجسم القمىء والوجه الجميل المصقول والوجه المقبوح الممسوخ ، ولا يستعصى على ظلماتها الا نور الفكر والروح اللذين ليسا مما يحمل الى القبور ، وانما يخلدان فى الأفئدة والصحف والسطور !

فقال : لا ترث لأمثالى ولا ترث لأمثالك .. فانما نحن جميعا نمثل « رواية » الحياة التى لا بد فيها من اختلاف شخصيات التمثيل وأنواع الأدوار . حتى لا تكون الرواية حديث شخص واحد ، وموقف ممثل واحد يتكرر تكرر الرقم الواحد فى الملايين .

لا رثاء .. وانما فهم وتفاهم وتبادل تقدير ، وتساوى نظرات من الأعلى للأدنى والأدنى للأعلى ، ان صح أن فينا أعلا وأدنى .. وذلك كله من حدود عقيدة النوع » .

* * *

لقد مضى « الجسم » الناقص ، وخلف هذا الكلام الكامل .

ولا عجب فالنحل ، وهو ذباب ، يخلف الشهد المصفى ..

وقد أحسن حين لم يترك صورة « للصدفة » الخسيسة ، حتى لا تجنى على « اللؤلؤة » النفيسة ، بل تركها درة عذراء ، ليس لها نسب الا جيد الغادة الحسناء المعشوقة : الانسانية !

الفكر والسلطة

أثر التناقض بين ما فى النفس وما فى خارجها ــ صفات الاب الشعبى ــ أرستقراطية الفكر محمودة ــ السياسة على قوانين الفضيلة ــ اللقاح بين جرائم حب المال وجرائم حب السيطرة ــ دولة الاحلام فى حكم المفكرين الصديقين ــ أيهما أصلح للحياة ولرجال الفكر ؟ ــ العيش أولا ثم التفلسف ــ اقتراحى للاصلاح السريع ــ الحكم ضريبة على المفكر الصالح

تمنيت ولا أزال أتمنى ان يكون رجال الحكم فى كل امة هم رجال القمة فى الفكر والخلق والقدرة على تربية الشعوب ؛ فان هذا هو الوضع الصحيح للحياة الاجتماعية التى يستقيم فيها كل شىء ، ويؤمن المرء فيها بنفسه وبأمته وبالانسانية جميعا ؛ اذ لا يجد فى الحياة تناقضا بين المثل العليا والقوانين المرسومة فى الكتب ، والواضحة فى نظام الطبيعة ، وبين الوقائع العملية التى يسير بها الناس . وحيث لا تناقض بين ما فى النفس وما فى خارج النفس ، فهناك السعادة ، وهناك الايمان ، وهناك الأمل والعمل المطرد .

ان الذى يؤهل الأب لأن يكون قيما فى الأسرة ، هــو بذاته الذى يخول الحاكم والسلطان أن يكون قيما فى مجموع الأسر . وأولى صفات الأب ، الفكر والرشد الممتاز ، والعدالة بين ابنائه ، والحب لهم جميعا .

والحكم كالأبوة : وصاية وخدمة وقيام على الناس بالرعاية والاصلاح والعدل ، لا سيادة وسلطان ، أو مكاثرة ، أو حب تسخير للناس ، او طلب للامتياز عليهم ، او اتقاء لشرور سلطة أخرى ، الى آخر أســباب الحكم التى تواضعت عليها جاهلية الناس .

وكما ان الأب فى الغالب هو اكبر اهل البيت عقلا ، وأقدرهم على الكسب والانتاج والاصلاح ؛ كذلك يجب ان يكون « الأب الشعبى » أى الحاكم الراعى ..

وقد أغفل الناس هذه البديهية فى الحكم ، ووسدوا الأمر الى غير أهله الطبيعيين ، وصار مالكو رقاب الناس ، وموجهو الأمم ، غير رجال القمة فى الفكر والخلق ومعرفة اتجاهات الحياة ؛ وانما هم المحترفون للسياسة ، والجائعون للشهرة ، والعاشقون للجاه والمناصب والبطش والخيلاء ، والجاهلون بعلوم النفس والتربية وأرصاد القدر وسير قافلة الحياة بالأحياء .. الذين صعدوا الى المناصب بالمكر والخديعة والدجل السياسى لا بالطبع الكريم ، والفكر الناضج ، والمجهود الصالح والخدمة النافعة .. الذين نفوسهم نفوس عوام ؛ أوهم جعلوا همهم تملق العوام والنزول اليهم ، بدل أن يرفعوهم بالتربية وقسوة الآباء التى لا بد منها فى بعض الأحيان ..

و « الأرستقراطية » فى الفكر ضرورية للاجتماع ، وليست بغيضة كالأرستقراطية فى المال ؛ اذ لو اتبع الحكماء أكثر الدهماء ، ما خطوا بالانسانية خطواتها فى الترقى ، وما وصلوا بها الى شىء من اسباب سموها وهداها .

والمحترفون للسياسة ، وعشاق المناصب ، يجعلون همهم تملق العوام ليركبوهم الى المناصب . أما العلماء والمجاهدون فى سبيل الفكر ، فهم الذين يحملون الناس على أكتافهم الى واحات السلام والصلاح والانتفاع . وقد يضربهم الناس ويهينونهم كما يهينون الدواب التى تحمل متاعهم .. ومع ذلك لا يتخلفون عن أداء رسالاتهم فى نقل الناس من سىء الى حسن ، ومن حسن الى أحسن .

ان رجال الفكر المخلصين للحقيقة ، الباحثين دائما عنها ، الحالمين بصور الكمال ، هم وحدهم الذين لا تبطرهم المناصب والرياسات ، ولا يسعون لها الا لأنها تمكنهم من تحقيق ما يحلمون به من وسائل الاصلاح واسعاد الناس ، وهم الذين يقيمون السياسة على قوانين الفضيلة ، لا على الختل والخداع وتصيد المال والخيلاء بالجاه .

واعتقادى أن شقاء الانسان السياسى ناتج من أن اكثر رجال السياسة الآن صاروا بعيدين عن الأفكار العليا الحرة ، وصاروا تابعين

لرجال المال الذين يبعدون عنهم كل ذى فكر واحلام ومثل عليـــا فى الروح .

وعالم المـــال بؤرة للشهوات العنيفة ، والغرائز الحادة ، والمنافسة الذميمة ، وشراهة التملك ، وتبرير الواسطة والخـــوف من التغيـير والتحـــول .

وقد نشأ من اللقاح بين جرائم هذين الصنفين : محبى تملك الرقاب ومحبى تملك المـــال ، ذلك الانسان السياسى الفظيع الذى يخدع القطيع ويلعب به ويحلبه ويسوقه ويذبحه حين الضرورة الشخصية على مذابح الهوان والظلم ! ولن تتخلص الأمم من شقائها وفوضى حيـــاتها ، الا اذا اختارت رجال حكمها من بين مفكريها الذين لهم روح تهيم بالكمـــال ، ولهم قدرة عملية على التنظيم وفن « الاخراج » والتنفيذ ، ولهم مـــع هاتين الهبتين شخصية قوية تصون المنصب وتخلع عليه من هيبتهـــا وسيادتها الذاتية .

فعلى الأمم أن تبحث عن هذا الطراز المفكر العامل ، القوى الشخصية بين رجالها وشبابها الناشئين ، وأن تربيه فى مدارس خاصـــة بتخـريج الحكام ، يكون لها برامج تكفل انضاج الفكر الحاكم السائس المربى .

* * *

وحين يوجد الفيلسوف الحاكم يكون التناسق والتربية النفســية وحياة الحقيقة والرضا عن الوطن و « المواطنين » .

وقد كان عهد الانسان الكامل (محمد) وعهود خلفائه الراشدين أمثلة عظمى فى حكم المفكرين الصديقين القديسين فى الزمان القـديم .

وكان عهد الرئيس الدكتور (مازاريك) فى « تشيكوسلوفاكيـا » مثالا صالحا للحكم تحت وصاية أرباب الفكر المحدثين الذين لايتحجرون فى قوالب الواقع السىء .

فقد فاق « شعبه » تحت حكمه جيرانهم جميعـــا ، حتى الألمان ؛ فاقوهم فى التنظيم الادارى والاقتصـــادى والرياضى والعســـكرى

والاجتماعى . اذ أنهم كانوا تحت وصاية رجل بصير ، بآفاق الحياة ، مدرك اتجاهاتها ، برىء السيرة والسريرة من آفات محترفى السياسة الطالبين للمناصب .

* * *

ولكن هل من الخير لرجال الفكر أنفسهم أن يعهد اليهم امر الناس وتدبير سياستهم ومعايشهم ؟ ان لذة الفكر المجرد والهدوء الذى يغمر عالمه ، والأنس به ، والأحلام فيه ، والانقطاع اليه ، شىء عظيم قد يفضله كثير من المفكرين على الاشتغال بصغائر الحياة العملية ، ومضايقات سياسة الناس وتدبير أمورهم ، ولو كان مع هذا جاه ومال وسلطان وقوة وشهرة .

بل ان أكثر الذين أخلصوا للفكر والفن ، يضيقون ذرعا بحياة الناس العملية ، ويخلقون لهم جوا خاصا بهم يعيشون فيه وحدهم ، ولا يعدلون به سواه . ولذلك قال الجاحظ ما معناه : « ما لذة الأسد بلطع الدم بأعظم من لذة العالم بعلمه » . وقال أحد الصوفية : « لو علم الملوك ما عندنا من اللذات لقاتلونا عليها » .

وقد صور « جبران خليل جبران » وجدانى رجل الأدب ورجل النشب ونظرتيهما للحياة حين قال : « تبادل غنى وأديب النشب والأدب فرأى الأديب ما بيده حفنة من تراب ، وراى الغنى ما براسه نفخة من ضباب .. »

فهل يلذ المفكرين أن ينزلوا عن أبراجهم العاجية المليئة بصور الكمال والجمال والهدوء الى دنيا الواقع المليئة بالصخب والتشويش والمتاعب ؟

وهل من الخير للحياة أن يظل رجال الفكر فى نظرياتهم واحلامهم يتصيدونها من آفاق بعيدة ، ويؤلفون صورها ، ويدمنون ذلك وينقطعون اليه ، حتى يكثروا أمام الناس صور الكمال ، وأن يتركوا للملوك والساسة العمليين ان يأخذوا منها الجانب الذى يروقهم ويحلوا لهم تطبيقه فى أساليب حكمهم ؟ أم ان من الخير للحياة ان يتولى رجال الفكر

بأنفسهم تنفيذ ما فكروا فيه ووفقوا اليه ، ولو قطعهم ذلك عن انتاج الأفكار الكثيرة الرائعة ؟

وهل من الخير للرجل أن يخلد ويذكره التاريخ على أنه مفكر او فنان ، او ان يذكره على انه حاكم سديد مصلح ؟

ان النتاج العلمى والفنى قد يبقى كما هو دائما فى الكتب والدواوين والآثار ، يراه الناس كما كان فى عهد صاحبه ، ولكن نتاج الحكم والاصلاح مؤقت بحياة صاحبه ، فلا تدركه الأجيال التالية ، الا بالحكاية عنه والسماع ، وليس فيه خلود ذاتى كالأثر الفكرى والفنى ، وانما خلوده بتطبيقه على الحياة العملية . وهذا طبعا ليس مطردا ولا كثير الوجود فى جميع العصور .

فحياة الاصلاح والقوة فى زمن عمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز مثلا ، انقضت بانقضائهما ، وصار الحديث عنها حكاية مضى أشخاصها ، وقليل أن يقتدى بهما حاكم آخر ، ولكن حياة اى كتاب دينى او علمى او فنى تبقى تمثل نفس صاحبها ومنتجها دائما .

ومع هذا يجدر بنا ان نعلم ان حياة الفكر وحده لا فائدة منها الا لفترات « الترف العقلى » والترف العقلى كالترف المالى ، ما هو الا شهوة .. شهوة رفيعة .

نعم ان للعقل شهوات كشهوات الغرائز ! فالمفكر أو الشاعر الذى يتفرغ لعالمه الخاص ، ويترك العمل على اصلاح ما يحيط به ، ما هو الا كالمدمن على الخمر أو القمار ، اذ يغيب عن حياة المجموع ، ولا يجعل بين عقله النظرى والعقل العملى صلة .

والسؤال الذى يجب أن يقدم قبل البحث فى هذا هو : أمن الخير للحياة ان نقدم للشعب الفقير المريض المحتاج دواء وحياة عادلة ، ام ان نقدم له لحنا جميلا ، او شعرا رائعا ، او نظرية كمالية ؟

أعتقد بصدق الحكمة اللاتينية القديمة « عش أولا ثم تفلسف » .

والحياة العملية هى الحكم فى هذا . وقد قل الجهد والفكر القديمان اللذان كانا يدوران على اللذة القاصرة . وأتى عصر الفكر العملى الذى ينتج محصولا ينفع الناس فى حل « مشكلات العيش » .

فصاحب الفكر التجريبى الآن صار صاحب الحظوة ، والخالد الأثر عند الناس ، لأنه يشتغل فيما يعود بالنفع عليهم جميعا .

وقد جانبت الحياة الحالية من لا ينتج شيئا يصح انتفـــاع الناس جميعا به ، واحتضنت كل من يقدم لها المنافع ، وأغدقت عليه الجـاه والسمعة .

* * *

وينبغى أن ينصرف حديثنا هــذا الى غير العلمـــاء الطبيعيين الذين يكشفون عن أسرار الطبيعة . فهؤلاء لهم أن يتفرغوا ويعيشـــوا فى عالمهم وحدهم ، الا اذا كانت لهم قدرة على الجمع بين حياة الحكم وحياة هــذا اللون من العلم .

أما الذين يفكرون فى النظريات الأدبية ، ويدرسون الاجتماع ويضعون فلسفته ، فيجب أن يختار منهم من يستطيع الاضطلاع بأعباء الحكم وتطبيق النظريات على الواقع .

ويجب أن يعلموا أن المفــكر الناجح هو من يلهم فكرة ، ثم يصنع بها أمة أو جماعة .

ويخيل الى أن كل الجهود الفكرية التى ليست داخلة فى منطقة العمل هى هوى ذاتى وترف عقلى .

اننا لانمسك ديوان شعر ، أو نسمع لحنا ، أو نقرأ قصصا أو تاريخا ، الا اذا فرغنا من أعمالنا المعاشية ، وأقبلنا على أوقات الفراغ نستمتع بها ، ولن يقبل على هذه الألوان فى جميع الأوقات الا هاو مستغرق ، أو محترف مرتزق .

اننى أعتقد أنه يجب للاصلاح السريع فى أى بلد متخلف أن يضحى أهلها بعيشة الترف العقلى مدة موقوتة ، تغلق فيهـا جميع المعاهد العالية

سنة أو سنتين اذا لزم الأمر ، ويحشد جميع أساتذتها وطلابها للخدمة العامة والاشتراك فى حركات الاصلاح الأولى ، وتترك التفرغ للبحوث الفكرية والهوايات الفنية ، وتتفرغ لتدبير أمور الجمهرة الجاهلة من الأمة حتى يعلو مستواها ويتقارب مع مستويات الأمم التى سبقتها فى التعليم والاصلاح .

قد يبدو هذا غريبا عجيبا .. ولكن هو ما أعتقده ، لأنى أرى وجود المريض جدا بجانب الصحيح جدا ، يفقد بهجة الحياة لدى الصحيح ، ويؤلم المريض بالحسد والنظر المحروم . وأرى أن الأولى للعالم والمفكر ألا يوغل فى علمه وفكره بينما يترك غيره جهلاء لا يفهمونه ولا يقدرونه .

ووجود عدد من جهابذة العلماء بجانب ملايين الجهلة التعساء المرضى هو بذاته كوجود الميادين والشوارع الجميلة فى المدن المعدودة ، بجانب آلاف القرى التى تقام من الطين والسرجين والأحطاب والمستنقعات .

فعلى هذا ينبغى أن يعلم الأدباء والمفكرون أن عملا صالحا يقدمونه فى حكم صالح يسعون اليه ، أولى ألف مرة من تقديم قصيدة رائعة ، أو مقالة بارعة ، أو فكرة عبقرية غير عملية ؛ اذ أن هذا العمل الصالح المثمر أهنأ لدى آلاف من القلوب المحرومة ، وأسرع الى اسعادها وأدنى الى أسلوب الله فى نفع عبادة ؛ فهو يعمل لهم كثيرا فى تدبير الطبيعة ولا يتكلم الا قليلا فى كتب معدودة ..

وان قانونا عادلا يضعه لأمته حاكم رشيد ، لأنفع ألف مرة من جملة كتب تعرض أفكارا عالمية للترف العقلى ؛ لأن القانون العادل يضمن ضرورات الحياة للناس جميعا . أما كتب الترف ، فتتضمن الحياة المترفة لبعض الناس .

ولو ترك محمد (عليه الصلاة والسلام) القرآن من غير أن يترك أمة قد قام عليها بالتربية والحكم والتوجيه والتعليم ، لظل القرآن ككتاب من الكتب لمؤلف من المؤلفين .. ولكنه عمل وجاهد كما أمره منزل القرآن ،

حتى صنع أمة تجسدت فى أشخاصها معانى هـذا الكتاب ، فأخذ يسعى بهم وصاروا هم كلمات حية تشرح آياته .

وأظن أن سعادة الرجل الذى ينجح فى تطبيق مشروع يسعد الناس ، تربو كثيرا على سعادته باخراج أثر فكرى أو فنى حبيس فى الورق .

فليحمل الأدباء والمفـكرون نصيبا من الخدمة العمليـة ، وليروضوا أنفسهم على اسـعاد القلوب بالأعمـال ، كما يسعدون الآذان بالأقوال ، وليجتهدوا أن يحققوا معـانى مقالاتهم فى أشخاص وأعمـال مجسمة ، وليسعوا دائمـا الى أن يكون الحكام والزعماء من رجال القمة فى الفكر والخلق ، حتى نلائم بين ما فى النفس وما فى خارج النفس ، فيكون الحكم ضريبة على من يحسـنه من هؤلاء ، ولا يسـند الى غيرهم مهما كانت الظـروف .

ثورة الفكر على الواقع

أقدام تتحكم في الرءوس ! ـ هل الجامعات مسارح للتمثيل ؟ الجهل يستغل العلم ـ لابد للعلم من جذوة الروح ـ الحياة تخطو دائما الى الامام ـ نعمة الحياة هى نعمة الفكر الثائر ـ لا استسلام للواقع الناقص ـ فى نفوسنا أطلال ومستنقعات ! ـ وجوب العزل الصحى فى أمراض الفكر ـ اصلاح الدعائم أولا ـ دهن الحطب باللون الاخضر !

أما من ثورة عالمية للعلماء والمفكرين يقومون بها فى اجماع ضد دجاجلة السياسة ، وسماسرة المال ، وحاملى الجاهلية ، والمرتدين عن دين الحياة بالعلم والفضيلة ؟ !

أما يؤلمهم ويحز فى نفوسهم أن تخنق آراؤهم ومثلهم العليا ، وتداس أفكارهم التى لها يعيشون وبها يأنسون ؟

أما يغيظهم أن يظلوا دائما مجرورين فى عجلات أولئك الدجالين والجهال والسماسرة ، يسحبونهم على وجوههم فى تلك الطريق المعهودة من عهد الجاهلية للآن ؟

الجامعات ، لو صحت الأوضاع ، هى رءوس الأمم التى تفكر بها ، وتتصرف فى شئون الحياة صادرة عن وحيها ، فلماذا نرى الشوارع تتحكم فى الجامعات ، ولا نرى الجامعات تتحكم فى الشوارع ؟ لماذا نرى الأقدام تتحكم فى الرءوس ؟ !

هل يقنع الجامعيون من الحق والعلم والفن أن يروا كلا منها فى اطار من الصحف والكتب الجميلة والصور المعلقة على جدران الجامعات والمتاحف والمعارض ، وأن يتحدثوا عنها فى حجرات الدراسة ، ويلبسوا لها « الروب » الجامعى ، ويهزوا بها ذقونهم ، ويقفوا بسمت ووقار ، وينطقوا بمضغ ولباقة ؟ !

ما فائدة هذا التمثيل الدائم على مسارح العلم أيها الحكماء ، مادام هناك مناقضات فاحشة بين ما فى البيوت والشوارع وما فى الجامعات ، وما دمتم أنتم تلبسون للحيـــاة العملية ثيـــابا أخرى ، وتضطرون لأن تواجهوها بوجوه أخرى ؟!

ما فائدة الجرى وراء البدوات والفروض الرياضية للحياة ، والتنقيب عن أحافير المـــاضى اللغوية والأثرية ، والتخييل بأحلام المستقبل المثالية ، مادامت تيارات الحاضر تفلت من أيديكم وتستعصى على توجيهكم ؟

لقد نكل الحاضر بمخلفات المـــاضى ومقدساته ، وبآمال المستقبل وتخييلاته تنكيلا فظيعـــا ، حين أطلق هـــذه الحرب الحطمة الطاحنة بصواعقها ونواسفها ، فاذا الأبراج العاجية والصوامع الجامعية تذروها الرياح دخانا وهباء منثورا مع ما فيهـــا من كنوز المـــاضى ورصـــيد المستقبل .

وكان ذلك كذلك لأن الجامعيين والمفكرين لم يؤمنوا طريق العلم والحضارة ، ولم يكبلوا الوحوش والغيلان الممثلة فى الدجالين والسماسرة والجائعين للشهرة ، والجهال الذين يفتكون بالمدنية ، ويأخذون منتجات العلم وينتفعون بها فى تسخير الحياة من غير أن يأخذوا الأسس النفسية الفاضلة التى فى نفوس العلماء .

وكان ذلك لأن خدام العلم لم يســـلكوا فى تعبيد طريقه وتأمينها مسلك خدام الدين الأولين ؛ فلم يقيموه على أساس التعصب له والثورة به والفناء فى سبيله ، ولم يقيموه فى نفوس الطلبة على أساس الروح ذات الجذوة الحمراء التى تنضج كل ما تقتنيه وتحوله الى كيانها ؛ وانما أقاموه على أساس الفكر ذى الجذوة البيضاء الهادئة التى تقتنى المعلومات كما تقتنى اليد الأشياء ، وتضعها على الرفوف وفى الخزائن : فهى دائمـــا منفصلة لا تندمج فى كيان المقتنى .

فلا بد اذن من ثورة اجماعية للعلم تقـــوم على أساس التعصب له وللفضيلة ؛ فان العـــلم من دين الله الذى يدين به البشرية وتتـــوحد به غاياتها ومقاصدها ، وتخضع أعناقها لمعجزاته الدائمة المتجددة .

ولابد من السرعة فى اقامة أسس الحياة على الثابت من قوانينه ، حتى لا يكثر العدد من ضحايا عهد الانتقال كما هو الحال الآن ، كما لابد من الثقة بالفكر البشرى الهادىء المستنير ثقة كاملة .

فقد قاد الفكر القطيع البشرى ، ونقله من حياة البساطة والعجز والجهل الى هذه الحياة المعقدة القادرة العالمة ، ولا يزال يقوده وينقله مرحلة مرحلة فى طريقه الى مستقبل مجهول .

وكلما استقرت الأجسام البشرية فى مرحلة ، وعاشت فيها حياة آلية رتيبة ، واطمأنت جنوبها اليها ، وقالت هنا ينتهى الطريق ويقوم الهدف ، ثار بها ثائر من عالم الفكر ، ودفعها الى أفق جديد تقاوم هى الاندفاع اليه فى أول الأمر ، ثم لا تلبث أن تسير مع عجلة الفلك بدافع من قوة التطور البديعة ، وتأخذ فى دور الاستقرار فيما انتقلت اليه ، الى أن يومض بارق ويثور ثائر على الواقع ، ويلوح لها بجديد من عالم المثال ، فتتبعه بعد جهد على رغم ما تلاقيه من عنت الانتقال وترك المألوف .

فقصة الحياة الانسانية هى قصة الفكر وثوراته المتتابعة على الواقع . ولولاه لظل القطيع البشرى كأى قطيع حيوانى مما يدرج على الأرض : لا ارتقاء له بذاته ، ولا قدرة له على تغيير واقعياته .

وما كان يراه الواقعيون القدماء مستحيلا أو بعيدا عن قدرة الانسان ، حققه الفكر المتطلع الثائر ، وجعله من أيدينا دانى القطوف .

وبعبارة أخرى : كثير من حقائق اليوم وواقعياته التى تتقلب فيها الحواس ، وتعمل فيها الأيدى ، كانت أحلاما وبروقا تلوح فى آفاق الفكر الموهوب المدرك لما وراء صور الواقع من صور أكمل وأبدع .

والبطء الشديد فى الانتقال ، بل التخلف والوقوف الطويل فى مرحلة من مراحله ، بل الارتداد الذى يحدث فى كثير من الأحيان ، انما مبعثه العناد والجمود والجموح من القطيع ، والتوانى والاهمال من المدركين للكمال ، القاعدين عن نداء الفكر واهابته بهم أن يتجردوا لما استحفظوا

عليه ويأخذوا الانسانية اليه . الطامسين لتلك الصور الجميلة التى يرسمها فى صفحات ضمائرهم ومخيلاتهم القلم الأعلى الذى يعلم الانسان ما لم يعلم ، ويدرجه فى قراءة الحقائق وادراك الكمالات درسا درسا .

ومما لا شك فيه أن الحياة الاجتماعية يمكن أن تكون أحسن مما هى عليه الآن وأكمل ؛ لأن تدرج هذه الحياة من صور الاجتماع الأول الى هذه الصور المعقدة العظيمة فى الاجتماع الحالى ، وطواعية الفرد تحت أحكام القوانين والنظم والتقاليد التى تحيط بكل تصرف من تصرفاته ؛ أكبر دليل على امكان الوصول الى ما يصبو اليه ذوو الأفكار السامية والقلوب الكبيرة التى نضجت فيها معانى الانسانية وأسرارها .

وما يضر الانسانية شيء كما يضرها الاستسلام للواقع الخاطىء الناقص القائم على أسس فاسدة .

وقد كان يصح الى حد ما ، اغتفار التوانى وترك المجتمع يقوم على أسس فاسدة وأشكال ناقصة ، أيام كانت الثقافات محدودة والمعارف ضيقة والتعليم لونا من ألوان الترف فى الحياة ، وأيام كانت حدود الأشياء وقيمها مختلطة مشوشة ؛ وأيام كانت آثار هذا التوانى والاهمال ضيقة الأضرار هينة الجرائر والآثام ؛ وأيام كانت المعارف متقاربة يدور الناس بها دورانا نظريا فى حيز ضيق من حياة المجتمعات ، وأيام كان انتقال الحياة فى طريق الآليات والصناعات انتقالا بطيئا لا تنشأ عنه مسافات بعيدة بين القاعد والماشى ..

أما الآن ، وقد صارت قيمة التعليم والتهذيب للفرد كقيمة الخبز ، وحدود الأشياء واضحة مميزة ، وصارت آثار التوانى فى اقامة المجتمع على أسس العلوم والأخلاق والفنون آثارا عميقة غليظة الجرائم والآثام ، وصارت آفاق العلوم والمعارف متباعدة متعددة فى نطق واسعة جدا لا اختلاط بينها و لاتشويش ، وصار كل يوم يأتى بأشياء جديدة عجيبة من وسائل العلم والسيطرة والقوة .. فلا يجوز مطلقا أن يتوانى مفكرو أى مجتمع ويتركوه يقوم على الأسس الفاسدة ، ويسير على مجرى التاريخ الذى يجرف الطفولة النضرة مع الجيف القذرة ...!

ان الناس لم يرضوا أن يسيروا بأقدامهم على الطرق والدروب القديمة فى المدن والقرى ، بل مهدوها تمهيدا فيه فن وتنظيم على أحدث الأساليب، فكيف يرضون أن يظلوا فى حياتهم الفكرية سائرين برءوسهم على مسالك وعرة قذرة ، فيها أنقاض وخربات من عالم بائد ؟!

أجل ، فى حياتنا الفكرية أنقاض وخربات يسكنها ظلام وحشرات وخفافيش وزواحف سامة تفزعنا وتفسد احساسنا بجمال الحياة الحديثة، فيجب هدمها أو تجديدها ، اذا كان فيها ما يجب أن نبقى عليه ، والا فسنظل فرائس للفزع والاشمئزاز . !

وفى حياتنا النفسية مستنقعات آسنة تنز وترشح الى ما يجاورها من الرياض العلمية والفنية الحديثة ، وتفرخ فيها كثير من جراثيم الآفات ؛ فيجب ردمها وتحويلها للازهار والاثمار الصالح ، والا فسنظل مرضى مصروعين متناقضين ..

وان الناس ما رضوا أن يتركوا موارد الطبيعة كما هى بدون أن يدخلوا عليها أساليب التنظيم والاستغلال والانتفاع ؛ فلماذا رضوا أن يتركوا موارد النفس ومصادر الأخلاق ، كما هى بدون تنظيم وتعديل كما يقضى الادراك الصحيح ، والمنفعة العاجلة والآجلة ؟

لقد أقاموا الاستحكامات والمصافى والخزانات على المنابع والأنهار ، ليتقوا غيضها وفيضها وأقذارها ، مما ذاقوا منه الدمار والأمراض فى العهود القديمة ، ولكنهم لم يقتنعوا بعد بأن موارد النفس ومصادر الأخلاق وما فيها من غيض وفيض وقذر وضعف وطغيان ، تحتاج الى اقامة أمثال تلك الاستحكامات ووسائل التصفية من الأكدار .

فهل يظلون مصرين على العمى عما وراء الأجسام ، سجناء الشواخص والكثافات وحدها ؟!

لقد صارت الحياة المادية بما أدخله عليها العلم والفن حياة قيمة جدا ، تحمل على الثقة بالانسان كعامل عظيم من عوامل التكوين والتنويع التى فى يد الله ... فيقبح جدا بالانسان أن يترك نفسه تحت تأثير الغرائز

الضيقة ، والحماقات القديمة التى تحمله على تدمير تلك الحياة المادية القيمة ، وتخريبها هذا التخريب الذى تمثل اليوم مأساته الدامية الشنيعة على مسرح الأرض كلها ..

ان الفكر البشرى قوة مبصرة عظيمة تتحكم فى كثير من القوى المادية العمياء ؛ فالواجب الأول أن يعنى به قبل غيره ، وأن يحافظ المجتمع على قوانين نموه واطراده والانتفاع به ، وصيانته من العوادى التى تعدو عليه فتفسد حياته ثم تفسد الحياة به .

ومن العجيب أن تفزع الدولة حين ترى جسما مريضا مرضا وبائيا فتضرب بينه وبين الناس نطاقا من العزل الصحى « والتطعيم » والوقاية ، ثم لا تبالى ولا تفزع حين ترى الأمراض الفكرية الوبائية تجتاح صحة القلوب والأفكار ، وهى أوعية أسرار الحياة الانسانية وعوامل توجيهها !

ان العناية بالمظاهر الجميلةالبراقة لا تغنىعن العناية بالخفايا والأسرار فى أى شىء ؛ وخصوصا فى الحياة الانسانية التى يجب أن يسبق الفكر فيها كل عمل وكل مظهر . وان المجتمع ليهدر قيمة الفرد الاجتماعية مهما كان جميلا قوى الجسم حين يرى به جنة أو مسا من الخبال ، فيسجنه فى مستشفيات المخبولين أو سجون المجرمين ، ذلك لأن الفكر هو الشىء الأول والأهم فى الانسان .

لولا العقول لكان أدنى ضيغم
أدنى الى من شرف الانسان

والاخلاص للفكر والعلم يحمل على ابتداء حياة الأمم بهما وانشاء أوضاعها من جديد ، ومقاطعة الاشتغال بأى فرع من فروعها الا بعد اصلاح الدعامات والأصول التى يقوم عليها بناؤها .

و « الترف العقلى » الذى تراه الأمم المتخلفة فى الأمم الراقية التى سبقتها بأشواط وأشواط ، فتفتتن به ويتوجه اليه أفراد منها منسلخون عن حياة الشقاء التى تحياها أمتهم ، ينبغى ألا يشغلها ويصرفها عن مجابهة العقدة الأولى ، وهى اصلاح أسس حياتها مهما لقيت من العنت والمشقة

والاضطهاد من الراضين بالحياة كما هى ، والذين لهم مصالح فى الحرص على بقاء الحياة كما هى ...

فليكن اجتهادنا فى صنع القوالب الصالحة وتخطيط الاتجاهات ، ولو كانت تلك العملية مسئمة ليس فيها زواق ورواء .

وليكن لغيرنا ممن يأتى بعدنا لذة الاشتغال بألوان الترف العقلى ، وطلب الشهرة بأعمال التلوين والزواق ، مما يفتن العوام وأشباههم ، ويذيع الشهرة بينهم .

فاذا أصررنا على تزويق الأجسام الآدمية الحديثة بطلاء رقيق من المدنية ، تاركين النفسية القديمة كما هى ، فلن يكون ذلك أقل خداعا من دهن الأحطاب والجذوع النخرة باللون الأخضر ...! ايهاما للناس بأنها نبات صالح فى أرض طيبة ..

المسألة الأفعوانية

ام العدد والحساب ـ الرباطات الثلاثة • منطقة الزعازع والعواصف ـ الحدود فى الاقتناء والتوريث ـ الاسرة تتسع خطر العقليات المادية • ثالوث الشقاء الانسانى •

هلمى يا ذات الخطر والجلالة !

الى قلمى .. كما يقبل الثعبان العظيم زاحف الرأس الى ساحر ليحطم نابه ويطهر لعابه !

هلمى يا بوق الشيطان ، ينفخ فيه على القلوب فتكون كالمخالى والخزائن والجيوب ، تختزن الأجسام ذات الحجم والكثافة والثقل ، وتمتلىء بالحطام وهى مهبط الأسرار ومجلى الأنوار ..!

هلمى يا دين البشرية ، وقبلة قلبها ، وكعبة طوافها وسعيها .!

يا أم الدينار ! ذى الغرة والطرة ، والبريق والرنين ، والثقل الخفيف والروح اللطيف ، الذى يسرى به الشيطان الى الأقداس المغلقة فى الضمائر فيفتح به مكان الطهر ، ويحيله الى نجس وعهر .!

يا روح « العجل الذهبى » الذى يتشكل ويتجسد ويتقمص جسم كل شىء ، فيتراءى به ويتخايل فى صور شتى تذهل العيون عن الحق والشرف والايمان !

الى قلمى أيتها الأفعى ذات الرءوس والقرون والألسنة والذيول التى لا عدد لها لأنها أم العدد والحساب !

الى قلمى أيتها الأفعى التى تنهش قلب الانسانية فى الشرق والغرب وقد سممت مجرى التاريخ البشرى ومنابع الفكر والشعور ، ولفت جسمها المخيف على جسم البشرية الضعيف ، وأرسلت فحيحها وهمسها فى إذن الأفراد والأمم فأوغرت بينهم العداوة وتركتهم من حمى سمومها

يموج بعضهم فى بعض ويحطم بعضهم حياة بعض وأحالت قلوبهم الى أوكار وأوجار لها .

أيتها « المسألة الاقتصادية » ! ياوكر الجرائم الفردية والاجتماعية والسياسية ...!

اننا نشعر برباطات ثلاثة تضغط على قلوبنا وتشد عليها وتربطنا بثلاث غايات عظمى هى : « الحياة » و « ما وراء الحياة » و « المجتمع » . فالذى يربطنا بالحياة هو « الحب » ونتيجته الاندماج فى « الزواج » والامتداد فى « النسل » تعزية وتعويضا عن « خلود الذات » وهو الأمل الأكبر الذى لم يتحقق .

والذى يربطنا بما وراء الحياة هو « الدين » ، ونتيجته التعرف الى الله بارىء الوجود ومفيض الحياة .

والذى يربطنا بالمجتمع هو « المال » ارضاء لجملة غرائز حادة وشهوات عنيفة تظهر فى الأنانية والأثرة والخيلاء وحب التسلط والمباهاة والافتراس وحب الاقتناء والحيازة والتملك ، وحب « اعلاء الذات » مقرونة بغيرها فى مجموع ..

والرباطان الأول والثانى لكل منهما منطقة تتصل بالجانب الأعلى من الانسان ، وتثير فى قلبه أشواقا فيها سمو ، وفيها رفق ووداعة وحنان ونسيان « للذاتية » والأنانية ؛ فلذلك تحيا بهما النفس سعيدة مسعدة ، منتفعة نافعة .

أما الرباط الثالث ، فلا يتصل الا بمنطقة العواصف والزعازع من النفس ؛ اذ هى مجال الاحتكاك والمنافسة والسباق والصراع بين ذوات مختلفة متفاوتة القوى والمواهب .. وقد سبق الشر من هذه المنطقة الى الحياة وأفسدها ، ولذلك كانت محل العناية والتنظيم والتهذيب ، ومحورا عظيما لشرائع الأرض والسماء ، ومثار الحروب قديمها والحديث منها .

وبدون تسوية « المسألة الاقتصادية » فى العالم ، وحل « مشكلة العيش » وتوزيع الموارد الاقتصادية فى الأمة الواحدة وفى الأمم المتعددة

فى عدالة وانصاف ، وتجرد عن الأنانية الشخصية والقوميـة ، لا يمكن الاطمئنان الى مستقبل سعيد للانسانية .

وربما كانت كبرى جرائم الحياة هى جرائم الغنى ومفاسـد البطر والترف والطغيان ، نتيجة لغرور المـال . نعم ان للفقر جرائم كبرى أيضا ، ولكنها جرائم ومفاسد هى فى الواقع عقوبة و « رد فعل » على جرائم الغنى وعدم التوازن الاقتصادى فى المجموع .

ولذلك كان من أول الواجب على رجال الروح والفكر ، أن يجعلوا المسألة الاقتصادية وتنظيمها واعتبار أسسها العادلة ، محل عنايتهم الفائقة ، كما يعنون بالمسائل النظرية فى اللاهوت والفلسفات والآداب ، وأن تكون لهم رقابة ساهرة وجهاد دائم فى التدبير والتنظيم الاقتصادى ، حتى يضمنوا لكل فرد أن ينال حق العيشة بالجسد كما ينال حق الحياة بالروح ، وحتى يكفلوا لمثلهم العليا أن تحيا وتتجسد فى أشخاص ، بدل أن تظل طول الحياة ميتة مدفونة فى بطون الكتب ، أو مرددة فى المعاهد والمعابد وحدها .

ثم يكون واجبهم الأكبر أن يمنعوا التكالب عليها ، والتطـاغى فى رحابها ، وأن يحملوا المجتمع على السعى اليها فى هوادة ورفق وشرف .

وان ما تطلبه غرائز التملك وشهوة المـال لا يمكن أن يقف عند حد ينتهى اليه . وعلى هذا فواجب أن يدرك الانسان ذلك ، ويحد من آماله ومطامعه بما يوافق مصالحه ومصالح الآخرين ؛ والا انقلب كذلك الثعلب الذى ظل يأكل من فريسة حتى امتلأ وعجز عن النهوض والجرى ، فاقتنصه الصائد ..

ومع عدم شعور الجد والأب بحب الحفدة والأبناء له ، بل مع عدم وجودهم فى حياته ، نجد الأجداد والآباء يغالون فى الاقتناء والاثراء بدون حد للمطامع ، وبدون التفكير فى أن ما زاد على الكماليات فى متوسـط عمر الانسان ، انما هو حمل باهظ للنفس يرهقها ويكأدها .

فينبغى أن يحد الثرى ثروته بحيث تكفى ابنه المبـاشر وحده . أما الحفدة والأسباط فيجب اهمال التفكير فى توريثهم ، وعدم تضحية المجتمع والمروءة مع الناس من أجلهم وهم فى عالم الغيب .

ولمـاذا يلزم الانسان أن يعول أهله الأدنين وذريته الضعاف ، ولا يلزم باعالة اخوته فى الوطن من العجزة المحتاجين ، وهم أسرته أيضا بالمعنى الواسع ؟

لابد من اقامة مسائل الاقتصاد والاحسان على هـذا المعنى العميق الكريم ، لا على التبرع والتفضل والاختيار .

لقد كثرت العقليات المـادية المغالية التى تحاول أن تفسر الحياة دائما تفسيرا ماديا آليا .. مغفلة ذلك المعنى الانسانى العظيم الذى يتصل بالحق ومعانى المروءة والايثار والنبل ، ولا يكون المرء انسانا الا بسيطرة ذلك المعنى على فكره وروحه .

هذه العقلية أعظم نماذجها هم اليهود . وقد انتقلت فلسفتهم المـادية فى غلوها الى أغلب الأمم ؛ فهم ليسو الآن ممثليها وحدهم .

نعم ان للمادة آثارا كبرى فى الحياة الانسانية ، ولكنها يجب ألا تكون المحور الوحيد لسياستها العليا كما هى الحال الآن .

ان الفقر أعظم آفات الاجتماع البشرى ، وأعظم ما يثير السخط على الحياة واشد ما يفجع الناس فى حياة الكرامة والسكينة والاطمئنـان ، ويثير بينهم الحقد والبغضاء ويرميهم بحرب الطبقات وحروب الأمم فاذا عولج المجتمع منه نجا من آثار قرينيه وهما الجهل والمرض اللذان يتبعانه ويكونان معه ثالوث الشقاء الانسانى الذى اذ خلا منه وجه الحياة بدا جمالها ورضى الناس عن الحياة .

ولا يجوز للبشرية الآن أن تنظر اليها نظرتها القديمة المستهبته فأثار الفظيعة المخدرة بالسم الذى جعلها ترضى أن يكون بعض الناس بقرا حلوبا وحميرا ذلولا لبعض وبعضهم يكافح فى سبيل لقمة العيش فلا يلقاها والآخر يبحث عن الكلاب يجلسها على موائده ويرعاها .

ولست أنسى مدى حياتى أمسية من أمسيات أوائل الثلاثينات من هذا القرن كنت أتعشى فيها بأحد مقاهى (روض الفرج) القديمة ، ومر كلب

بجوارى فألقيت له لقمة خبز فشـمها وتركها ، وبعد هنيهة أقبل طفل من أولاد الشوارع فالتقط اللقمة وأكلها بلهفة ..

* * *

ولكن الحمد لله ! لقد أخذت أمتنا العربية تمضى فى حل تلك (المسألة الأفعوانية) بالعـدالة الاجتماعية ، وقد قطعت أشواطا نحو ازالة لعنة التفاوت المادى الفاحش بين الأفراد ، وتذويب الفوارق بين الطبقات مما رد كثيرين الى الايمان بالانسانية ..

جرائم التفاوت الفاحش

ماذا بين الانجليزى « والمنبوذ » الهندى ! ـ بثور قبيحة على وجه الانسانية ـ نقص القادرين على التمام ـ استواء سطوح السائل فى الاوانى المتصلة ـ الحد الادنى فى المسألتين الاقتصادية والادبية ـ التعاون أخص صفات الانسانية العليا ـ ينبغى تنبيه كل ذى حق الى حقه ـ جرائم التهاون فى الكرامات ـ لولا من يقبل الظلم لم يوجد الظالم ـ غباوة البقر والغنم ـ الغوانى وعشاقهن .

ماذا بين فكر الانجليزى وفكر المنبوذ الهندى من آفاق صناعية ؟ !

انه ما بين العطر والبول ، أو الزهر والبعر !

انه ما بين قصر « نائب الملك » وجحر « المنبوذ » فى الهند ..

انه ما بين الامبراطورية البريطانية فى ذهن الانجليزى ، وعالم الرحض والأنجاس فى ذهن المنبوذ !

يفتح الطفل الانجليزى عينيه على الحياة فيجدها ملكا كبيرا ومجدا عريضا وتاريخا يحدثه عن عظمته ، وحاضرا يوحى اليه بعزته ومجده ، ويجد دنيا ذات أفكار وآراء وفنون وألوان علم وادب وعمران وسياسة واساطيل جوية وبحرية وجيوش برية ، ويجد وجوها مشرقة وأموالا موفورة ومساكن مترفة ، الى آخر عالم الامبراطورية العظيمة التى لا تغيب عنها الشمس (١) ، ولا يغيب رجالها المنتشرون عن تلقى ماء كل سحابة ممطرة ، وثمرة كل شجرة مثمرة ، وكل فكرة أو خطرة عابرة !

ويفتح الطفل الهندى المنبوذ عينيه على عالم عجيب من القبح والظلمة والقذر والرحض والمطاردة واللعنة من المجتمع .. حتى لايستطيع أن يقرب من « البقر المقدس » !

وكيف يستطيع القرب من هذا الحيوان « المعبود » ذى الروث

---

(١) كانت .. وقد كتب هذا فى عهد احتلال الهند ..

الشاف والبول المعاف والمقام الآلهى ! وهو النجس الشخص والظل ، الملعون الروح والفكر ، المسكون بأرواح الاثم والشر ؟ !

فمن ذا الذى وضع هذه الفروق الهائلة بين انسانين كلاهما له رأس وعينان ولسان وشفتان ، وقلب وفكر آدميان ؟

من ذا الذى وضع هذا كله غير الشيطان وجنوده ، وهم الأوصياء الجاهلون الظالمون !

وكيف اللقاء بين البشرية فى سلام على قدم المساواة ما دامت هذه السدود فى وجوهها ، وهذه المخاضات من الأوحال فى أرجلها ؟

اننا لنأسى ونأسف حتى على الفروق الصناعية المغتفرة بين فكر الانسان الذى لا يعلم من حقائق الكون الا أن الشمس اذا طلعت يضىء الكون وترى العين الأشياء ، والا أن الانسان اذا تكلم جهرا سمعه جاره ؛ وبين فكر الانسان العالم بآخر النظريات الضوئية والصوتية .. فكيف لا نأسى ونأسف ، بل ونثور على تلك الفروق المجحفة التى تجعل البقر معبودا والانسان منبوذا ؟ !

ان على رواد الحضارة المنشودة أن يبحثوا عن أوكار هذه الجرائم المنكرة فى بقاع الأرض ويدمروها تدميرا ، حتى لا تنتقل منها عدوى الطغيان والمظالم ، وحتى يبرأ وجه الانسانية الجديدة من بثورها ومقابحها المزرية .

ولست أدرى ، ما الذى حال ويحول بين الأوروبيين الراقين وبين أن يأخذوا بأيدى الأمم والجماعات المتخلفة ؟ وما الذى يجعلهم يهملون بل يقاومون حركة انهاض هذه الأمم المحكومة بهم ، ويحقدون عليهم وعلى غيرهم ، ويبغونهم سوائم وحيوانات مهدرة الحقوق الانسانية ؟

أهو شعور الوصى الظالم الطامع على اليتيم القاصر ؟ شعور الذى يتمنى امتداد طفولة اليتيم وقصور السفيه لتدوم وصايته التى يملأ منها أوعيته الشرهة ، وبطنه النهم ؟ وما يدرى هؤلاء أنهم يملأون اوعيتهم

وبطونهم من النار والسعير الذى يدمر حياتهم قبل حياة المحكومين بهم . ورب البشرية بالمرصاد !

انهم لو فعلوا بمقتضى الروح المسيحى الحقيقى الذى ينتسبون اليه وبمقتضى موجبات الوصاية والرحمة ، لسعدوا وأسعدوا ..

لو فعلوا لأنقذوا رعاياهم القاصرين وأنقذوا انفسهم من الأمراض والأحقاد التى تنتقل اليهم من هؤلاء لا محالة .

نظفوا الأرض من جهالاتها وآلامها أيها الأوصياء العلماء القادرون.. فان أقبح العيب هو نقص القادرين على التمام !

فما لم ترفع الأمم الوصية حياة الأمم المنحطة الى مستواها الراقى فلن نظفر بالاستقرار والسلام فى هذه الحياة القصيرة .

ومن جانب آخر ، مالم ينهض المستضعفون بأنفسهم ويكافحوا ليرفعوها الى مستوى الأقـــوياء الصالحين ، فلن يظفروا بطائل .. لأن ما يدور بأخلادهم وقلوبهم من الألم واحساس الشقاء لا تتفطن اليه قلوب الأمم اللاهية القوية البانية قوتها على ضعفهم ، وسعادتها على شقائهم ؛ اذ أن ما يدور بخلد البقر والغنم لا يهم الفـــلاح والجزار اللذين يستخدمانها ويذبحانها .

وانى لأخشى أن يكون استمرار هذا التفاوت الفاحش بين الضعفاء والأقوياء ، الى الحد الكبير الظاهر فى حياة هؤلاء وهؤلاء ، ســـوف يحمل العالم من النكبات ما يجعله دائما فى شقاء وتعاسة .

ولن يحس الأقوياء ويفزعوا من هـــذه الحالة الا اذا علت انسانيتهم وسمت ، وصاروا أوصياء ذوى غيرة على أبناء الحياة جميعا ، وحكموا القاصرين ليخدموهم لا ليستغلوهم وسمحوا لحياتهم الراقية أن تتسرب الى غيرهم فترفع مستواهم حتى يستوى سطحها فى أوعيتهم وأوعيـــة غيرهم ، كاستواء سطوح السوائل فى الأوانى المتصلة .

* * *

وان أول ما تجب العنـاية به الآن فى « المسألة الأدبية والمسـألة الاقتصادية » هو أن يضمن الأوصياء للطبقات الدنيا فى العـالم جميعه مستوى من العلم والصحة والنفقة يكفـل لهم حياة الكفاية فى المسكن والمطعم والمدرسة والملبس والمتاع اللازم لتخفيف السأم وادخال المسرات .. ثم يكون مؤقتـا لأصحاب الأموال بعـد ذلك أن ينموا أموالهم كما يشاءون ، ثم ما داموا يؤدون واجبات الدولة والمجتمع والانسانية .

والأمم التى تأبى حياة التعاون تعتبر أمما بدائية لم تبرأ من التوحش والتفرد القديم ، ولو كانت على قمة الأمم مكانة فى القرن العشرين . . اذ أنه اذا فكر الانسان أو الشعب أو المجموع من الشعوب فى غايات نفسه وحدها وأنانيته الضيقة ، لم تحدث الغايات الاجتماعية والحركات الدولية العظيمة التى تفسح للانسانية مجالات حيوية جديدة للمتـاع والعلم .

فعلى الذين يريدون تحقيق أهداف الحياة العظمى أن يبعثوا فى قلوب الأفراد والشـعوب الايمان بوجوب خـدمة غايات الحيـاة وأغراضـها المشتركة ، وأن يجعلوهم حراسا لا يبالون الفناء فىخدمة هـذه الغاية العظمى ، حتى لا يأخذوا الحياة بشكوك تزلزل ايمانهم ، بل يأخـذوها بعقيدة لا تبالى الفناء فى سبيل الحق ، بل قد تطلب الفناء لتخرج من الحياة بشرف خدمتها وتدعيم قواعد الحق فيها .

فالايمان بشىء عظيم ، والتعاون على تحقيقه ، والموت فى سبيله : هو أخص صفات الانسانية العليا والأمم العظمى .

* * *

وينبغى أن تقول الأمةأو الأمم لمن يجهل حقوقه فلا يطالب بها ، ويجهل فرص حياته العامة فلا يعرف التمتع بشئونها : هـذه حقوقك وفرصك وامتيازاتك . تمتع بها ، واسلك ، ان شئت ، فى متاعك بها الطريق الفلانية .. لا أن يستغل قصور القاصر عن ادراك حقه فيغصب منه ويسرق ويهمل ارشاده .

والحال فى أكثر بقاع العالم هكذا ، بل أكثر ظلما ؛ اذ يضطهد من يطالب بحقه .

❋ ❋ ❋

ومن أعظم أسباب الظلم والطغيان ،التهـاون فى الكرامات المقدسة والحقوق العامة بحجة المجاملة والتسامح .

وينبغى لتلافى آثار هذا ، ألا تتنازل الجماعة عن حقها فى القصاص ، حتى لو تنازل عنه المجنى عليه ؛ لأن بعض النفوس يطغيها ويغريها بالشر ذلك التهاون ؛ ولأن بعضها ناقص الادراك وسيء التقدير لما عند المتهاونين والمجاملين من تسامح وسعة حلم ، فيفهم ذلك على أنه ضعف وعجز .

فعلى كل شخص ألا يتهاون فى الحق والكرامة العامة ، وأن يدافع عنهماحتى يشترك فى مقاومة ما يولد عواملالطغيان .

❋ ❋ ❋

ولو أن الأبقار والأغنام وما اليها من الأنعام عرفت القوة العظيمة التى فى قرونها واستعملتها : اذن لساقت أمامها الذئاب والجزارين .. ولكنها فقدت موضع الشجاعة والتدبير فى نفسها فاستسلمت وخافت .

وكذلك من لا يفكر فى حقه وقوته الكامنة ، التى يستطيع أن يقـاوم بها الطغاة ويحملهم على احترام حقه والحق العام .. يكون قد فقد موضع الشجاعة ، وصارت له طبيعة البقر والغنم ، تساق للمذابح من قرونهـا وأعناقها وهى أعظم موضع لقوتها وبأسها !

وكذلك تقاد الشعوب الضعيفة رغم أنفها من أعظم مواضع قوتهـا وبأسها ، وهىقلوبها وأرواحها التى لم يجعل الله لأحد عليها سلطانا مهما بلغت قوته .

❋ ❋ ❋

« وبعد » فلا بد من التنبيه الى أمر ذى خطر : وهو افتتان الضعفاء بالأقوياء افتتانا يحملهم على الاستسلام لهم ونسيان حقـوقهموكرامتهم وخصوصـياتهم التى أرادها الله لهـم ، فيكون الأقوياء والمستضعفون كالغوانى المتاجرات وعشاقهن ..

فالغوانى يفتن الرجال بظرفهن ورقتهن وجمالهن ، ويخــدعنهم عن الحقوق والواجبات ، ويحطمن رجولتهم ، ويجعلنهم ينزلون عن كثير من كرامات الرجال فى سبيل هذا العشق المجنون الآثم !

ان « الرجل الأبيض » جميل ذكى ظريف عالم منظم يعشق ! يعشقه الرجل الملون المتخلف المستضعف الذى لم ينل حظه من العلم والسمت والظرف .. ولذلك نجد من يخالط الأوروبيين من الضعفاء يفتن بهم ، وقد ينكر دينه الحق ووطنه ومواطنيه فى سبيل ارضائهم والتقرب اليهم .. فكثير من مهراجات الهند مثلا ، وسادة الأمم المحكومة ، لا يســتطيعون أن يتركوا عشرة هؤلاء الحاكمين وأنسهم وكياستهم وتفتيحهم لحياة المتاع والفخفخة والتجميل ، لارضاء مواطنيهم من القرود والجاهلين والمنبوذين !

ودواء ذلك أن يسرع العقل المتخلف فى الأمم المستضعفة بقدر طاقته ، الى الأخذ بأسباب العلم والنظام والتدبير والفن وعلوم الجمال ، لســد النقص الذى يستطاع سده .

فاذا لم يسرعوا الى ذلك سوف يظلون على انكار بعضهم بعضا ، ولعن بعضهم بعضا .

فالأوطان هى أشخاص المواطنين قبل أن تكون هى السقوف والجدران والمرابع ..

الحرب وعبرتها

الطفرة تنتج النكسة ـ الديمقراطية هى مجرى التاريخ المختار ـ أول خطوة هى تغيير النظم الاقتصادية الجائرة ـ حرب ليست للاصلاح ـ لو فعلهـا هتلر ؟ ـ لو أدرك الانجليز والفرنسيون والامريكان ؟ ـ التقليد اليابسى الاعمى ـ الحرب هى الرد الوحيد على الجاهلية ـ احراق الغابة بثعالبها وذئابها ـ هل اعتبرت أوروبا ؟

سيكون فشل النازية وانهيارها كنزعة متطرفة فى الاستعلاء والتمييز العنصرى ، درسا بليغ الأثر يأخذ العالم الى أعظم دليل جديد على أن تحكم الفرد فى أمته ، أو تحكم الأمة فى الأمم ، ومحاولة تغيير مجرى التاريخ فجأة : لن ينتج الا الارتداد والحبوط والانهيار مهما بذل فى احكام الخطة من الذكاء والقدرة .

أجل ، سيعرف العالم من انهيار ألمانيا بآمالها فى سيادة أوروبا أن مجرى التاريخ كمجرى النهر المستبحر العظيم ، لايمكن تحويله بدون عمل عظيم بطىء يشترك فيه الناس جميعا لا أمه واحدة ، ويقوم قبله عمل وارهاص وتمهيد .

والديمقراطية فى الشعب الواحد ، وبين الشعوب المختلفة ، هى مجرى التاريخ المختار ! نعم فيه أقذاء وغثاء وقش منحدرة من قمم الماضى وأغواره ، ولكن هذا هو سير الحياة وسنة التطور التى شاء الله أن يسير تاريخ البشرية عليها .

والذين يريدون أن يفقدوا البشر فجأة جميع المعانى التى عاشوا بها زمنا هائلا ، وتكونت عليها قلوبهم وتطبعت أعصابهم ، بحجة اكتشاف نظرية علمية أو فرضية اجتماعية ، هم فى الواقع غافلون عن آثار آلاف السنين التى تركت فى أعصاب البشر وقلوبهم خمائر ورواسب .

---

(١) كتب هذا الفصل فى سنة ١٩٤١ .. ولم يتصرف فيه عند طبع الكتاب لاول مرة الا تصرفا يسيرا

ان هذه المعانى التى يراد من البشر التضحية بها وتقليب القلوب عنها فجأة ، هى التى رأينا فى ضوئها طريقنا الحالى وأفرغنا فى قوالبها ، وقام على أسسها بناؤنا المشترك فى جميع البقاع .

وأنا أدعو دائما الى التحرر من مواريث التاريخ السيئة ، ولكن طريق ذلك التحرر لا يكون بغير التدرج الطبيعى المدفوع بعوامل التربية والسرعة العصرية . ولا يمكن أن يكون طفرة . فذلك شرود عن سنن الطبيعة . ويجب لذلك أن نأخذ من البشر جميعا للبشر جميعا شريعة وحقوقا وطرقا عقلية متقاربة ترضيهم ويستطيعون أن يلتقوا عليها .

وان هذا هو زمن اخراج هذا الشىء الواحد ، أو هو تمهيد لزمانه فتجب المحاولة لوضع أسس لاخلاص البشرية لنفسها ، وادراكها وضعها .

ويجب مطاردة الفساد أن يسكن جسم العالم الجديد بمطاردة خمائر السوء فى النظم الاقتصادية الجائرة قبل كل شىء .

ولو أن « هتلر » وضع قوته الحربية العجيبة فى موازين السلام والاصلاح العالمى ، وعرض فكرة هذا الاصلاح بطريق التفاهم ، ودعا الى ذلك أمم الأرض فى مؤتمر ، وأنذر الانجليز والفرنسيين بعد أجل مضروب انهم ان لم يقبلوا شروطه المعقولة التى يوافق عليها ذلك المؤتمر المفروض ، فهو فى حل من اللجوء الى الحرب ، وأفهم الجميع أنه يطلب اصلاح العالم « كمصلح » ولا يطلب سيادة « جرمانيا » وحدها كزعيم قومى ، وأخرجها فكرة عالمية لا فكرة جرمانية قومية تؤمن بحق ألمانيا وتكفر بحق غيرها .

ولو أن الانجليز والفرنسيين كذلك آثروا الاستجابة لنداء الحياة ولحركة الانتقال السريع فى نفوس الأمم الصغرى والمحكومة بهم والتابعة لهم ، وأسرعوا وسبقوا المظلومين والمحكومين الى الترجمة عن ظلاماتهم ، وغيروا حظ كل هؤلاء ، وضمنوا لأنفسهم المكانة الكريمة بين أمم كريمة .

ولو أن أمريكا شعرت بمسئوليتها تجاه « أمها » أوروبا والعالم أجمع ، وتدخلت فى تعديل حياة السلام على أسس الحق ، كما تدخلت فى تعديل حياة الحرب لضمان مثلها العليا التى تعيش بها ، وكما نهضت للدفاع عنها بقوتها الهائلة وايمانها الصادق وكفايتها الممتازة ...

ولو أن اليابان اتخذت طريقا لاتساع نفوذها وسلطانهـا غير طريق الاستعمار الغـربى المبنى على القـوة ؛ وأفهمت الصينيين حسن نيتها وأشعرتهم أنها حريصة على مصالحهم وجنسيتهم القريبة من جنسـيتها . واجتهدت أن تضمهم اليها عن طريق الحب والثقة لا طريق العداء والقوة . واجتهدت أن تأتى للحياة السياسية بأسلوب جديد للفتح العقلى والنفعى غير أسلوب الاستعمار الغربى .

لو أن ، ولو ، ولو : اذن لانتقل الناس الى حيـاة أسعد بدون حاجة الى هذه « الجراحة » الفظيعة التى يجريها زعماء هذه المعسكرات لاصلاح جسم العالم وتطبيب علله كما يزعم كل منهم ..

ان كل زعيم يقف داعيا الى العدالة والسلام وقفة المسيح بن مريم .. بعد أن ذاقوا ويلات الحرب . وما كان أحوج العالم الى أمثال هـذه الدعوات فى زمن هـدوء الدم وتربع السـلام على عرشه فى دولة الفكر والوجدان .. اذا لكان هذا أوفر للمال والشـباب والجهود والطفـولة والشيخوخة والمساكن المترفة والآثار العزيزة النفسية التى أصابها الدمار ، ولكان هذا أدعى الى موت الأحقـاد التى ربما تكون قد زادت بهـذه الحرب وما يعقبها من نزعات الانتقام وتأريث العداوة .

وانى أرى الملام الأكبر يقع على أمريكا ، لأنها كانت تستطيع أن تكون فيصلا وقوة عظيمة تثقل كفة الدعوة الى الخيروالحق ، وتجمع حولها أمم الأرض المظلومة المحتاجة الى وصى قوى ومحام بارع مؤمن يدفع عنها اعتداء الأقوياء على حقوقها الطبيعية ، ويفهم الجميع أن ميزان الحيـاة لا يعتدل الا بترك كل أمة وشـأنها من غير تدخل الا فيمـا يمس النظام العالمى : اذن لكان هذا المال والثروات المصروفة هدرا فى اطعـام جوف الشـيطان بالحديد والنار والدماء ولحوم بنى الانسـان ، أسرع أداة فى ارضاء الأمم الفقيرة واقامة حياة رحبة هانئة للجميع .

ولكن يبدو أنه ليس من الممكن أن تتنازل الأمم والجماعات ــ مادامت بعقائدها الحالية ــ عن تقاليدها البالية ، ومواضعات حياتها الجاهليـة

بدون أن تصاب بمصائب الحرب التى تحطم كثيرا من أوكار الجهـالة والجمود والجشع والأنانية . حتى يمكن لمن يخلفهم أن يتنازل عن كثير من أنانيته ووحشيته فى سبيل حياة المدنية والاستئناس وضمان المصالح العامة للمجموع .

فهذا التنازل يكاد يكون مستحيلا لولا الحرب ، فان مصائبها هى التى تهون على الذين فيهم كثير من آثار الفردية ولم ترتفع نفوسـهم وعقولهم الى مستوى العلم والخلق الكريم الذى يفهم أن الانسـانية واحدة ، فيجب أن تكون مصالحها مشتركة غير متضاربة .

ونظرة صادقة الى كل ما أعقبته الحروب العظيمة بين الأمم أو الحروب الصغيرة فى الأمة الواحدة كافية لادراكنا أن أغلب النظم الصـالحة كان يصيبها الاتساع والشمول والنظرة الرحبة عقب كل حرب .

ويصح أن نقول ان النتائج السياسية الواسعة كانت دائمـا تظهر فى المعاهدات التى كانت تعقب الحروب العظيمة .

فالحرب دائما كانت وسيلة لتقليم الغابة البشرية من كثير من الأشواك والشجيرات الميتة والطفيليات والثعالب والذئاب التى لا وسيلة للتخلص منها فى بعض الأحيان الا باشعال الحريق فى الغابة كلها ..

ولولا هؤلاء الساسة والماليون الذين لا ضمير ولا فكر لديهم فى وضع الانسانية ومستقبلها وغايتها ، وهم المسيطرون الحقيقيون على الاجتماع ، لكان من الممكن الانتقال من مرحلة الى مرحلة أفضل عن طريق الاقنـاع و « معارك السلام » .

ولكن أنانية هؤلاء وضيق آفاقهم وانتقال أساليب الجاهليـة عن طريقهم الى الحياة ، هى التى تعوق هذا الانتقال الهين ، وتحتم الانتقـال عن طريق العنف والتحطيم .

وأحسب أن نفوس الأوروبيين الذين دمرت حيـاتهم بهذه الحرب والتى قبلها بربع قرن ، سوف لا يجدون فى أنفسهم ، لو اتعظوا ، غضاضة من أن يتنازلوا عن شىء من حقوق قومياتهم الضيقة ، ونعرات أجناسهم

ولغاتهم وعقائدهم : وسوف يسيرون نحو تقارب يكفل عدم التصادم ، وتوزيع المنافع والأقوات والمصالح .

وما كان لقوة اقناعية أخرى غير الحرب أن تحملهم على ذلك ؛ بعد أن شملتهم فى السنوات العشر الأخيرة موجة من النعرات القومية والخيلاء العسكرية والمنافرات الجنسية ، وسرت منهم الى الأمم التى تتصل بهم ، حتى الأمم المستضعفة الجاهلة قد أصابها ذلك الادعاء والهتار .

فهذه الحرب كانت ردا سريعا من الأقدار ومن طبيعة الحياة الاجتماعية الحالية التى لم تعد تحتمل الطيش القـــديم . وان عدنا عادات بأسلوب جديد . وما أدراك ما أهوال الحرب بأسلوب جديد !

نحو أساس روحي للحضارة المادية

بين الوعى والذهول

رحلة فى حيوات الناس ـ صيحة فى أذن الانسان ـ لو ، ولعل ، وربما ـ لا ملام على الاقدار ـ لم تفت الغاية ـ نقطة البدء فى الحياة الفكرية ـ الجناية الاولى ـ حادث عظيم ـ آثار من الوثنية ـ الوضع الاصيل للدين ـ ديانة الحياة .

حينما أعس وأندس الى مجلس فى حان صغير أو مقهى حقير : أرقب الحياة الانسانية فى بعض جوانبها ، وأتفرس فى وجوه القوم ونواصيهم ، وأتسمع الى أحاديث دنياهم وآمالهم وأعمالهم ، وأتتبع نظراتهم للحياة فأجدها لا ترتفع الى شىء سام ، ولا تدور حول قضية من القضايا العليا للحياة ، ولا تفكر فى مبدأ أو مصير ، ولا تتساءل عن صلاح أو فساد .

وحينما أقذف بجسمى فى زحمة سوق من الأسواق بين ضجيج الحركات والأصوات والأبواق ، وصفقات الأيدى الخاتلة على الأيدى المختواة فى العقود والمبايعات ، وسائر الارتفاقات والمشاحنات .

وحينما أرصد حياة الأفراد اليومية ، فأجدها سلسلة من الغفلات والأكلات واللذات والأعمال الآلية التى لا استحضار فيها لمعان كريمة ، ولا يقظة فيها الى أسرارها ومآل الانسانية بها ، وانما هى دورات رحوية وسير أعمى وراء دولاب الحياة من غير سؤال : الى أين المسير ؟

حين هذا كله ، أجد فى نفسى كأن الانسانية عريقة فى غفلتها وذهولها ، وكأنها خلقت لهذه الغفلات ، ولن تكون لغيرها ، ولن تكون لحياة أخرى وراء هذه الحياة ، وكأنها منفصلة عن حياة الطبيعة الجادة الواعية العادلة الموزونة انفصالا يكاد يجعلها عالما مستقلا .

ذلك وحى رؤيتى لغفلات الناس وانقطاعهم عما يدور فى الأكوان ، واهمالهم التفكير فى مبدأ الحياة ومنتهاها ، وفى خفايا الطبيعة وأسرارها .

وحين أجلس مجلسا تثار فيه الأفكار عن الكون والفساد ، والحقائق

والأباطيل ، وتصول فيه العقول ، وينبرى بعضها لبعض بالاعتراض والرد والتعليق والتشقيق والبيان الساحر والحجج اللاقفة .

أو حين أقرأ كتابا يعرض فكرة من أمهات الأفكار ، ويسيل به سيلها فيفيض على الفكر والفؤاد .

أو حين أرى آلة معقدة التركيب تطير أو تسير أو تخفق بالأصوات والبرقيات ، مما أخرجه عقل مهندس ذى قدرة على الاستيعاب والتقليد والابتكار .

أو حين أرى شيخوخة جليلة واقفة فى محراب تتلو صلوات أو ترتل آيات فى اطراق وخشية واستحضار لعظمة الكون وجلال بارئه .

أو حين أسمع نشيدا من شاعر ذى قلب اتسع وتيقظ للأحاديث الصامتة والناطقة فى الطبيعة ، واسترق السمع للنغم الذائب فى الكون والموسيقى الأبدية فى حركات نجوم السماء ونجوم الأرض .

حين هـذا وذاك وذلك أقول : هنـا موضع تكريم هـذا الجنس ومؤهلات خلافته !

هنا الانسانية التى تقنع العقل الحائر بقيمته وقيمة الطبيعة وقيمة الخير والحق والجمال !

هنا وضوح وانكشاف لمعنى سيادته ، وملكوت واسع يصح أن نستند اليه فى تخيل مستقبله ، وفى تبين موضعه وسط ما يعمر الكون من المخلوقات .

ثم أهتف : أيها الانسان ! تيقظ لنفسك لتفرح بها .. تيقظ أنك حى تسعى وترى وتفكر وتتجه أى اتجاه تريد وسط الظلام والجمود والصمت والبكم والصمم والعمى .

أنت الذى تفقه وتدرك تلك الحياة التى لا تجـد غير عينك وأذنك وسائر حواسك .

تذكر أنك المقصود بكل هـذا الذى يحيط بك ، وأنك خليفة على مقدرات الأرض ، وأن فى يدك قوة من قوى التعمير والانشاء والتوجيه والتغيير والتنويع والتفريع ، وذلك شرف عظيم !

تيقظ واهتف فى سمع الزمان والمكان : أنا أنمــو وأترقى وأتكلم وأفكر ، وليس أمامى حدود وسدود أيتها الخلائق الواقفة المحدودة !

واجلس بجانب الجمــاد والنبات والحيوان فترات ، لترى الفوارق بينك وبينها .. ولن يغفر خالق الانسان لامرىء جاء الى الحياة ولم يجلس مجلسا بين هذه الكائنات يوازن بينها وبين نفسه ، ويحدد موضعه منها . ثم يرفع عينه الى السماء ، ويخفضها الى القبر ، حتى يرى الطريق بينهما .

تيقظ الى الذى مسنا بالحياة ونحن نجهلها ونجهله ، وأخرجنا ذاهلين الى ضحى النهار وسواد الليل ، وأرانا مشاهد ثابتة صارمة فى السماء ، ومشاهد مرنة متغيرة فى الأرض ، وبدأ حياتنا من نطفة ، ومط أجسامنا من مضغة لحم ملقاة فى ظلمات الأرحام ، الى أجنة مكتملة التخليق ، الى أطفال دارجين ، الى غلمــان يافعين ، الى مراهقين متفتحين ، الى شبان مشبوبين ، الى كهول وشيوخ منتظرين لا يعلمون وراء أيامهم أياما .. !

الى الذى أدار الشمس أمام عيوننا دورانا يبلى فى أجســامنا نسيجا وينسج آخر ، ويزيد فى أفكارنا صورا وينقص أخرى ، ويطــوى الأيام تحت أقدامنا ســفرا فى الزمن ، ثم يطوينا بالأيام عضوا عضوا وذكرى وراء ذكرى !

الى الذى فتح فى نفوسنا نهما لا يشبع من أطايب الوجود وحقــائق الوجود ، ثم سجننا فى سجون القبور الى يوم النشور .

لقد أدخلنا الى هذه الدار لنبحث عنه فى عالم الفكر ، وننتظره وراء الأستار ، ونقرع باب الزمان والمكان فى غرة كل يوم وطلعة كل مســاء ، نسائل عنه ، ومعنا عيون تقود ، وأقدام تسير ، وقلوب تتلفت وراء كل ورقة فى كل شجرة ، وكل ذرة فى كل مدرة ، وتنظر فى الوجوه والعيون والألسنة ، وما يزحف ، وما يمشى ، وما يطير ، وما تحمله الريح ، ومايحمله الماء والأثير ، وما تحمله قوة القوى : الفكر !

وى ! ! أية غفلة هذه التى تغشى الناس وتتركهم عميا ذاهلين عن مجىء الحياة بهم من غير اختيار الى دار العجائب ، وعن سيرها بهم الى دار

المجهول ، وعن سير الشمس والقمر ، وتوارد الأيام ، وسقوط الأمطار ، وأسفار الرياح الى مختلف النواحى !

ثم أية غفلة هذه التى تغشى عقولهم وتصرفها عن الفكر فيمن جاء بهم وسيذهب ذلك الذى استتر وأصر على تكبره واختفائه !

ولو دخل الانسان الدنيا بكامل نفسه وفكره حين يولد ، ولم يدخلها فى غيبوبة الطفولة وذهولها وتدرجها به من البسائط الى المركبات الى المعقدات ، وهو فى شغل عن الأسباب والمسببات : اذن لربما خرج منهـــا مجنونا بمجرد دخوله اليها ، من شدة الفجأة ودهشة العجب !

ولعل الحياة توطد نفسها فى نفس الانســـان فى زمن ذهول الطفولة ليطيق احتمال أمانة الفكر ، وليعيش بعد ذلك فى نصف شعور ، وليحتمل ما عساه يلاقيه من الدهشة والتناقض .

والانسان هو نتيجة انطباعات قوى الكون فى ورقته الحساسة وهى المخ .. فلا بد من مرور زمان قبل الادراك الــكلى وبلوغ الأشد حتى يتأتى للدنيا أن تدخل الى ذلك المخ العجيب . وبعــد بلوغ الأشد يبدأ الادبار والانحدار ، وحينئذ يجب الحذر والبدار قبل النهاية الآتية .

ولعل الله الخالق المبدع شغل أكثر الناس بصغائر الحياة والنزاع عليها وجعلهم كالقطيع الغافل المرتاح السادر فى غفلته وعماه عن المعلوم والمجهول من أمور الحياة ، وأخرجهم فى خطوط مرسومة وحلقات مفرغة ليعملوا فى الأرض كما تعمل الثيران فى الطواحين .. تدور وهى لا تعلم أنها تدور ولماذا تدور .. وضربهم بفتنة الدنيا ، فزاغت منهم الأبصار عن الحقائق الا فى فترات الدين والصلوات .. وحتى هذه أدركوها وهم فى خمار المادة وسعار الشهوات ، الا قليلا منهم ، وهم العارفون المدركون لأرصاد الطبيعة وشىء من تدبير الله فيها ... لعله فعــل هذا ليخفف عنهم دهشة الفكر فى أعاجيب صنعه التى كلما زاد فيها الإنسان تفكيرا زاد حيرة ! فهم لا يحتملون هذه الدهشة ويصبرون عليها كما يصبر العارفون .

وهؤلاء العارفون لو اطلعوا على الغيب لاختاروا الواقع وانصـــاعوا

تحت حكم الأقدار ، ولو فى مقارفة الأضرار والأوصاب . اذ قد عرفوا أنهم لا بد أن يخضعوا ليشتركوا فى حبك الوسيلة التى أرادها الخالق المبدع لأطفال الحياة الذين هم جمهور الانسانية العاملة التى عليها عمار الأرض بالأسلوب المادى المعروف .

وربما كانت غرائز القطيع العنيفة هى التى تنمى حركة الحياة الدنيا وتوسع آفاقها ، كما ينمى عنف غرائز الطفل مستقبله ويوسع من آفاق حياته .

اذن : فلا ملام على الأقدار التى تدبر كل شىء وتضعه بميزان ، ولا يجوز مطلقا أن تتوهم أن حياة الانسان بما فيها من أزمات ومآثم ، قد خرجت على الأقدار ، وأنه قد فاتت على الله الغاية من خلق هذا النوع — كما توهم بعض من أشرت اليهم سابقا (١) — فان الانسانية لا تزال فى دور تفتح المدارك وعقابيل الشباب ، والشباب فيه اوثات كثيرة ؛ ولا بد أن تتدرج الى أدوار الرشد الخالص فى كهولتها وشيخوختها ، وأن تحقق الغاية الكاملة من خلقها كما أرادها ربها .

وكل مآثم الحياة الانسانية وأزماتها قد تغتفر ويجد الفكر لها تعليلا الا جحود خالق العالم أو الاشراك به !

وكذب من يريد خديعة نفسه ، وخديعة الطبيعة ، وخديعة رب الطبيعة .!

ذلك الذى يريد أن يفرض للحياة الفكرية الانسانية مبدأ غير « نقطة البدء » التى يراها الفكر أول حياته ومفتاح عالمه .

كذب وضل ضلالا بعيدا ، وخسر خسرانا مبينا ، وقلب الحياة على أم رأسها وأم رأسه !

ان نقطة البدء فى الحياة الفكرية ، هى الفكر فى بارىء هذا الكون الكبير الهائل الذى خلقنا منه وأسكننا فيه من غير اختيار منا .. الفكر فيه حتى نعرفه ونؤمن به وندرك طرق تسييره للحياة والطبيعة ، فنسير على خطواته وسننه .

---

(١) انظر صفحتي ٤٩ ، ٥٠ .

انه مجهول للحواس ولكنه معلوم للفكر . وقد رأينا ظل يده يقع على كل شىء ، ويضع كل شىء فى موضعه .

ومن أضل ممن يأخذ أطفال الحياة أول نشوئهم ، ويباعدهم عن نقطة البدء هذه ، ويضعهم فى مكان سحيق ، فيستمر أول الطريق عندهم مجهولا ، وآخره مجهولا ، ووسطه مختلطا مشوشا !

الجناية الأولى هى اهمال الفكرة الأولى : وهى السؤال عمن جاء بنا الى هنا ، ويمضى بنا كعابرى سبيل .

ومن وراء الجناية الأولى تتلاحق أخواتها التى تجعل الحياة أغلاطا مسلسلة .

***

ان انفصال جنين انسانى من رحم أمه حادث عظيم ينبغى للانسانية أن تتلفت اليه وتوليه أجل عناية ، فلعل فى الوليد حلقة جديدة فائقة تحمل سرا جديدا من أسرار تكوين هذا النوع .

ولكن الانسانية أو الدولة تجنى على نفسها ، اذ تهمل وصل عقل كل ناشىء بمفتاح الحياة . ومفيض فيضها ، ومرسل رحماتها .

وكأن الوثنية لم ترتفع بعض آثارها من الأرض للآن ... لأن من ألوانها انصراف العقل الانسانى عن الفكر فى رب العالم وما يليق به من الكمالات ، وعن شكره الدائم ما دامت آلاؤه وفيوضه تملأ النفس بالحياة وتتواتر على الجسم .. ثم الركون الى حجر أو بشر أو شىء من الأشـياء ينسى الانسان معه رب الحياة ، ويستغرق فى ذلك النسيان ، حتى يتعبد ويلوذ بما ركن اليه .

وها نحن أولاء نرى فى هذا العصر آلهة منصوبة من المتاع والشهوات والآلات والأعمال والصناعات ، يستغرق عقل الانسان فيها حتى ينسى واهب الحياة ..

قد يظن ظان أنى مغال فى الروحية حين أدعو الى أن يكون عقل الانسان دائما مرآة لشعاع ساقط من سماء الله .

ولكن هذا هو الوضع الأصيل الحقيقى للدين على ما أفهمه . وعلى ما فسرته به فى مجال آخر : من أنه الاحساس الدائم بالحياة ، والفكر فى مبدعهـا ، لتكون لذاتها وآلامها وأطرابها وأوصـابها صورا وألوانا من العبادة .

والاسلام الذى هو دين الطبيعة ودين الحياة ، رسم لنا هذا حين سن رسوله أن يذكر اسم رب الحياة عنـد الأكل والشرب والجماع وسائر الأعمال واللذات والآلام . حتى عندما يريد الانسان أن يدخل المكان الذى يخرج فيه مافى جوفه من الأذى .. !

وان يكون الدين غير هذا التذكر الدائم .. فليحمله فى نفسـه من شاء وليتركه من شاء .

* * *

ألا انها « ديانة الحياة » التى تستحق وحدها أن يحيا الانسان بها : ويسعى جاهدا فى سبيلها لتحقيق غاياتها .

وغاياتها : العقيدة الثابتة التى لا تتزعزع بخالق الحياة الواحد .

وحفظ الحياة نقية قوية متجددة كما هى فى الطبيعة .

ورصد قوانين الطبيعة التى تسير الحياة بنظام دقيق فى الجليل والحقير .

واستخدام تلك القوانين لصنع موجودات جديدة على النماذج والأساليب التى فى الطبيعة .

وعدم الغفلة والذهول حتى لا نرى اليوم كأمس ؛ فلا يكون الزمان عندنا يوما مكررا مساولا ، ولا يكون احساسنا بالحياة واحدا فى مراحل عمر الفرد وعمر الجماعة . فان ذلك احساس جسدى فقط بالحياة ، ووراءه احساس فكرى روحى عند من لهم اخلاص الفكر فى الكون .

أولئك الذين يرون أن كل يوم جديد .. ثم يسبقون الحياة والزمن .. ثم يموتون ليولدوا مرة ثانية من بطن الدنيا ليروا مشاهد أخرى جديدة ، فان العالم لا ينتهى مداه عند رؤية النفس والأرض والنجوم .

وان الذى صنع هذا العجب الذى نراه ، لا بد قد صنع غيره لا نراه !

صوفية مادية

تمجيد واصل الى من له المجد ! ـ دنيا المهندسين ـ موقف لصلاة جامعة ـ الى المعتمدين على المباحث الروحية ـ نتائج لقانون التسلسل والترقى ـ فرضية لابد منها ـ اشارة قرآنية عجيبة ـ ضروب من العقول ـ أدوار المعرفة وادوار العلم ـ انسانية الشرق المضيعة ـ العلم دين ـ أين العصا السحرية ؟

ينبغى أن أقول لمن عساهم يخشون من مغالاتى فى تقدير قيمةالانسان وماصنعه من الآلات التى فاقت بآلاف الأضعاف قدرة الحيوان وقدرته هو على العمل والاحتمال والانبعاث والسرعة والدقة فى الحسابوالرصد وقياس الدقائق وابراز الخفايا وجلب المنافع والأضرار : اننى لا أبغى من وراء ذلك الا لفت أنظار الغافلين الى قدرة الفكر البشرى والىوجوب تمجيده عن السفساف الحقير من التصرف ، واطلاقه يرود وينظر ويعمل فى ملكوت الطبيعة .

ولا أقصد بتمجيد الفكر الانسانى الا تمجيد بارئه وواضع أسراره فى هذا الجسم المحدود الضئيل .. فلا يتوهمن متوهم اننى سأخرج بغلوى فى تمجيد الانسان الى شىء أشبه باشراكه فى الخلق والايجاد ، فاننى قد حددت هذا النوع فى فصل سابق ، بأنه آلة فى يد البارىء يتمم بها التنويع والتفريع فى خلق المادة وتصويرها .

ولا يسعنى غير هذا ، بعد أن رأيت وفكرت فى أعمال تلك الطائفة المجيدة التى لم يلتفت الى وضعها فىالحياة بعد ، ولميعرف لها خطرها فى تحقيق الغرض من خلق النوع ، ولم ينظر اليها ولم تنظر لنفسها نظرا روحيا ... وأعنى بها طائفة المهندسين ... أولئك الشعراء الصامتون الذين يرسلون قصائد مجسمة ، ويفعلون الأعاجيب من المواد المبعثرة المشوشة المختلطة الملقاة بدون نظام وتنسيق ويقيمون منها هذه الأشكال الموزونة المصقولة المنوعة ، التى عملت فيها آلاف العقول والأيدى بالتلوين والتزيين

والاخراج الفنى الغنى باللفتات الذهنية ، واليقظة لألوان الشفق وأفواف الزهر ، ومزج الأضواء والظلال ...

أو يقيمون أجساما آلية تنبض بالنار والبخار ، وتسعى بهما أو بالكهرباء ، وتضيف الى عالم الحركة فى الأرض قوى أخرى تملأ سمع الزمان مع كل ما يدور فوق وتحت ..

أولئك الذين تسير أعينهم على مواقع يد الله ، يلقطون أسرارها من غمار الحياة الزاخرة ، وعباب المائع و « المتبلور » والجامد ، ثم ينظمون كل هذه الأفانين ويتخذونها أساسا لقوة التقليد وقدرة الابتكار التى فى أفكارهم وأيديهم .

أولئك الذين يسيرن على أسلوب الله فى العمل ، ويتلقون فيوض المواد والقوى الطبيعية من يده الكريمة ، فيقسمونها ويوزعونها ويتمون ما أراده فيها ، ويجلون ما أخفاه فى أطوائها وثناياها ، ثم يضعونها فى الأرض مجملة منسقة متاعا للعيون ، ومثابة للأجسام ، ومظهرا وتأويلا لأحلام الروح فى عالم الجمال .

ولن ينتهى العمل الهندسى للانسان فى الأرض الا بعد أن يملأ شعابها وهضابها وهواءها وماءها وسهولها وأوعارها بآثار يده وفكره ، فانه مخلوق برهن على أنه يصلح للعيش فى اليابس والماء والهواء ، وأنه لا شىء الا وهو واجد فيه حقلا ليده يعمل فيه ويأخذ منه .

واننى ما أسمع صوت قارىء يتلو كلام الله فى تمجيد ذاته العليا فى محطة الاذاعة ، فتردد صوته جميع آلات الالتقاط فى جميع الأنحاء وتبث ذلك التمجيد الى زوايا الدنيا وأركانها وطبقات الجو ، الا أحس أن الانسان ابتدأ يهز الأرض والكون كله برسالته وعبادته ، وينطق بها الجماد ، ويسمع بها على رغم الأبعاد ..

***

تلك روحية مادية حديثة ، ينبغى أن نكون من مظاهر التدين فى هذه العصور التى تسير فيها المدنية المادية بحياة الانسان فى ساعة واحدة

أضعاف ما كانت تسير به مدنيات العصور السالفة فى عشرات السنين .

نعم ان أصول الدين الحق واحدة ثابتة لا تتغير ، ولكن ينبغى ألا نكون جامدين متحجرين فى طرق العبادات ، فنفهم أن عباداتنا قاصرة على الأشكال الموروثة ، بل يجب أن تكون انتقالات العلوم بنا سببا فى أن نعبد الله بها ، وأن يزيد فكرنا فيه من أجلها . وتلك عبادة مطلقة من قيود الطقوس والرسوم والأشكال .. عبادة يستطيع أن يقوم بها من يسير بسرعة آلاف الأميال فى الساعة ، ويرتفع الى طبقات الفضاء العليا ؛ وينخفض الى أعماق البحار السفلى ، ويتنفس فى أقصى الشرق فتسمع أنفاسه فى أقصى الغرب .. ذلك الذى يستطيع أن يترك فى كل مكان كلمة تشهد بالله وينطق بها الأحجار والأشجار والماء والهواء ..

فهنالك ، بين العلم المادى والاستغراق الروحى ، يجب أن يقف الانسان الحديث ، يناجى الله وفى قبضة يده مفاتيح أسرار المادة ونواميسها ، وفى قلبه صلاة دائمة جامعة .. !

***

وهذه الروحية المادية تمجد العلم المادى والعمل به ، وتخضع لدولة الأجسام ولا تثور عليها ، ولا تعطل قواها بل تنميها ، لأنها تعرف أننا ما خلقنا فى عالم الأجسام الا لنعلم قوانينها ونؤمن بها .

وينبغى أن نقول هنا للتاركين للعالم المادى الظاهر ، المنصرفين عنه الى مباحث الروح ، الذين يفرحون اذا عثروا على حادثة غريبة لا يستطيعون تفسيرها تفسيرا ماديا ، ليتخذوها حجة على وجود قصد وعالم آخر وراء هذا العالم المادى : ان ما تغرمون به وتنفقون حياتكم من أجله ، لا يصح أن تنصرفوا اليه وحده فى الاستدلال ، لأنه لا يبلغ الآن الى عشر معشار الحجج التى تستطيعون أن تأخذوها من ذلك العالم الظاهر الملىء بالعجائب والمعجزات التى لا تحتاج العقول معها الا الى حركة ارتداد الى مبادىء الأشياء ، والا الى اليقظة الدائمة لمراقبة كل شىء والدوران حوله ، ولأن ما بين أيدينا وما خلفنا ملىء بالعجائب التى

يراها كل فرد ويخضع للمنطق المستمد منها كل سليم الطبيعة غير شاذ ولا شارد . « وكأى من آية فى السـموات والأرض يمرون عليها وهم عنهـا معرضـون » .

فنحن نسـتطيع بجهد فكرى قليل أن نأخذ من هذا العالم المـادى الظاهر ، أدلة كثيرة على أن وراءه عالما آخر ، بل عوالم أخرى مجردة من قيود حياتنا هذه ، ولو لم نر من ذلك شـيئا ... فان الرؤية ليسـت هى الطريق الوحيد الى التصور والحكم .

والنظرة العلمية المبنية على ادراك قانون الترقى وقوة التطور ، تبين لنا أنه ما دام قد وقف الادراك بواسطة جسم من الأجسام عند حد الانسان بعد أن تدرج اليه فى سـائر أنواع الحيوان ، فـلا بد أن يكون وراء الانسان أفق حياة عاقلة أخرى ، هى بطبيعـة سلم الترقى مجـردة من الأجسـام . وكما أن هذه الآثار والمشـاهد البارعة التى نراها فى العالم المادى نتيجة لعوامل خفية نوعتها وشكلتها ،فلا بد أن يكون فى غير الأرض آثار ومشاهد أخرى هى نتيجة لعوامل ونواميس أخرى غير التى كان من نتائجها ظهـور عالمنا الذى ندركه بحواسنا . وهذا هو اللائق باتسـاع الكون الذى أرضنا فيه كذرة رمل فى صحراء ، فلا يصح أن نتخذ أساسا واحدا للحكم على جميع ما فيه .

وهذا حكم نحكمه خضوعا للفرضية الآتية التى تحل لنا هذا الاشكال وان أوقعتنا فى غيره .

تخيل انسانا خرج الى الحياة أعمى أصم أبكم معدوم اللمس والشم ؛ فهل مثل هذا يكون لعالمنا وجود عنده ؟ بالطبع ، لا . ولكننا مضطرون الى أن نحكم أن عالمنا هذا موجود ، ولو لم يوجد فى حواس هذا الممسوخ

وكذلك نحن مضطرون الى ان نحكم أن وراء عالمنا هذا عوالم اخرى ولو لم توجد لنا حواس تدركها ؛ لان هذا هو الذى يتلاءم مع اتساع الكون ، واتساع قدرة المسيطر عليـه ، واتساع عالم الفروض والصور فى بعض العقول .

وقد أشار القرآن الى معنى عجيب ينفتح معه خيالنا ويأخذنا فى عالم لا نهاية له من الفروض ، ، وان كان لا طاقة لنا بادراك ما فيه من الصور . قال تعالى : « أفرأيتم ما تمنون ؟ أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدرنا بينكم الموت ، وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون » .

* * *

وما تحته خط هو موضع النظر الطويل ، وباب للخيال المجنح .. ولكنه خيال مطموس الصور ، لأنه لم يجد أصباغا وألوانا ينتزع منها ما يريد أن يؤلفه ويركبه ويفتن فى تهاويله .

وكيف ذلك وقد قالت الآية : « فيما لا تعلمون ... ! »

* * *

لا يصح لمن لم يدرك أن ينكر على من أدرك ، فان جوانب الكون واسعة ، ورسالات علم الله الى العقول كثيرة ، وليست كل العقول قادرة على الغوص فى أعماق الكون ، كما أنه ليست كل الأجسام قادرة على الغوص فى أعماق الماء . فمن لم يستطع السباحة والغوص فى اللجج والرجوع الى الشاطىء ، فليلزم وليحذر ، حتى لا يغرق ويذهب فى أهوال المعانى .

وما فى العالم « المتبلور » شىء قليل بالنسبة للعالم الذى تلتقى فيه أمواج المعانى ، ويعب عباب الفروض والغيوب والرموز ، ولكن ما فيه لا يكون أساسا لأحكام الحياة الدنيا .

وعقل الانسان كطفل الأم : ينبغى ألا تطلقه فى المخاطر والمزالق الا اذا شب وكانت له قوة واقتدار .

ومن العقول نوع لا يعيش الا فى أعماق الكون ، فاذا طفا على السطح وأخذ بظاهر الحياة ، اختنق وقلت فيه الحياة ، كالسمك الكبير ..

ومن العقول ما هو مساير لظاهرة الحياة ، لا يتخلف عنها ولا يتقدم .

ومن العقول ما هو واقف متخلف انقطعت به الطريق ، فلم يصل الى العالم الفكرى الموجود الآن فى أذهان الأمم المتحضرة ، وهذا عقل محروم فاته كثير من رسائل الله الى الفكر الانسانى .

ومن العقول ما هو أسرع من الحياة ، بحيث يرى مشاهد آخر ساعة فيها كصور مكررة قديمة لا تثير فى نفسه تطلعا ، فلو خرج من الحياة لم يخسر شيئا ولم يفته شىء ، وهذا هو العقل الفائق السابق .

والنفس اذا عرفت قرار الحياة وأصولها ، لم تبال بما يحدث فى فروعها من تلون وتبدل . وما عند هذا الصنف من صور كمال الحياة ، أرحب من الموجود وأكمل ، فهو يسير فى مستحدثات الأيام كما يسير المرء فى طريق معروفة له تردد عليها مرارا ، من كثرة تفكره فى الموجود والمعدوم وما يصح أن يوجد .

وهذا قد يعمل فى الحياة بجد وصبر ، ويسير كما يسير الغافلون بدفعة دولاب الحياة ، وطواعية لحركات سيرها بالناس ، وخضوعا لقانونين عظيمين من قوانينها : وهما الأمل والعمل ...

وهكذا الطبيعة ، رسالات من علم الله الى الفكر الانسانى العام ؛ يتلقاها كل عقل حسب طاقته واتساع حوزته ، ويأخذ منها ما قدر ويسر له .

فينبغى لمن لم يدرك ألا ينكر على من أدرك .. ينبغى لرجل الشارع ألا يجادل فى عالم « أينشتين » أو « أديسون » أو « الغزالى » ومن اليهم من العقول الفائقة التى أطلت على الأرض ، وكانت فيها كالثمرات التى تلقط أسرار نوعها وتحفظ بذوره وترقيها .

* * *

وبين الاله البارىء الكبير وما عنده من عوالم المعانى والقوى المجردة والكمالات التى لا تتناهى ، وبين عالم المواد والكثافات ، وقف الانسان التائه المتأمل الساعى وراء المعرفة حينا من الدهر ، لم يتقدم فيه خطوات كثيرة ، ثم انقسم فريقين ، فريق استمر فى التفكير المجرد فى الطبيعة

وما وراءها ، وأدرك بعض اتجاهات الكون باللمحات والنظرات الشعرية الخاطفة ، وقنـع بذلك حتى خرج من الحيـاة « عارفا » غير « عالم » ولا « عامل » ...

وفريقا أعياه التفكير المجرد ، ولم يجد له محصولا يملأ يديه ، ويشهد له الناس بأنه أدركه وقنصـه ، فانصرف الى أنواع الحيـاة فى الأرض وأشكال المادة ، يعبث فيها ويدور حولها ويخرج أسرارها حتى « علم » ثم أخذ يقلد ويبتكر .

وكما أن الأقدمين كانوا ينظرون الى أعمال الطفولة وحب استطلاعها الأشياء ، على أنها عبث ولعب لا طائل تحته .. كذلك نظر أكثر الكهنـة الى أعمال الرجال فى المادة وتنويعها وملء الحياة بضجاتها وأصواتها ، على أنها عبث ولعب ولا يليق بمن يسير الى الموت والفناء . وكان المثل الأعلى للحياة الصالحة عندهم أن يطلق الناس أعمال الدنيا ، ويذهبوا الى المعابد والمعاهد ، يتلون « الأوراد » ويفلسفون وينظمون الأشعار المتشـائمة ؛ ولا يرفعون فى الأرض حجرا على حجر ، فيكونون عنصرا مستهلكا غير منتج ، يأخذون من الحيـاة أغذية وأعمـالا ، ولا يعطونهـا الا أقوالا وأشعارا ، ويقفون فى طريق تحقيق بعض الغايات الكبرى من خلق الانسان،

هؤلاء لا تزال منهم بقايا كثيرة فى الشرق ، وهم الذين جعلوا انسان الشرق لا يزال أكثره كأكداس الحصيد وأهراء الغلال التى تترك فى أماكنها حتى تقتلها الآفات وينخر فيها السوس .. وهم بذلك يضيعون على الانسانية ثروات تحصل عليها من تشغيل أفكار هؤلاء الملايين وأيديهم . وهم بذلك يتركون الناس من غير تنسيق وتنظيم فى الحشد والتعبئة للمعابد والمعاهد والمعامل والحقول والجيوش .

هؤلاء ينبغى أن يزيلوا عن عيونهم غشاوات القرون الأولى ، ويعدلوا أفكارهم على مقتضى ما توحيه سنن الله الدقيقة التى تجعل من تصرفات جميع قوانين الطبيعة فى وقت واحد لحنا موسيقيا متسقا يشترك فى توقيعه كل شىء ، ويعلموا أن الكفر بعلوم الطبيعة والفسق عن نظمها ، كالكفر بالعقائد الصحيحة والفسق عن نظم الأخلاق .

ان الايمان بالعلم وتنظيم الحياة الانسانية بطرقه ، واطلاق الأفكار فيه ، هو الأمر الواحد الذى ينتظم الانسانية جميعها ، وتلتقى عليه بأفكارها وأيديها ، وقد جعلها تلمس عرشها المرموق ، وتعرف دولتها المأمولة فى مستقبل الحياة .

ولكن أين « العصا السحرية » التى ستفعل فى تعديل شهوات الأمم وغرائزها وتعصباتها الذميمة ، بحيث تجتمع على خدمة العلم والحياة بأفكارها وأيديها ؟

ذلك ما يسأل عنه رجال التربية ، والمفكرون فى الدين والاجتماع . رجال التربية « فلاحو » حقول الطفولة : منطقة النمو الدائم و « علب » أسرار المستقبل .

ورجال الفكر رسامو المثل العليا ، القادرون على استدراج الناس اليها وسجنهم فيها ذلك السجن المحبوب ..

ولكن هؤلاء وأولئك مايزالون بعيدين عن مقاليد الحكم وتسلم مقاود القطيع ، بينما مكانهم هناك لو صحت الأوضاع . وما يزال محترفو السياسة والدجاجلة بها ، المتخلفون عن بلوغ القمة فى الفكر والخلق ، هم الغالبين المتسلطين كما بينا سابقا .

وهؤلاء هم سر البلاء النازل الآن بالناس ، كما كانوا فى القديم .

الباقى من صانع الحضارات الفانى

اختزان المعانى الكبيرة ـ « العدسة » الخفية ـ التعجب مدخل التعبد ـ التعبد هو الغاية .

ما الذى يبقى من الانسان ابن الفناء صانع الحضارات ؟

أهو أن يصنع صورا فكرية وحضارية ناتجة من مزاوجة فكره بالمادة ، ثم لا شىء وراء ذلك ؟

وأين محصول النفس من المعانى التى يدركها فتكون ذخيرته فى نعيم الحياة أو جريرته فى شقائها ؟

أين المعانى الكبيرة التى يأنس بها الناس فى الحياة ثم يختزنونها فى ألفاظ تتلى وتنشد ويصلى بها : كالايمان . الحرية . المجد . النجاح . السيادة . النبل . المروءة . الحق . العدالة . الاخاء ، وهلم جرا ؟

وأين أضداد هذه المعانى الكبيرة من المعانى الحقيرة التى تلهب القلب والضمير بسياطها الجارحة ، وتحملها على الادراك والعشق للحق والخير والجمال ، والفرار من الباطل والشر والقبح ؟ فهى أيضا عنصر يمد الحياة بالفهم والادراك لأسباب الفرار الى عالم الحق والجمال .

ان المواد والمخلفات الحضارية المادية لا بقاء لها ولا معنى ولا ذوق الا فى نفوس الخلف بعد السلف ، وهكذا ..

وحضارة أمة تزهر ثم تذوى فى يدها فتنتقل شعلتها الى يد أمة غيرها ثم تذوى وهكذا .

فأين المعانى العظيمة من هذه الحضارات العظيمة المتعاقبة ؟ هل فنيت مع أهلها وانتهت ؟

وحضارة الحاضر التى بنيت على العلم الطبيعى الذى يستمد ثباته ودوامه من ثبات الطبيعة ، ما بالها ؟ انها قد أيقظت الانسان للتاريخ يصنعه

ويحوطه ولا يتركه يضيع ؛ وأشعرته بمعان عميقة للخلود الذى يصبو اليه ويتعلق بأسبابه ؛ وجعلته يفر من عوامل الفناء وأسباب الدثور ، ويرى أنها لا تليق بهذا الجهد العظيم الرحب الذى يبذله .

وقد رأينا امبراطورية كالبريطانية صاحية يقظة حريصة على خلودها ، مباعدة بينها وبين عوامل الفناء ، جالبة عوامل البقـاء والنماء ، قد طال عمرها حتى ضرب رقما قياسيا فى التاريخ .

فهل يجوز أن يكون ذلك الأثر المادى الحضارى هو كل ما يبقى من الانسان ؟ ان هذا الأثر فى عميق التفكر وحقيقة الأمر ، ما هو الا فقاعات على سطح محيط كبير ، حياتها وبريقها وانتفاخها وحجومها وألوانها ماهى الا صور من ضوء يشع برهة ثم يفنى فى بحر الظلام الأبدى .!

اذاً فما هذه الخديعة الكبرى التى تغشى على عين الانسان وتجعله يخال نفسه صورة من الكرة العالمية ، بل يخـال الكرة العالمية صورة من نفسه ؟ !

انها فى تلك « العدسة » الخفية التى فى قلبه ، يزوى بها الله العالم فى ناظريه ، ويطويه بين حاجبيه !

والتفكير فى هذا الشأن من حياة الانسان يحملنا على أن نقول : اننا نصنع هذا المتاع المادى الدقيق ، وهـذا الجمال المؤقت الذى تحلم به أرواحنا وتحققه فى المغانى والمرابع والأغانى وسائر المرتفقات واللذات ، لكى نراه يفنى على رغمنا ، فيحملنا ذلك على التعلق بما يستطيع الله مالك هذا الوجود أن يفعله من الجمال الدائم السرمدى الذى نشعر شعورا خفيا عميقا أننا خلقنا له ؛ ونسير فى طريقه جماعة بعد جماعة .

وما دام الانسان استطاع أن يقيم لنفسه عوالم رائعـة من الجمال المؤقت فلا شك أن بارئه وبارىء الطبيعة يسـتطيع أن يبنى عوالم من الخلود والجمال الدائم الذى يغازل أحلام الانسان .. فان جمجمة صغيرة ضئيلة كالتى له ؛ استطاعت أن تصنع من المتاع والجمال ما يروعها ويحبب

اليها الاستمساك بهذه الحياة .. فكيف بالعقل المحيط ذى العلم الأوسع ، والقدرة الفائقة ، والروح الأكبر ؟ !

* * *

حينئذ يسلمنا هذا الأمر الى أن نقول : ان الجزء المعقول بقاؤه من حياة هذا الانسان الفانى مع ما يصنعه ، هو هـذا الجانب الذى يختزن المعانى العظيمة التى يتغنى بها ويعشقها فى حياته الدنيا ــ وقد يتعجل الرحيل عن هذه الدار من أجلها ، ومن أجل شفاء نفسه من أضدادها ! ــ ثم يتعجب منها ويشعر بها بعمق ولذة كريمة وأنس واجلال . هو جانب التعبد . وهو مفتاح الشعور بالدخول الى رحاب الخلود فى هذا العالم الأكبر الخالد ... وما عدا هذا الجانب فمحضر له ومهيىء ؛ فاننا نفكر لكى نتعجب ... ونعيش بالحس لكى نتعجب ... ونعمل فنمشى ونطير ونزحف ونصنع ، لكى نتعجب .. نتعجب من الأسرار المودعة فينا وفى الكون الذى نعلم أننا غرباء عنه راحلون منه بأجسامنا .. ونتعجب لكى نرسل كلمات الاستحسان والمسرة والشكر لمن أدخلنا الى هذا العالم العجيب .. فنقول لبارئه وبارىء نفوسنا : ها نحن أولاء عبيدك الشاكرون المتعجبون من قدرتك وعلمك اللذين جعلانا فاهمين قادرين عالمين !

وتلك هى صفوة العبادة .

وليس ما يصنعه الله مباشرة فى الطبيعة وفى النفس هو وحده الذى يوجب التعجب والايمان .. بل معه ما يصنعه الانسان نفسه يضاف الى موجبات الايمان .

وفناء مانصنعه بين أيدينا على رغمنا ، باب عظيم من أبواب الايمان ؛ فان قدرة وعلما كاللذين لنا لا يصح أن يفنى صاحبهما فناء الى غير رجعة ومصير أعظم .. كلا لا يجوز !

والدليل على ذلك هو استفتاء الشـعور المرهف بالحياة والتعلق المشبوب بها . ودع عنك البراهين الأخرى ..

فالتبعد هو ثمرة حياة الانسان صانع الحضارات الفـانى .. الخالد !

إلى العقل الغربي من الروح الشرقي

انسان غير مفهوم ـ أوروبا المعمرة المدمرة ـ نكسة ـ خديعة ذهبت الى جهنم ـ نعمات وترتيلات جديدة ـ فى الغربى سيماء غنى عن الله ـ العقل الغربى المغرور ـ تناقض بين حياة الارواح وحياة الاجسام ـ من الطبيب ؟ ـ قانون طبيعى ينتقم لنفسه ـ عبقرية المادة وعبقرية الروح ـ الذكاء البطر الجموح ـ الى أحضان الام الكبرى !

الغربى انسان غير مفهوم ! فقد كفر الأوربيون بالحياة فى الحرب بعد أن جنوا بها جنونا فى وقت السلم ، وهم لم يذكروا السلم فى زمن الحرب ، كما أنهم لم يذكروا الحرب فى فترة السلم .

لم يتخذوا من قانونى الحياة والموت حدا وسطا يقيمون عليه حياتهم وما استخلفوا عليه من حياة الآخرين ، فيعيشوا على كفتى ميزان متعادلتين آخذين حظا صالحا يعدل السلام ويعدل الحرب .

هم فجروا فى فترة السلم : فتشهوا ، وكفروا ، وعبدوا الهوى ، واحتقروا الضعيف ، وشرهوا للمال ، وغصبوه من أفواه الآخرين بالحديد والنار ، وخانوا أمانة الاستخلاف على الأرض ، وتنازعوا على الطعام الكثير كما يتنازع الأطفال غير المهذبين !

وهم فجروا فى هذه الحرب ، فلم يرعوا حرمات الحياة الانسانية التى قدستها الأجيال : فصبوا العذاب على الأطفال والنساء والمستضعفين والمرضى وسكان المعاهد والمعابد المسالمين ، وحرقوا الأقوات والأرزاق والمأوى ... فحياتهم لا تحتمل ولا تستحق العمل بعد هذه الحرب اذا أصروا على أن يلجأوا لحرب أخرى بهذه الكيفية النكراء التى تدمر ماعمروا وعمر الناس .

من يصدق أن أوروبا البانية العاملة المعمرة المخترعة العابدة للحياة ، الساعية الجاهدة فى سبيل الكشف والمال والاختراع ، الباحثة المنقبة عن خبايا الأرض وركازها ، الرائدة الكاشفة عن مجاهلها ، المبشرة بالمثل العليا

بين الأقوام المتخلفة ، القاضية على تجـارة الرقيق ، الحاملة للتجارات والمعلومات ، الواصـلة بين أقطاب الأرض صلة اللاسـلكى والراديو والتلفزيون ، المرسلة « المرسلين » لهداية الوثنيين ، الدارسـة للأنواع والأجناس ... هى هذه المخربة المدمرة الباطشة بطش النمور والأسود ، القاسية على النساء والأطفال والضعفاء ، المفتنة فى وسائل الآلام ، الهدامة للدور ، المحيلة عمار المدن الى خراب القبور ؟ !

* * *

الأجسام العاجية الجميلة تذوب وتصهر وتسحق عظامهـا وجماجمها تحت أثقال الحديد والجلاميد ... !

الوجوه المشرقة البيضاء ، ذات العيون الزرقاء والشعور الذهبية ، ذهبت قرابين تأكلها النار باختيارها !

مسكينة ! طافت فى جميع بقاع الأرض تجمع الذهب الأصفر «والذهب الأسود » والحديد ، ثم أوقدت على الجميع فى النار واحترقت معه !

جمعته فى أنانية وجشع واعتزاز واعتزام ... لا لتملأ البطون الفارغة وتكسو الأجسام العارية ، وتعين أبناء الحياة على نوائب الحياة ، ولكن لتملأ أفواه المدافع وبطون المقابر ... !

خلاصة الانسانية العاملة المجاهدة المتاجرة المحاربة العالمة ، تحترق الآن على مشهد من الزنوج والاسكيمو !

الحياة تتحطم بأيدى بنائيها ومقيمى صروحها العالمية ، وجامعى مواد بنائها من لحومهم وعظامهم ودمائهم وذهبهم وحديدهم ونور عيونهم فى المعامل والمعاهد !

الغادة اللعوب الفاتنة ، ذات المساحيق والأصباغ والعطور والأزهار واللؤلؤ والديباج « والمانوكير » ، تتكشف عن العجوز الشوهاء الدرداء المريضة الرسحاء ، ساكنة الكهوف والمغارات ، الضاربة على الدف لشن الغارات !

الأم العاقلة العالمة ، تصيبها جنة وجهالة فتأكل بناتها وبنيها !

لندن وبرلين يصب عليهما الخراب والدمار صبا فيباد ما فيهما من مراكز نمو الحياة و « علب » أسرارها « وقماقم » أجنتها وولائدها ! ..

والانسانية الجاهلة الغافلة المقيمة بالأكواخ فى القارة السوداء وأواسط التبت ترى هذه الانسانية العالمة المدبرة الجميلة تشن الغارة على الحياة بالزلازل والبراكين والصواعق الصناعية ... فتحمد الله على الحيـاة فى الغابات مع الأسود والقرود التى لا تلتقم منها الا أفرادا !

الحياة تصاب بنكسة حادة يا أطباء الحياة ... فهل من دواء لها فيما صنعتم من العقاقير والأقرباذين ؟ !

* * *

كنا أوشكنا أن نعبد الدنيا ممثلة فى لندن وباريس وبرلين ، وننسى نهاية رحلتنا فيها غرباء عابرى سبيل ، لا نملك المكث ولا البقاء ، ونخضع لقوانين الزوال والفناء ، ويدور الفلك بنا دورات حتمية تشب الطفـل وتشيب الصغير وتفنى الكبير وتلقى بنا الى المجهول ..

وكنا أوشكنا أن نظن تلك الأجسام الأوروبية القوية الجميلة الرقيقة الرشيقة الذكية هى الانسان المقصود بالحياة .. وأما من عداها « فحيوانات بشرية ! » ــ كما تعبر الهتلرية ــ ومخلوقات تكميلية خادمة لها ، تعيش على هامشها ، وتسير فى خدمتها ، وقبح اعتقادنا فى أنفسنا تبعا لذلك ، حتى تركنا لها الأرض طوعا وكرها ، وخلينا لها مكاننا من الدنيا ..

وكنا اعتقدنا أن « عناوين » النظم الأوروبية ثابتة لا تتزلزل ، ونظمها البارعة عزيزة على أصحابها ، وأن الانسان الأوروبى مقدس لدى نفسـه وأممه ، فلا تحطيم لدنياه ، ولا نسف لنظم حياته ، ولا تمثيل به ، ولا سحق ولا نثر لأشلائه ..

وكنا أوشكنا أن نرى العالم المادى الدقيق . الذى صار التنويع فيه والتشـكيل والتلوين والدقة والتركيب كأنه دنيـا ثانية من مخلوقات الحديد والصلب والخشب وسائر المواد الجامدة ، منفصلة عن روح الحياة

فى الانسان ، فأخذنا نعيش بها عيشة آلية صخابة بدون وعى ووداعة واحساس من الروح ويقظة للمصير المحتوم !

ولكن هذه الحرب أخلفت تلك الظنون الواهمة ، وصححت أفهامنا الفاسدة ، وكشفت عن أبصارنا غطاء التمويه وسحر التخييل ، فاذا بنا نعود ، واذا بالأوروبيين أنفسهم يعودون معنا الى المعانى الأزلية الخالدة التى بزغت من قلوب أنبيائنا ، واستنزلوها من السماء بالاخلاص والبكاء ارب الحياة الذى وضع الانسان فيها موضعه بين الأهوال والألغاز والأسرار ...

واذا المثل العليا يعود ذكرها الى الألسنة والأقلام ، يرددها الساسة وسماسرة المال ! ويخطبون فيها خطابة الأنبياء والمرسلين بين عباد الأوثان بالبيان الساحر والحجج الأخاذة ، والاذاعة العريضة الواسعة .

واذا الترتيلات بالحق والسلام والعدالة ، تنبعث من جميع بقاع الأرض وتنطلق بها حناجر الناس جميعا ، وتزيد كل أمة فى طنبورها نغمة .

واذا النظم الأوروبية الظالمة الجائرة المتحجرة تذوب تحت حرارة أنفاس الدعاة الى السلام والحق والعدالة ، وتحت نيران هذه الحرب التى انتقمت شر نقمة من طغيان السياسة والرأسمالية والدعوات الهدامة .

واذا بالروح الانسانية الوديعة الرحيمة المؤمنة بالله وبالانسانية تعود فى جو مخضب بالدماء ، مندى بالدموع ، مطرز بالآلام ، الى القلوب المهجورة القاسية الكافرة ، كما يعود طير شارد تائه الى عشه المهجور ، ومكان حنينه وأشواقه ، فيراه خربا منثور الأعواد ، عبثت به الرياح ، وعششت فيه العناكب ... فما يزال يضم عودا الى عود وورقة الى ورقة ويرفرف عليه بجناحيه ، حتى يطرد عنه أنفاس السوء وأوساخ الحشرات ، ثم يغمره بالرحمة والحب والحنين ...

وفى هيئة أكثر الانسان الأوروبى الحالى وسلوكه سمات غنى عن

الله ، وقسوة على عياله الضعفاء ، وتكبر على الفكر فيه ، ونسيان ذكره وقت الأعمال والاحتياجات ، وجحود لتدخله فى الأمور . كأن هـــذا الانسان مخلوق هكذا بدون خالق ، أو كأنه خلق نفسه ، وكأن هــذه الدنيا ذات الرحاب الواسعة ، والقوى الجبارة التى ليس للانسان فيهــا من شىء ، خلقت بيده ، فهى مملوكة له ، لا تثير فى نفسه تطلعا وخوفا من القوة المسيطرة عليها !

وقــد غرهم أن ذكاءهم ضمن لهم تحقيق بعض الآمال والمطالب فى بيئتهم المحدودة : الأرض ، تلك الذرة الصغيرة فى الكون الواسع . .

ومن العجيب أن كثيرا منهم وهم فى نيران هذه الحرب وأهوالها ، لا يذكرون الله كثيرا ، ولا يتطلعون اليه وفى أعينهم دموع ، وفى قلوبهم قذائف ونصال !

ان كثيرين منهم جحدوا الله ونسوه ، ونسوا أننا لم نخلق الا لنعرفه ونعرف شئونه الكبرى العظيمة فى الطبيعة ، فشغلنا عنــه بأنفسنا وشئوننا التافهة .

وانك لتعجب كيف يأتى الغرور الى عقول بعض العلماء من الغربيين حين يخيل اليهم أن علمهم ميزان يزنون به علم الله .. مع أن علمهم قــد أخذوه من بعض صنع الله !

ولكن ذوى الروح الدينية الشرقية أيقنوا مبدئيا أن ذات الله أعظم وأوسع مما توحيه الطبيعة وعلومها .. ثم قالوا ان الطبيعة فيض من الله ، وانها قاصرة عما عنده تعالى من الكمالات والعلوم ، وانه ان شاء خلق غيرها أعجب منها .

فادراك الله يعتمد على قوة الحكم والادراك النفسى ، ولذلك لا يكون خاضعا للعلم المادى وحده فى صلب القضية ، وانما فى حواشيها : أى من ناحية زيادة الاطلاع على دقائق فعله فى الطبيعة ، فيزيد اعجابنا بصفات علمه وقدرته .

فلنذكر دائما حينما نكون امام منظر ما ، أو مع احساس نفسى من علوات الدنيا وسفالاتها ، ان عين الله وفكره معنا ، وأنه يرى ويسمع ما نرى وما نسمع ، وأن علمه وقدرته بما نعلم وما نقدر على أن نعلمه ، سابقان على علمنا وقدرتنا .

* * *

لقد بنى الغربيون حياتهم على مناعة الأجسام وحدها من أمراضها . ولم يبحثوا عن وسائل مناعة الأرواح من آفاتها ، فأخذوا الحياة من جانبها الضعيف ، وتركوا الجانب الآخر . وقوانين الطبيعة لا ترحم من يخالفها ولا تحابيه ؛ بل تدافع عن وجودها وتهدم من يحاول هدمها .

فمن يدع ثغرة فى بناء الحياة من غير سدها ، أوشك أن يدخل منها الى البناء ما يأتى عليه من القواعد ، ويجعله خاويا على عروشه .

وكان جديرا بالانسان الأوروبى الذى يعرف حجم الميكروب الصغير وخطورة آثاره ، فيحترس منه ويقيم الأرصاد والجواسيس خشية اقتحامه عليه ثغرة من ثغرات جسمه ، أن يعرف أن للحياة الروحية جراثيمها الفتاكة ، فيجاهد لكفاحها وقتلها كما يفعل بأخواتها جراثيم الأجسام . حتى تسلم جميع قواعد بناء الحياة من أسباب الانهيار .

ولكنه لم يعرف بعد : الجراثيم الروحية ، ولا يزال روحه يعيش فى عصر التطبيب بالخرافات ، كما كان يعيش فى عصر الخرافات فى طب الأجسام ..

ولا يزال يسخر من أطباء الأرواح وعلاجاتهم ، كما كان يسخر من أطباء الأجسام حين يفاجئونه بكشف جديد لمرض قديم .

فالى أن يؤمن بما يصنع له طب الأرواح ويعمل به ، سيظل شقيا بتلك الأمراض التى هى أشد فتكا من الطاعون والسل والجدرى وغيرها من الأمراض التى تهدم الانسان وحده ، ولا تهدم معه تاريخه ومبادئه ومبانيه وأمواله .

فمن أعراض أمراض الروح ، تلك القنابل والصواعق والحرائق التى تترك المدن التى صبت فيها جداول المدنية والعلوم ، والتقت فيها الحضارات وثمار الجهود المشتركة ، خرابا ودمارا كأن لم تغن بالأمس .

ولكن ينبغى له قبل ذلك أن يخرج من بين أطباء الأرواح أولئك الدجالين المشعوذين ، والأغبياء المحدودين الذين قد يقتلون النفوس بالعلاج الخاطىء ، أو يغلقونها دون رحمة الله ، أو يصيبونها بعاهات ؛ أو يعالجونها بالخرافات والشعوذة وأسباب الضلال ؛ كما فعل بأشياعهم الذين كانوا يندسون بين أطباء الأجسام من قبل ؛ حتى يستقيم علاجه على أيدى الاخصائيين الذين خلقهم الله لقيادة النفوس بالسلوك والمعاملة والبيان الواضح والفكر المضىء المنير .

أولئك الأوصياء لا يلزم أن تكون منهم فى الأمم كثرة ، بل ينبغى أن يكونوا قلة ؛ حتى لا تصيبهم مصائب الزحام على الأرزاق والوظائف .

ويجب ألا يرتفعوا الى المناصب بالوساطات والشفاعات و « الشهادات » بل بأنفسهم وما فيهم من خلق الوصاية الرشيدة والسياسة الحكيمة . والقدرة على ادراك الداء فى كل نفس ، ووصف العلاج .

ان رجل الروح والاجتماع وحده هو الذى يوجه المجتمع ؛ فواجبه أن يأخذ بمقاليد العلوم وفنون الحياة جميعها ، ليدخل على الناس بالعظة والتذكير من آفاق كل نفس ، علما منه أن كل نفس تأخذ منطقها وأحكامها من الأفق الذى نشأت فيه وارتضته لحياتها .

ولذلك كانت مهمة رجال الروح والاجتماع أعظم من مهام غيرهم ، ولا عجب ؛ فهم الأوصياء على القطيع لو عرف مكانهم .. ولذلك أتمنى أن يكونوا دائما أذكى الناس وأرحبهم قدرة واطلاعا .

وينبغى أن يدقق فى اختيارهم غاية التدقيق ، وأن تكون وسائل العلاج هى ما صلح من مواريث القديم ، وأصلح الآراء فى علم النفس الحديث . أى أن يكون علم النفس هو وسيلة التربية الروحية والدعوة اليها ، كما صار علم وظائف الأعضاء وعلم الأغذية أساس الطب الجسدى

الحديث . وعلم النفس أوشك أن يكون من الدقة والصحة بحيث يستطيع أن يضع الانسان فى المخابير والمسابير ، ويقيس ما فيه بأرقام !

ان قوانين الروح قد غضبت وانتقمت لنفسها شر انتقام من الانسان الذى لم يقم لها بعد وزنا . وانه لجهل وسفه ألا يفطن الإنسان الأوربى بعد الى أن يحمى نفسه من غضبها ونقمتها كما يحتمى من غضب قوانين صحة الأجسام .

انه يخشى أن يمد يده فى النار لئلا تحرق ، أو يلقى نفسه فى الماء لئلا يغرق ، أو يقف فى طريق قاطرة لئلا يسحق .. ولكنه يرضى لنفسه أن يبخل فيسرق ، وأن يشره فيكره ، وأن يستبد فيحارب ؛ وأن يخل موازين العدل فتفسد حياته بفساد حياة الآخرين ، وأن يترك الناس اخوانه جاهلين مرضى الأجسام والنفوس فيمرضوه ويشقوا حياته بشقائهم ..

كلمة يجب أن تعلم وتكرر دائما أمام الدولة وأمام الفرد ، وهى :

ان الدولة كائن عضوى واحد كالجسم الواحد ذى الروح الواحد .. فاذا سمح لشىء منه ، ولو كان ظفرا ، أو منبت شعرة ، أو خطرة نفس ، أن يدخله الفساد ، فسيلحق الجسم كله — وأنت خلية فيه — آثار ذلك الفساد وآلامه .

فاحذر أن يمرض أخوك أو خادمك ، حتى لا تنتقل عدواه اليك ، واشترك فى اطفاء الحريق فى بيت جارك ، قبل أن تمتد النار الى دارك !

* * *

الغربيون قدموا لنا عبقرية المادة ونود أن نقدم لهم عبقرية الروح ، وأن نريح أرواحهم كما أراحوا أجسامنا .

انهم استغنوا بذكائهم عما وراء الطبيعة ، وقد كفاهم ذكاؤهم تدبير أمورهم كلها ، فيما يخيل اليهم ، مع أن الواقع أنهم فى شبكة الأقدار العليا والتدبير الشامل لحياة الأرض والكون . والرجل الذكى غنى بالحيل وتجدد الأفكار . والغنى يبعث دائما على الطغيان . ومن هنا أتى

الغربيون ودخلت عليهم نكبات الحياة لأنهم اعتمدوا على غنى ذكائهم وحـــده .

وحين يستغنى الطفل بذكائه وقدرته عن ثدى أمه ورعايتها ، ويعلو مستواه البدنى والعقلى عن مستواها ، فذلك عهد ابتداء عقوقه اياها اذا لم يكن ذا ذخيرة موفورة من الادراك والحب والرحمة والأدب النفسى ، واذا كان ينسى أنه قطعة قدت من جسمها وقلبها ، وأنها الوشيجة الوثيقة بينه وبين أرومة الحياة والطبيعة .

وكذلك ينسى الانسان الذكى عجزه أمام قهر رب الطبيعة ، ويستغنى بذكائه عن الاستمداد منه والاستيحاء منها ، فيصير مخلوقا يكاد يكون لاصلة بينه وبين ما فى الطبيعة من موجـودات تسير طائعة بالالهـام والتوجيه .

فهل نترك الغربيين يذهبون بأرواحنا وأرواحهم فى أودية بعيدة عن الرحمة والعدالة والتشوق الى المجهول والبحث عن الله ذى الجلال ؟ !

أنتركها ونتركهم للحديد البليد القاسى يطبعها بطابعه ، ويوحى اليها بأسه سياسة البطش والطغيان ، ويشغلها بضجته المنكرة عن همسات القلوب وأصوات الضمائر ؟

اننا ان تركناهم وتبعناهم على الخير والشر ، فسوف نكون فرائسهم وجزر سيوفهم ، وطحين طواحينهم الحديدية الحمراء !

فلنذكرهم بمبادىء الطبيعة أمنا وأمهم ! تلك المبادىء التى فيها من منطق الوجدان أكثر مما فيها من الذكاء الجامح وقوة الاختيار من غـير ضابط من هدى الروح .

وان الطبيعة لتذكر أبناءها دائما بوصايا الحق والعدل ، كما تذكر الأم البسيطة أبناءها الأذكياء بوصاياها وعواطفها التى بنت عليها عشها . فمهما اختلفت أفكار الناس وأخلاقهم فانهم يتوحدون حين يقفون بين يدى الطبيعة ، ويشعرون بشعور واحد فيه صدق الفطرة واعتدالها .

ومبادىء الأمومة ، وجوها ، وبساطتها ، وعدم تكلفها ، والحنين اليها ، والشوق الى مهدها ، يجب ألا تنسى ؛ لكى يعيش الانسان بارا بريئا عامر القلب بالعواطف الشريفة ذات التأثير الكريم فى خدمة الحياة .

وكما يوصف الرجل الذى يهجر أمه بالعقوق واللؤم والنذالة مهما كانت هى بسيطة جاهلة ، ومهما كان هو فائق العقل واسع العلم عريض الجاه ، كذلك يوصف الرجل بالعقوق حين يهجر أحضان الطبيعة : تلك الأم الكبرى . أو حين يؤذى أو يهمل اخوته منها !

- ٥ -

أمابعـد ..

فى معترك الآراء

في حدود البداهة أيضا ـ فليكن قردا نهض على قدميه ، ثم ماذا ؟ ـ وارث الحياة ـ الشر يلد والعــلم يدفن ـ الاشــقياء الهالكون ـ نتائج الايمان ونتائج الانكار ـ أخلاق العلماء ـ الالمــان والانجليز والعرب ، الهندوس وعبادة الابقار والافاعي ـ صوفية شاردة تتخيل وصوفية مادية تتحقق ـ استعلان سر الوجود على تفاوت ـ برغوث أبي العــلاء ـ مذهب هــدام ـ فترات التمهيد لظهـور الانسان ـ لا نقص في غرائز الانســان ـ العلم اضاف حياة للحياة ـ ما اشدت بجميع أخلاق الانسان ـ الدولة كائن عضوى واحد ـ تقدم العلم وتخلف الخلق ـ لو آمن بنفسه ـ يوم قريب ـ لغير المؤمنين .

لكى يدرك القارىء أثر هذا الكتاب ووقعه فى عقول المفكرين المعاصرين ماديين وضعيين وروحيين ملتزمين ، رأيت أن أورد هنا أخيرا بعض ما كتبته فى الجدال الذى ثارحول الكتاب ..

وقد قوبل من الفريقين بما هو جدير أن يثيره لديهما ، اذ فيه ما هو مثير لكلتا العقليتين .

وقد أردت بالكتاب كما قلت أن يكون وسطا بين العقليــــة الغيبية والعقلية المــادية .

وفى هــذا الجزء الأول (١) من هذا الفصل وضعت أسئلة فى حدود البداهة لأذكر المعترضين من ذوى العقول العملية المادية بما يجب ألا ينسوه ان كانوا ملتزمين حقيقة بالمنطق المادى .

* * *

هل رأى أحد أو سمع أن أمة من أمم الحيوان والحشرات اصطادت انسانا ووضعته فى قفص وعرضته أمام الأنظار ؟

وهل رأى أو سمع أن فرسا أو حمارا ألجم انسانا وركبه ، أو حرث عليه حقلة أو وضع على ظهره حمله ؟

(١) كتب هذا في جدل مع الصديق الدكتور زكى نجيب محمود

وهل رأى أو سمع أن جملا أو فيلا أو ديكا أو خروفا قدم لانسان حفنة من شعير أو أعواد برسيم أو قدح ماء ؟

وهل رأى أو سمع أن برغوثا أو بعوضة أو فراشة صنعت دواء ووضعته فى مضخة ثم أطلقته على الانسان لتخدره أو تدفع أذاه أو تقتله ؟

وهل رأى أو سمع أن حيوانا ما ، قطف زهرة ووضعها فى أصيص يتأمل جمالها ويزين بها مسكنه ، أو أقام معرضا أومتحفا للبذور والثمار أو منتجات الحيوان والانسان ؟

* * *

هل رأى أو سمع أن جماعة من الأبقار أو الأغنام ، ثارت على جزار وأمسكت به وذبحته وسلخته ،وأخذت من لحمه وشعره وجلده وظفره منافع ؟أو علىالأقل أدركت لماذا تساق هى الى المذابح ؟

هل اصطنع ذئب أو سبع من سباع الأرض سلاحا يدفع به غائلة الانسان ومكايده وحبائله ؟

أترك لكل معارض أن يدرك سير الحياة بالانسان ،ووضعه بين الأحياء من خلال الأجوبة على هذه الأسئلة .

ثم لنفرض ما يقوله بعض شراح نظرية النشوء والترقى صحيحا ، من أن الانسان أصله قرد نهض على قدميه .. ثم ماذا ؟

لقد سبق هو وتخلفت سائر الأنواع .. اذن : هو وحده كان محفوفا بعناية الذى خلق الأنواع كلها ، حتى جعله فى قمة الحياة العضوية الحيوانية ، ثم يشق فى رأسه بثقا صار منبع عالم جديد رحب فائق سابق على سائر حياة الأحياء المعهودة ، اذجعله يصنع موجودات تفوق قدرة الحيوان وقدرته هو على السرعة والاحتمال والنقل والسمع والبصر والتكبير والتجهير والتقريب ، ولم نر غيره حيوانا يخترع آلة لصيد فريسته . ولم نر أمة من أمم النمل تخترع عجلة تحمل عليها الأثقال التى تعانى نقلها من مكان الى مكان ، ولم نر أمة من أمم النحل تفكر فى دفع

عدوان الانسان على عسلها الذى تتعب وتدأب فى جنيه واشتياره من رحيق الأزهار ونوار الثمار ، على كثرة ما جربت من غزواته لها . وكل حيوان يعيش فى نطاق ضرورات حياته لا يتجاوزه .

فلئن كان قانونا « الانتخاب الطبيعى » و « بقاء الأصلح » أقنومين عظمين من أقانيم نظرية النشوء والترقى ، كما يعترف بذلك أنصارها ، فهما اللذان وضعا الانسان هذا الموضع الممتاز .. موضع القمة فى سلسلة الأنواع . ومادام الانسان استطاع أن يتغلب على حيوان الأرض ، يستبقى منه ماله فيه نفع ويبيد منه ما يشاء ، ويجد من الطبيعة استسلاما له وكرما فى امداده بوسائل التغلب على ما يريد ابادته ، ولا يصده صاد عن اقتحام الغابات والأجمات والبحار والمناقع للصيد والتلهى بالقتل .. ما دام الانسان استطاع أن يفعل كل هذا ، والطبيعة تساعده على فعله . فهو اذن : الابن البكر للحياة فى الأرض ، وهو المقصود بها بحكم قانون « انتخاب الأصلح » ، وهو وارثها لأنه الأقوى .

سيقول قائل ما قال الصديق المعترض : « وماذا أنت قائل فى الجراثيم التى تفتك ببدن الانسان لتعيش ؟ تلك التى ان أفلح فى نزع واحدة منها مما يسكن جوفه باضت له ألوف الألوف من صغارها ؟ » .

وأقول : ان مصير هذه الجراثيم مصير غيرها من قطعان الوحش وسائر أعداء الانسان التى تغلب عليها وتحصن منها ، وأوشك أن ينظف الأرض من غوائلها .. وان تاريخ كشفه لها قريب جدا : ومع ذلك استطاع أن يقيم أسباب المناعة منها فى المسكن والملبس والمطعم والمستنشق وما دام قد رصد حياتها وعرف أوكارها ، وسلط عليها حرسا من المجاهر والمخابير والعقاقير ، فهو لا شك واصل الى التغلب عليها فى سائر البقاع ، ما دام قد تغلب عليها فى مناطق المستشفيات ودور النقاهة وكثير من المنازل والمدن التى لا تهمل وسائل الوقاية العلمية ..

وانه لجهاد مشكور وأمر عظيم : أن يقتحم الانسان بعلمه وأدواته هذه المناطق التى عاشت دهورا وراء نظره وفوق وهمه وتخيله ..

وانها لعناية من بارىء الطبيعة بهذا النوع أن يعرفه أعداءه واحـدا واحدا ، ويمكن له فى الأسباب حتى يتغلب عليها جميعا ..

وانه لبدء حياة جديدة لهذا الانسان فى الأرض ، أن يعلم ما خفى وما استعلن من هؤلاء الأعداء ..

فلتلد بطون الشر والألم ما تستطيع من أطفالها .. فستلد قوانين العلم مقامع ومهالك لهذه الأطفال ..

وان الأشقياء الهالكين فى الحياة الدنيا ، هم الكافرون بالعلم وبالانسان الذى أنتج هذا العلم ..

أولئك الذين يعيشون بأساليب القرون الجاهلية العاجزة ، وينظرون الى الحياة نظر العجز وضعف الثقة بروح الانسان وعقله ، ونظر القاصرين الذين لم يدركوا ذلك النمو السريع للحياة الانسانية فى مدى قصير جدا من الزمن ، وهو أربعة آلاف سنة أو خمسة أو ستة ، وهى عمر التاريخ الذى نعرفه ..

أولئك الذين لم يدركوا بعد كيف قفز الانسان فى السنوات الخمسين الأخيرة من عمره قفزات حققت كثيرا من أحلامه فى الانطلاق والسيطرة والانتاج والاستغلال والتوليد والتقارب بين أجناسه وأقطاره ، واختزال المسافات والأبعاد ، واقامة الأرصاد لحوادث الحياة وظواهر الطبيعة .

أولئك الذين لا يزالون يعيشون كما كان يعيش آباؤهم الأولون الذين لم يكونوا يعرفون من الدنيا الا حدود البقعة التى ولدوا فيها ، أو القطر الذى ينتمون اليه .. ولم يكونوا يعرفون أن فى الأرض محيطات هائلة ، وقارات مجهولة ، وعوالم مستورة ، وأن الأرض ما هى الا كرة صغيرة جدا كذرة رمل فى صحراء .. الذين كانوا يبيتون فى الظلام والبرد ، وأنهار النور والنار على بعد ضربة معول منهم فى منابع النفط والبترول ... ويعيشون تحت رحمة غيض الماء وفيضه بدون أن يقيموا سدا أو خزانا يحفظ الماء ويحفظهم من طغيان الماء .. والذين كانوا يأكلون المـوت ويشربونه فى المطاعم والمشارب الملوثة بالجراثيم والآفات ..

أولئك الذين كان كفرهم بالانسان ، وعدم ادراكهم لسموه وتفرده بين سائر الأنواع ، السبب الأكبر فيما نراه يســود حياته من اصـطناع أساليب الحيوان الفاتك الضارى المتشهى الغافل الذاهل عما يدور فى السماء ويجرى فى الأرض من العجائب والمعجزات وأفانين الحياة ..

« وبعد » فليكن الانسان فى مقاييس ما وراء الطبيعة ما يكون ، ولتعل قيمته هناك أو لتسفل ، فان هنا شيئا واحدا هو الحياة الاجتماعية التى تستلزم اعلاء لقيمته ، لنسعد فيها .

وما يجر الشر والاثم والسفالة على النفس الانسانية الا غفلتها عن مقامها الممتاز فى الحياة ، والا أخذها بظاهر الحياة الجسمية الآلية ، التى تجعلها والحيوان فى حظيرة واحدة .

وما كان جهاد أنبيائها وحكمائها الذين خطوا بها خطوات واسعة الى الأمام ، الا نتيجة لادراكهم امتيازها وما فيها من قوى زائدة عما فى غيرها من سكان الأرض ..

وأخلاق العلماء شىء عظيم عميق ، لأنها أخلاق بنيت على العلم بأعماق النفس الانسانية . وقد قال سقراط « الفضيلة معرفة ، والرذيلة جهل » . والفرق بين أخلاق السادة وأخلاق العبيد هو مبدأ الفلسفة الألمانية الحديثة التى سنها « نيتشه » للألمان . فكان ادراكهم معنى السيادة ، وحديثهم حولهـا ، أكبر باعث لهم على نهضتهم الجبارة التى جعلتهم يفهمون فى أنفسهم أنهم فوق مستوى سائر الأجناس .

وأخلاق الانجليز المبنية على ثقتهم بأنفسهم ، واعتقادهم بتفردهم من بين سائر البشر بروح ممتازة ، هى التى جعلتهم فوق المستوى الانسانى الحالى فى الصبر والاحتمال والثبات وسعة الحيلة والوقار والسكينة فى السلم والحرب .

فهم يؤدون لهـذا الاعتقاد وتلك الثقة بالنفس مهرهما من الفعال الكريمة ، والصبر الجميل ، والدم العزيز ، والمال المبذول ، والمساكن المترفة .

وقديما كانت العرب أمة ضائعة المكانة ؛ لما كانت مفقودة الاحساس بسمو نفوسها ومواهبها . مغمورة فيما يحيط بها من الطبيعة ، مدمجة فيها ، عابدة للحقير والجليل منها ؛ حتى تسمى أفرادها بأسماء الجماد والحيوان السافل والنبات الحقير : فقالوا حجر وصخر وكلب ويربوع وحنظلة . الى آخر أسماء ما يحيط بهم . وطافوا بالأحجار والأشجار عابدين عاكفين ؛ فلما أيقظهم موقظهم العظيم لأنفسهم وما فيها من امتياز على سائر ما يحيط بها ، فلا يليق بها أن تلتمس لشيء من هذا المحيط عبادة ، ولا أن تبتغي اليه زلفى أو وسيلة ، ولا أن تقدم اليه قربانا من دمائها ودموعها وسائر قرباتها . بل يجب أن تبتغى بذلك كله وجها أسمى وقدرة أعظم . لا تدركها الأبصار ولا تستوعبها الأفكار .. حين هذا بدا السر الخفى فى هذه النفوس الضائعة ، واستعلن كما يستعلن نور الصباح عريضا فى الآفاق ، ومضى أفرادها الى فجاج الأرض ، حاملين رسالة ، وموطدين دولة . ومقيمين حضارة .

وها نحن أولاء نرى « الهندوس » يأتون فى عبادتهم للأبقار والحيات وكثير من الحيوان ، مخازى وسخافات .. كل هذا لأنهم توهموا أن فى البقر والثعابين سرا وروحا مقدسا يعبد ، فتركوها تعيش وتسرح وتهيم فى الشوارع والبيوت والطرقات ، وهاموا وراءها ، وأكلوا روثها ، وشربوا بولها ، وتقربوا للثعابين ورحبوا بلدغاتها وموتهم بأنيابهم ، وتركوا بلادهم تصاب بطواعين الأبقار التى تترك حتى تشيخ وتصير عشا للجراثيم التى تنتقل منها الى عابديها وساكنى بلادها .. والأبقار المسكينة فى ذهول وغفلة عن قربات هذا الانسان الضال وتقديسه اياها .. فهى تبول عليه وتنطحه ولا تنفعه .

وهكذا كان الانسان فريسة للاوهام وعبادةالأحجار والأبقار والجعلان والقطط والحيات وغيرها . حين لم يكن مؤمنا بنفسه وطيد الثقة بها ، فاهما أن جميع ما فى الأرض مخلوق له ومسخر لمنفعته .

انى أدعو الى صوفية مادية تؤمن بالعلم ، وتعترف بدولة الأجسام ، ولا تشرد وراء الأوهام، فلا تتخيل أن الانسان العظيم الخصيم المبين المفكر

المبتكر ، مخلوق ليكون طعاما للبراغيث والبعوض والقمل .. وانما تعلم أن هذه الحشرات مخلوقة لحمل الانسان على تنظيف جسده وثيابه ومسكنه وبيئته من القاذورات والعرق والأتربة والمناقع الراكدة الآسنة .. فلولاها لأصابه الكسل عن كثير من أعمال النظافة والتطهير والتجميل .

وقد كانت هذه الحشرات تعيش فى الأصل على النبات والحيوان ، ثم لصقت بجسم الانسان وتطورت بلصوقها به . فلا يصح أن يقال ان الانسان خلق لأجلها .

وصوفيتى لا تخيل الى « أن سر الوجود يستعلن فى الجرثومة الضئيلة كما يستعلن فى الانسان والقرد والأفعى ! » كما يقول بعض المبالغين كلا .. هنالك فروق هائلة بين استعلان قدرة الله فى الجرثومة ذات الخلية الواحدة ذات الوظيفة الواحدة ، وبين استعلانها فى الانسان ذى الخلايا التى لاعدد لأنواعها وأشكالها وصورها وأوضاعها ووظائفها منفردة وموضوعة فى مجاميع منتجة حياة كلية . هو كالفرق بين جزىء صغير فى قالب حجر موضوع فى عمارة من ناطحات السحاب ، وبين العمارة نفسها بما فيها من زخرف وزينة .. وفى هذا التشبيه تجاوز كبير وقياس مع الفارق الهائل .

نعم ان الجرثومة شىء ثمين عظيم كأول خطوة فى سبيل الحياة . . . ولكنها لن تبلغ مبلغ الانسان الذى هو آخر خطوات الحياة وحلقتها النهائية كما تقول نظرية النشوء .

وما أعتقد أن خالقا عظيما حكيما ، يخلق كرة أرضية هائلة ، ويجعل فيها رواسى من فوقها ، ويجرى فيها بحارها وأنهارها ، ويقدر فيها أقواتها ليعيش عليها عالم من البراغيث أو النمال أو الثعابين أو الأبقار أو السباع عيشة أبدية بدون خليفة فائق عليها ، يستطيع أن يضع الحمل بجوار الذئب والأسد بجوار الغزال ، وكل عدو بجوار عدوه ، كما هو الحال فى حدائق الحيوان . ان الحياة حينئذ تكون عبثا وفيضا لا يتلقاه أحد يعى ويفكر ويعمل فى الأرض عملا مجيدا .

وان الصوفية التى تقول بهذا ، ماهى الا شرود وراء الأوهام وعدم الادراك لغايات الحياة والتمييز بين آفاقها .

انها صوفية كصوفية « أبى العلاء المعرى » المريض شاذ الطبيعة الذى يقول :

تسريح كفك برغوثا ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجا
كلاهما يتوقى والحياة له عزيزة ويروم العيش مهتاجا

ولنتصور الناس جميعا على مذهب أبى العلاء وبعض متصوفة الهند . لا يأكلون اللحوم ولا الألبان ولا العسل ولا يستغلون سائر منافع الحيوان ، ويتركون البراغيث والقمل والضفادع والعقارب والثعابين وسائر الحشرات والسباع والبهائم حرة طليقة فى الحياة ، ما دامت الأرض ميراثا مشتركا بينها وبينهم ، وما دامت جميعها مقصودة بالحياة ، وما دام « سر الوجود » قد استعلن فيها استعلانه فى الانسان .. فماذا تكون النتيجة ؟

هى فناء الانسان بفناء أقواته التى تأكلها قطعان الأنعام والسباع وعراجل الحمير وأسراب الطير والحشرات وغيرها ... هذا ان عاشت وعمرت دهرا ، وان تركته ولم تأكله وتدمر حياته ، فان فنيت فالأرض خراب .

وتساءل الصديق المعترض : من ذا كان يستمتع بمنافع الكائنات فى الأرض قبل ظهور الانسان ؟ .

وأجيب : كان يستمتع بعضها ببعض ، ويعيش بعضها على بعض كما هو الحال الآن ... فالسباع تأكل الأنعام ، والأنعام تأكل النبات ، والحشرات يعيش بعضها على النبات ، وبعضها على الحيوان .

ولكن ينبغى أن نعلم ما يقوله العلم من أن الحياة الحيوانية على الأرض لم تكن غزيرة ولا كثيرة الأنواع قبل عصر ظهور الانسان .. نظرا لقسوة عوامل الطبيعة من الأمطار والثلوج والبراكين والزلازل التى لم

تكن تسمح بحياة كائن ضعيف ، فلما استقرت القشرة الأرضية قليلا ، وهدأت عوامل الغليان والتشقق ، وصارت الأرض صالحة للحياة بعض الصلاح ، خلق الله فيها الحيوانات الضخمة الزاحفة ؛ ثم انقرضت بفعل الزلازل والفيضات واختلافات الطقس ..

ثم مرت الأرض بأدوار وراء أدوار حتى صلحت لحياة هذه الأنواع التى نراها تعمر الأرض ... وكان كل هـذا تمهيدا لاخراج ذلك النوع الذى صار خليفة الأرض ، ووارث ما فيها وفاتح أغلاقها ومخرج أسرارها.

وفترات التمهيد لهذه الحياة الصالحة المعمرة لا يصح أن يعترض عليها معترض بأنها ضاعت هباء ... فان أيام الله ليست كأيامنا ، تقاس بالسنين الشمسية والقمرية ، بل هى دهور بالنسبة لنا ، ولكنها لحظات بالنسبة للذى خلق الأزمان ، ويدير الأفلاك دورات هو أعلم بمقدارها ... والله أعلم متى ينضج الثمار .

* * *

وقد ادعى الصديق ، أن علم الانسان وأخلاقه هما سر تبجحه ودعواه الامتياز ، مع أن علمه ما هو الا مكمل للنقص الذى فى غريزته وفطرته ؛ ومع أن أخلاقه فى مثلها الأعلى الذى تحلم به ، هى دون ما يسود ممالك النمل والنحل من أخلاق ..

وأنا أنكر انكارا باتا أن يكون فى غرائز الانسان نقص يحتاج الى تكميل ، وأن يكون العلم هو هذا المكمل ... وانما أرى أن غرائزه التى تضمن له حياة آلية رتيبة كحياة أنواع الحيوان ، غرائز كاملة يستطيع أن يعيش بها فى مفتتح حياته وتكفيه .. فاذا نظـرنا للعلم على أنه نتيجة لغريزة حب الاستطلاع فهو اذن : أثر من آثار هـذه الغريزة ، ولكن لا يقال انه تكميل لها ، اذ لا نقص فيها ..

العلم نتيجة لهذه الغريزة ، كما أن الولد نتيجة للغريزة الجنسية . وحب الاستطلاع غريزة مشتركة فى جميع أنواع الحيوان ، ولكنها فيما

عدا الانســان محدودة بضرورات حيــاة الأنواع ، وفى الانسان لا حد لها . ولذلك أنتجت للانسان علما زائدا عما يحتاجه وعما يمكن أن يدركه أى حيوان . وهذه القابلية الطبيعية الدائمة فى هذه الغريزة ، هى التى أنتجت نمو علم الانسان وفكره ونمو الحياة به دائما ..

والانسان الفطرى المحدود الذكاء ، يكاد يعيش بالغريزة وحــدها ، فهو لا ينوع ما ورثه من الحياة ولا يزيد عليه ، ولا ينقص منه كثيرا ، وهو مع هذا يحيا وينمو وسط الأهوال ..

فغرائز الانسان التى تكفل له حياة كحياة الحيوان غرائز كاملة يحيا بها حياته الضرورية .

أما العلم فيفتح له أبواب حياة خاصة منفصلة عن حياة الفطرة .

فالقول بأن علم الانسان يكمل النقص الذى فى غريزته وفطرته ، قول غير مفهوم .

وأما أخلاق الانسان الحالية فلم أدافع عنها ، بل نعيت عليها من بعض الوجوه واعترفت بفسادها وقصورها الا فى قليل من الأمم ، وهى التى أدركت أن للحياة الانسانية قوانين تشبه قوانين الطبيعة فى صرامة عقابها لمن يخالفها .

واعتقادى أن الدولة كائن عضوى يسرى عليه مايسرى على أى جسم ذى أعضاء من وحدة المنفعة والضر ... الدولة كالجسم الواحد لايصح أن يترك فيه شىء فاسد ولو كان ظفرا والا فسد كله ... ولا يليق أن يكون فيه عضو مريض وآخر صحيح ، بل يجب أن يصح كله .

والقلب فى الجسم يقذف الدم الى كل خلية لتحيا ، وكذلك يجب أن يقذف « قلب الدولة » الى كل فرد غذاء الجسم والفكر والروح ليحيا الحياة الكاملة .

والفكر فى الجسم الواحد حارس يقظ أمين ، يتلقى الرغبات ويصدر الأوامر ، وكذلك يجب أن يكون قادة الأمم والمسيطرون عليها .

فأنا لم أشد بأخلاق الانسان الفردية الحالية ، وانما أشدت بعلومه وفتوحه فى مجاهل الكون ، وأريد من وراء هذه الاشادة يقظة النفس الدائرة مع الحديد البليد القاسى فى غير وعى واحساس ، الى آثارها وتفردها بين الكائنات ، حتى تعلم وضعها الصحيح . فتصلح من أخلاقها

والواقع أن أخلاق الانسان لم تتطور كما تطور علمه وفكره ، بل لا يزال يعيش بمواريث التاريخ السيئة المغلوطة ، ولم يجد له فى العصر الحديث زعماء انقلاب فى روحياته ، كما وجد زعماء انقلاب فى مادياته ..

فالانقلاب الجسمى والآلى والصناعى فى حياة الانسان لم يصحبه انقلاب نفسى يجعله يصفى تركات الماضى فى الأخلاق ، ويتحرر من مواريث التاريخ السيئة ، ويقيم حضارة روحية تناسب هذه الحضارة المادية التى أقامها فى مدى السنوات الخمسين الأخيرة .

ولو آمن الانسان بالانسان ، وأدرك مدى الرحلة التى رحلها فى الحياة ، والخطوات التى سارها فى التاريخ ، ومركزه بين الكائنات كخليفة فى الأرض خلف الله على مقدراتها ، وصنع فيها موجودات فاقت نماذج الحيوان فى الدقة والاحتمال والسرعة والخدمة آلاف الأضعاف ، وعرف أن الله ما كان ليعطيه هذه القدرة العظيمة على الصنع والانشاء والافتنان الا وهو به حفى ، وعليه متفضل ، وله مكرم ، واياه مسدد وموفق ، ولتطوراته مرتقب ومنتظر بلوغه رشده ، لو آمن بهذا كله لأسرع الى اقامة الحياة على ما أقام الله الطبيعة عليه ، من العدل الموزون ، والرحمة السابغة والتوزيع الكريم .

فاذا لم يذهب الانسان الى هذا طائعا مختارا كما فعلت أمم الشمال فى أوربا ، فسوف يذهب اليه مكرها بالحديد والنار فى يوم أحسبه قريبا.

* * *

ملء يدى الاثنتين نصوص من القرآن ، تثبت أن جميع مافى الأرض خلقه الله للانسان ، وخوله اياه ، واستخلفه عليه ، وجعله متاعا وتذكرة

له ، ولكننى آثرت أن أقدم حججا من الفكر الطليق ، والنظر الحر ، والعلم العصرى ، حتى لا يقول قائل من المنكرين المفتونين : أساطير الأولين .

— ١ —

وفى هذا الجزء الثانى من هذا الفصل أورد ردا على المعترضين من ذوى العقلية المحافظة القاصرة عن نظرة الكتاب .

هل يستطيع صديقى أن يحصر الجدل فى هذه الصخرة الراكزة التى يخيل الى أنى وضعت عليها الفلسفة الاثباتية وللدين ، وقيمة العلم والحضارة حين اهتديت الى ما زعمته القضية الفكرية الأولى ، وهى الملخصة فى هذه الجملة :

« أومن بالانسان لأومن بالكون ورب الكون ، فلن يؤمن الفرد الانسانى بهما ان لم يؤمن أولا بنوعه ، لأن عقل النوع هو المنظار الذى ندركهما به ، فان أهدرنا قيمة الانسان أهدرنا عقله وروحه ، فلا يبقى لنا ما ندرك به كوننا وربنا !! »

ولو وقف الصديق المعترض أمام هذه القضية التى هى كما قلت « أشبه ما تكون بمعادلة رياضية » لعرف أية نظرة تتراءى من خلال هذه الفكرة ، وأى أفق رحيب يتفتح للنفس البشرية من ورائها ، وأى توفيق لحل مشكلات العيش والفكر يتراءى منها !

وهذه هى القضية فى سمائها العالية تحتاج الى جناح قوى للتحليق معها ، وتحتاج — كما قلت — الى نظرة المفارق لنفسه ونوعه ، الخارج بالفكر والخيال عن حدود وجوده ، الراصد لنوعه رصد الملأ الأعلى ممن هم فوق الانسان والملأ الأدنى مما هن دونه !!

ولم يدر الأستاذ المعترض أن أولى الناس بالفرح والتأييد لقضية الايمان بالانسانية هم أمثاله من الدينيين الذين تهفو قلوبهم الى الاثبات واليقين ، ويرون الكون لا معنى له ان لم يكن قائما على قيم ثابتة تعتمد على منطق الطبع ومنطق العقل ومنطق العمل .

والقضية مسوقة للرد أولا على الماديين الملحدين الذين لا يعترفون بقيم روحية ثابتة للوجود و (الدرونيين) الذين يقررون أن الانسان ماهو الاقرد نهض على قدميه وثرثر بلسانه وفرح بمـا ثرثر ، وخلق لنفسـه آلهة ، ووضع مقاييس وموازين لخيره وشره ، وزعم أنها موضوعة من « عقل » الكون ، ويقررون أن عقل الانسان ودينه وعلمه ، انما هى كالافرازات المادية للكبد والمعدة وغدد السموم فى العقارب والحيات ، وأن ما يزعمه من قيم للأمور ، انما هى أعاليل يعلل بها نفسه ليخدعها ، وليس بينه وبين « عقل » الوجود — ان اعترفوا به — صلة ، وانما بينهما هوة لايستطاع عبورها ، وأن موازين « الخير » والشر عنده مسائل اعتبارية ، وليس هناك وحى ولا نبوة ، وأن ما بين الناس لا يزيد على ما بين النحل والنمل والبقر والبراغيث والبعوض ، وأن حياة أفراد الانسانية الى عدم لا رجعة بعده ، كحياة مليارات أوراق النبات وأهراء الحبوب ، وملايين الحشرات تأتى بها دورات وتذهب دورات أبدية من غير رجعة الى مصير أكمل كما قال ذلك كاتب متدين صوفى باحث كتب الى من بيروت يطرح أمامى هموما ذهنية وشكوكا لحقته من أقوال أولئك الشاردين ..

أفترانى حينمـا أفتش فى رحاب الكون والنفس عن فكرة جـديدة أقذف بها على باطل القوم ، انتزعها من قوى الانسان الفكرية الابتداعية النامية المنمية التى جعلت الانسان فى مصاف آلهة القدماء فى التكوين والتخريب والتسخير لقوى عظيمة جبارة هائلة كالكهرباء والطاقة الذرية والمواد العمياء ، وتقريب الأبعاد وكشف المستورات فى خبـايا الكون والتغلب على كثير من الآفات .. أفترانى حينما أفعل ذلك أكون قد خالفت رأى القرآن فى الانسان ؟ !

ان الماديين الملحدين يهدرون الانسانية كلها وما أتى عن طريقها من دين وعلم ووحى أنزل على محمد وسابقيه من الرسل ، فليس القرآن بشىء فى ميزانهم ، وليس محمد وجميع الرسل فى رأيهم سوى افراد من تلك الانسانية القردية التى تلغو وتزعم أن للغوها قيمة .

افتساق الحجة لأمثال هؤلاء من القرآن أو التوراة أو الانجيل وهم

لا يعترفون بها ولا بمن نزلت عليهم ولا بالنـوع الذى ينتسب اليه من نزلت عليهم ؟ أم الأولى أن تساق الحجة الى هؤلاء من رحاب الفـكر والكون الواسع بمنطق هذا الزمان ، مادامت آيات الله فى الآفاق والأنفس دائما تسعف الذين يخلصون لله ويخلصون الفكر فى الكون ؟ !

ان الفكر الدينى آفته أنه غالبا يخاف اجتياز الحدود الموروثة ، حتى ولو أيقن أنوراءها مصلحة محققة ، لأنه فكر يغلب عليه الاتباع لاالابتداع وربما يكون ذلك مقبولا ما دامت طمأنينة النفوس وسكينتها موفورة ، ولكن أعتقد أن واجبه ان يأخذ الحجة حيثما وجدت ما دامت تسعف فى اقناع المعارض او الزامه .

* * *

ثم انى أسأل الأستاذ بدورى كما سألنى : كلام من يا أخى الذى يقول : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا » ، « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ؛ « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسـهم لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، اله هو الغفـور الرحيم » ؛ « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون » ؛ « والعاقبة للمتقين » ؛ « ولا أقسم بالنفس اللوامة » أى « الضمير » ! ؟

أليس هذا كلام الله أيضا ؟ وهل وراء سجود الملائكة لأبى هـذا النوع تكريم ؟ وهل وراء اختصاصه بعلم ما لا يعلمه الملائكة من غيب السموات والأرض تفضيل ؟ وهل بعد صبر الله وحلمه على ما يبدو من ظواهر الافساد وسفك الدماء الذى يفعله الانسان حجة على أن الغـاية من خلق هذا النوع ، انما هى غاية تربو فوائدها وبركاتها على خسرها ولعناتها ؟

وهل بعد رد الله تعالى على الملائكة حينما قالوا : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء » بقوله : « انى أعلم ما لا تعلمون » يصح أن نعترض كما اعترضوا ، ونجعل حجتنا فى السخط على الانسـان هى

ما نراه من ظواهر الفساد وسفك الدماء بعد أن نظر الله تعالى اليها فى مجموعها نظرة سماح فى سبيل تحقيق الغاية الكبرى من حياة هذا النوع ؟

ان أسرار قصة آدم هذه كما أوردها القرآن فى اوائل سورة البقرة ، اعظم مفتاح للغز الحياة ، واعظم تاج على راس البشرية ، واعظم صوت يطرد اليأس من مستقبل الانسان ، واعظم تفسير لما يبدو من شروره ، واعظم دافع الى الكفاح لتحقيق كماله المرجو !

وانى دائما أقول : انه يجب على المفكرين ألا يسرعوا بحكمهم النهائى على الانسانية ، مع انهم لم يتبينوا خاتمة حياتها ، ولم يدركوا « القطفة » الأخيرة من ثمارها .. ولعلها لا تزال فى دور الشباب الطائش ، ولعل وراء طيشها كهولة عاقلة . وما دام الله تعالى لم ييأس منها — ولن تفوت عليه تعالى غاية أرادها — فينبغى لنا ألا نيأس منها كذلك ، فما دام يسمح بخروج بذور انسانية ، فلا تزال الغايات والنتائج الصالحة منها ، بعضها يتحقق وبعضها ينتظر تحقيقه .

وما عهدنا نوعا ما فى الطبيعة سلك غير الطريق التى رسمها له الله « أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » ، فلماذا يستثنى الانسان ويجعله يسير فى غير طريقه التى رسمها له ؟ وفيماذا يكون الاستثناء فى الانسان أثمن شىء فى الأرض ؟ !

* * *

ولم يدر المعترض — وهو باحث دينى — أن الله تعالى لا يجوز عليه عقلا أن ينعى على الانسان صفات وطبائع هو الذى قسره عليها وحدها وأخرجه فى قوالبها ، من نطفة امشاج واخلاط من قوى ومواد عمياء حادة ليبتليه ، فليس الانسان اذن ملوما ما دام قد طبع على أن يكون فقط كفورا وهلوعا وجزوعا وكنودا وعجولا وقتورا وضعيفا وأكثر شىء جدلا وخصاما .

وما كان القرآن — هو كلام الله الذى كرم الانسان ودافع عنه أمام الملائكة وأمرهم بالسجود له وخصه بعلم غيب السموات والأرض

وطرد ابليس من الجنة حينما استكبر عليه — ليناقض نفسه فى قضية الانسان ، ويقصد الى ما فهمه المعترض وأمثاله ممن يسوقون دائما هذه الآيات التى ذكرها هو فى مقام الاعتراض على وجهتى .

انما القرآن فى هذه الآيات يصف طبائع الشر التى فى الانسان كما يصف طبائع الخير فيه ، ولم تفد هذه الآيات أن طبيعته مقصورة على الشر وحده . فاذا وقع منه الشر ، فهو جدير به لأن فى طبيعته جانبا منه ، واذا وقع منه الخير فهو جدير به أيضا ، لأن فى طبيعته جانبا منه كذلك كما يقول القرآن : «انا هديناه السبيل اماشاكرا واما كفورا» ، «وهديناه النجدين » ، « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم ، ثم رددناه أسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات » ، « ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها » ، « ان ربك واسع المغفرة ، هو أعلم بكم اذ أنشأكم من الأرض ، واذ انتم اجنة فى بطون امهاتكم ، فلا تزكوا أنفسكم هو اعلم بمن اتقى » .

فاذا قال القرآن : « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا الا المصلين » ، فهو يقرر أن من طبع الانسان هذه الصفات ، لأنه « خلق » عليها ، فليقاومها بما يمحوها أو يعدلها كالمداومة على الصلوات والزكاة وأمانة العهد ، وغير هذه من صفات الخير التى ذكرت وراء الآيات السابقة .

واذا قال : « ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير ، وكان الانسان عجولا » . فهو يقرر كذلك أن من طبيعة الانسان التى خلقه الله عليها العجلة : « خلق الانسان من عجل ، سأريكم آياتى فلا تستعجلون » . ولذلك يجب التريث والصبر والسكينة وعدم اختلاس حق الأيام فى انضاج الثمار حسب قوانين الله التى وضعها .

واذا قال القرآن : « وخلق الانسان ضعيفا » . فهو فعلا قد خلق من شيء تافه ضعيف : « الله الذى خلقكم من ضعف ، ثم جعل من بعد ضعف قوة » . « أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة ، فاذا هو خصيم مبين »

وهكذا سائر الآيات التى ذكرها الصديق المعترض تنبه الى ماطبع عليه الانسان من صفات الشر ليحذرها ولا يستسلم لها ، وليقاومها بطبـاع الخير التى طبع عليها أيضا . ولو لم يورد القرآن تلك الطباع فى معرض الذم حينما يستعرض أفعال الأشرار ، ما تنبه اكثر الناس الى انها طباع شر يجب الحذر من تتائج الاستسلام لها . وكيف يتنبهون الى أنها شر ما داموا يجـدونها فى طبيعتهم ؟ . وقد بنى الوجوديون فلسـفتهم فى التحلل من قيود الأخـلاق والسـير وراء ما يجـدونه فى أنفسهم من شهوات ، لأنها فى زعمهم طباع تجب الاستجابة لها وعدم اهدارها وكبتها .

والقرآن وهو كتاب تربية ، ما كان له أن يغفل الحملة العنيفة على طباع الشر فى الانسان والانحاء عليها باللوم والازراء ، حتى ينبـه الانسان الى خطرها وتسببها فى قذفه الى أسفل سافلين ما لم يعتصم بما فى طبعه من طباع الخير ، وبما يأتيه من هدى الله .

ولو ربى الأطفال جميعا حق التربية ، ولم يهملوا هـذا الاهمال الشنيع الغالب الذى نراه فى الأمم المتأخرة ، لرأينا أن نسبة الخير ترتفع فى حياة الناس ونسبة الشر تنخفض ، كما وقع ذلك فى عهـد الدولة الاسلامية الأولى ، وكما يقع الآن فى سويسرا ودول شمال أوربا كفنلندا والسويد والنرويج والدانمرك .

وهذا يدل على أن الانسان يتغلب على ما فى طبعه من الشر بالتربية وطباع الخير ، فليس الشر غالبا الا بما يظاهره من فساد النظم الاقتصادية واهمال التربية الدينية والتهذيب والتعليم .

وبعد ، فهذا الفهم الذى فهمه الأستاذ المعترض ، انما هو من آثار السير فى الحدود الموروثة وعدم تغيير طرق النظر بتغير العصور ، وأرجو أن يتحرر فى فهم القرآن من العكوف على الموروثات وحدها حتى تتكشف له أعاجيب ووجوه جديدة من الرأى الذى يشهد « للقرآن » بأنه كتاب البشرية فى جميع عصورها وأحوالها ، وأن من أسرار اعجازه تلك الصياغة العجيبة التى تتسع لوجوه الرأى والفهم على مدى العصور .

وان نوعا يخرج محمــدا وأولى العــزم من الرســل والحكمــاء والصديقين والعلماء والرواد المجاهدين ، جــــدير بأن يوثق به ويؤمن بقيمته ، فان مقياس قيم الأنواع هو لبابها وجوهرها ، وثمر الشجر أقل شيء عددا فيه ، والشوك يكون مع الورد ، والظلام مع النور والفساد وسيلة لادراك الصلاح والحفاوة به .

« ونبلوكم بالشر والخير فتنة » ، فالخير أيضا فتنة !

ورحم الله أبا العلاء اذ يقول :

هــذى طباع الناس معروضة   فخالطوا العــالم أو فارقوا !

وكل ظاهرة من الظواهر الاجتماعية الشديدة الفســاد الآن تحمل كثيرين على عدم الثقة بالانسان وسوء الاعتقاد فيه ، فليست قصص فساد الأفراد التى ذكرها الأستاذ شيئا يذكر بجانب القصص التى تمثلها الجرائم السياسية الكبرى التى يعرضها شيوخ السياسة على مسرح الأرض ، كالمخزاة الداميــة المجرمة التى تمثلها الصــهيونية ، وتنصرها الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة البريطانية .

اجل ، ليست المسألة فى الحكم على الانسانية بأنها للخير أو للبوار مسألة قسوة فرد او جريمة شخص ، فان فساد الأفراد وبخاصة فى عصور الانحطاط ، يكون من الكثرة بحيث لا يحصيه العاد ولكن هل معنى ذلك أن نستسلم للواقع السيء ، ونحطم عقائدنا فى الخير والصــلاح وللقى سلاح كفاحنا لهما !

وقد كانت صيحتى « أومن بالانسان » فى ابان الحرب الأخــيرة ردا لهجوم عنيف على قلبى من موجات التشاؤم والسخط والتبرم من ذلك المجتمع الانسانى الذى اشتعل بالحقد والقسوة والكفر بالقيم العليــا للحياة الانسانية فدمر كل شيء وكفر بكل شيء لأنه فارغ الفــؤاد من العقائد السامية فى الانسان وفى الله خالق هذا الانسان ومكرمه !

وكانت الفكرة التى تسلسل الحديث بها فى هذا الموضوع انما هى

قرار بنفسى وعقائدها السامية فى حياتى الشخصية وحياة النــوع الذى أنتسب اليه .

وعندما يطم طوفان الفساد لا تجد النفس عاصما منه الا باللجوء الى صخرة الايمان بتلك القيم العليا التى تغمر الوجود ، ولا تطمئن النفس الى الحياة الا اذا ظلت لهذه القيم قداستها وهيبتها . فاذا رأيت المدن والمعابد والشيوخ والأطفال والعجزة والمعاهد ، وكل ما قامت عليـــه الحضارة الانسانية من القداسات والحرمات تدكه يد الحــرب المجنونة الفاجرة ، فلى العذر أن ألتمس لنفسى ولمن شاء من الناس افقا ارى فيه تأويل هذه الظواهر الفاسدة والجرائم المنكرة كى اوفق بين عقـــائدى الدينية فى ارادة الله بالناس الخير مهما بدا هذا الخير ملفوفا بالشر ، وبين سير الحياة بالأحياء .. والا فقد عرضت نفسى لمـا تعرض له بعض من كتب الى منذ حين يقول : ان الحياة الانســانية لغــير غاية ، وان الله — تعالى — قد فاتت عليه الغاية من خلق هذا النوع ، فقد خلقهم لعبادته فلم يعبده منهم الا القليل !

وان كل ما ضاعف فى النـــاس فعل الشر وسلبهم الاعتقــاد فى الخير هو ذلك اليأس من الخير ، وذلك الاعتقاد بأن الشر هو الغالب على الطبع البشرى ، وذيوع هذا الاعتقاد فى هؤلاء المحاربين العصريين ، هو الذى جعلهم يحاربون بروح التدمير وعدم الابقاء على شىء ، وما دامت الحياة الشر فليخبطوا فيه خبط عشواء على نحو بيت المعرى :

وبصـــير الأقوام مثلى أعمى فهلمو فى حنــدس نتصادم !

أحد امرين لا ثالث لهما : اما أن نؤمن بأن هذا النــوع الانسانى يمكن الاقلال من شره ، واقامة حياته على مثل الدولة الاسلامية الأولى او على مثل دول سكان الشمال من أوروبا الحالية ، وعندئذ نجــد فى أنفسنا العزائم على الجهاد والصبر والكفاح فى هذا السبيل حتى نصل او نقارب بحسب الطاقة وبحسب قوانين الدنيا .. وعندئذ يستمر سير الحضارة والاصلاح مطردا ويظل الخير له دولة فى الحياة كما أن للشر

دولة ، ولا ضير على العقائد أن يبقى من الشر بقايا ما دام الخير هـــو القانون الحبيب للنفس تلوذ به وتعتصم بعواصمه عند المواقف الفاصلة .. ولكن ان نكفر بهذا النوع ونهدر قيمه الخلقية ، ونفقد الاعتقاد فى آنه مخلوق لغايات كريمة ، ولا نستمع لوصايا الأديان القويمة بالبر وحسن الخلق والدعوة للخير والغضب على الشر ، عندئذ فلنخلع قناع المدنيـــة عن وجوهنا وجوه الذئاب والخنازير والنمور ، ولنفضح كل مواضعات النفاق الاجتماعى ، ولنعلن بصراحة أن وصايا الأديان أخاديع او اغلوطات عظيمة من عبقريات التاريخ الكاذب المدلس ، وأن الانسانية يجب أن تتخذ لها فلسفات فردية يرعى فيها الفرد مصلحته الخاصة ، والأمة مصلحتها الذاتية وتسعى كل أمة أن تكون اربى من غيرها ، لأنه لا رحم ولا نسب بينها وبين غيرها ، وانما هى قطعان وحيوانات بشرية تسعى « لتعيش » فى أضيق حيز .

وأليست الحيـــاة التى وصـــفنا على هـــذا الفرض هى الحياة التى تشقى بها كل أمة وتدمر كل حضـــــارة ؟ ! فاذا أردنا أن نفـــر منها . فلماذا لا نؤمن بفلســـفة تناقضها وتحاربها ؟ ! وهل هـــذه الفلســـفة الا أن « نؤمن بالانسانية الواحدة » . وانها مخلوقة لغايات عليا ليست هذا النزاع على الذهب الأصفر والذهب الأسود والفحم الأسود والفحم الأبيض » وانما هى البحث عن كلمات الله فى الطبيعة ، بحث طالب « العلم » لا طالب « الفائدة » المـــادية وحدها ؟

وأليست هذه الغاية لو تحققت جديرة بأن تشعر الناس جميعا أنهم نوع واحد غريب الوضع فى هذا الكون ! لأنه وحده يفتح ابواب الطبيعة بابا بابا ، ويتدرج فى تسخير قواها درجة درجة حتى وضع يده فى منابعها وحطم أسوار « الذرة » التى هى وحدة بناء الكون المادى ؟

ذلك هو « الوضـــع الأصـــيل » للانســـانية يجب أن يرصـــدها منه الراصدون ليعلموا أى كائن هذا الانسان الذى يحملونه فى اجسادهم ويبادلونه ما صح وما فسد من شأنه وشئونهم !

اما ان يرصده راصد فى « ولد عاق » ، أو « وحش الاسكندرية » أو « سفاح باريس » الأخير ، أو غير أولئك من الثمرات الانسانية المعطوبة الملوثة التى سقطت وتلوثت لضعف روابطها بفروع الشجرة الانسانية ؛ ثم يحكم عليه كله لذلك ، فتلك نظرة سطحية جزئية لا تليق بمن يجعل عقله ميزان حكم على الكون ومرآة رصد لأعاجيبه التى لا تنفد فى حرب الخير والشر ، وعراك الصلاح والفساد ، وصراع الموت والحياة وقذف الحق على الباطل !

وانى أسأل صديقى المعترض : لماذا يفقد ثقته وايمانه بالانسانية لأجل مثل من العقوق يقابله أمثال من البر بالآباء ؟ هل جميع الأبناء مثل هذا الابن العاق ؟ ولماذا تألم قلبك من هذا المثل الشرير ؟ أليس لأن قلبك ينكره ؟ اذن ففى قلوب الناس نوع خير ينكر الشر ويضربه مثلا ، ويكتبه قصة يشنع بها ويسمع بصاحبها ، ويجد فى قلوب الناس صدى لألم قلبه ، لأن « البر لا يبلى » . وما دام فى الانسانية خير وشر فلم نيأس منها ونزرى بقضيتها ؟ لماذا نحرق الحقل كله لنتخلص من الزوان ؟ !

ان الأولى بنا أن نعتقد أن الانسانية كحقل من النبات ، الأصل فيه ان ينبت اكثره نباتا حسنا ، ويؤتى أكله وثمره اذا تعهدناه بالسقى والرعاية والحراسة من الآفات والحشرات التى تعطبه وتفسده وتجعل أكثره ينبت نباتا سيئا . ولا بد أن يكون فيه المعوج بالطبيعة ولكنه لا يكون الأكثر فى العادة .

ولن يفقد الزارع أمله فى الزرع ان خانه حظه فى موسم من المواسم فييأس ويقول : ان هذا النوع من الزرع ملعون ! ولن أزرعه ، الا اذا كان أحمق .

ونحن الذين نعلم أن « كل مولود يولد على الفطرة » ثم تلحقه عوامل التربية والبيئة فيتكيف بها ، ينبغى لنا أن نتربص ونتوجه بكل جهود الاصلاح الى قلوب الطفولة منطقة النمو الانسانى ، ونجتهد أن تنبت نباتا طيبا وعلى الله الباقى !

متى النور يا ظلمات؟

مع النور الصادق ـ الظلام الغاسل من النور الكاذب ـ الفتنة بعبقريات الظلام ـ تفاؤل وأسبابه ـ ابتداء دورة زمنية ـ تأويلات ـ الكلمات الحمراء تهيج القطيع الوديع ـ مات الميت فليحى الحى ! ـ تدريب عنيف لمستقبل مجهول ـ الحياة تنقل أقدامها الى المجاهل ـ لندن هدمها الانجليز لا الالمـــان ! ـ هل وعى الانجليز الدرس ؟ ـ هل ينسى الامريكان كما نسوا من قبل ؟ رسالة مدخرة للعرب أمة المستقبل .

حين يطبق ظلام الحرب العصرية على جميع آفاق الأرض . . ويختفى النور الصناعى الذى تتسلق الانسانية عليه الى سبحات الجمال الموقوت والفن والطمأنينة الكاذبة . وترتد الأحلام السعيدة الى واقع الشجن والألم والطمأنينة الكاذبة . وترتد الأحـــلام السعيدة الى واقع الشجن والألم والانتكاس ، فتعانق أشباح الكهوف والمغارات ، وتصير قلوب بنى آدم أوكارا لمخلوقات شنيعة شوهاء هن بنات الظلام والغدر والخيانة والجريمة والخديعـــة !

حينئذ لايبقى للانسانية غير ينابيع نور الطبيعة تستصبح به .. لايبقى لعيونها غير الشمس والقمر والنجوم .. ولا يبقى لقلوبها غير النـــور الأزلى قبل الأزمنة والدهور .. ولا يبقى لأفكارها غير الهامات الحـــق الواضح فى الطبيعة .

أما الفلسفات والآراء والنظريات البراقة التى ترددها منابر المعاهد والمجامع ومجالس الترف العقلى ، فتختفى مع اختفاء الأنوار الصناعية التى أوقدتهـــا الأيدى المظلمة النجسة التى لم تتطهر بنور الله ، وتطير بكتبها وسجلاتها قذائف الحديد والنار ..

ترى : هل تكون أمواج الظلام فى هذه الحـــروب العصرية طوفانا يغسل الأرض من ذلك النور الصـــناعى المدلس الذى لم ينسكب من منابع الحب ويد الله ؟ وانما من يد الشيطان الذى طمس وجه الحياة ،

وجعلها فى نظر الأحياء ليست أكثر من اقتناء الفحم الأسود و « الفحم الأبيض » والذهب الأصفر و « الذهب الأسود » ؛ ثم أغـراهم بذلك وجعلهم وراءه يتراكضون تراكض الذئاب بالأظفار والأنيـاب فى عصر العجز والقصور ، وبالفياصل والمناصل فى بدء عصر التغلب والقدرة ، ثم بالطائرات والغائصـات والبارجات والجرارات فى عصر بلوغ الأشـد واكتمال السلطان ! ؟

أم أن القلب البشرى لا يزال ولن يزال يعبد الظلام ويفىء اليـه ويأنس بسكانه ، ويرى فى عالمه عبقريات يجب الرجوع اليها على فترات من الزمان ؟ ولن تزال وثنيات الجنس ، وخيلاء القومية وعبادة البطش وشهوات الاقتناء ، عقائد مقدسة يفلسف لها وتصـطنع فى حبها ترانيم وأناشيد ، وتقدم لمذابحها قرابين من اللحوم البشرية ولمجامرها بخـور وعطور من الأموال والمقتنيات ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ؟

أما أنا فتغمر قلبى موجة من التفاؤل الأكيد حول مستقبل سـعيد قريب للانسان . وظنى أن هذه الظلمات تتمخض عن فجر ابلج وضاح ، يغمر آفاق الأرض غمرا طويلا كما غمرتها هذه الظلمات طويلا . . لأن قواد المعسكرين الهائلين المتحاربين لا ينفكون يرددون على أسماع الأمم التى فى أيديهم أزمتها ومقـاليدها أنهم يحاربون فى سـبيل خلق عالم انسانى عادل سعيد هانىء بعد الحرب ؛ فاذا حدثت القواد نفوسهم أن يخيسوا بوعودهم وينقضوها ، فان المجهودين المنهوكين من جنود الحرب وعمالها ومنكوبيها سوف ينكلون بهم تنكيلا ، سواء أكانوا منصورين أم مخذولين ، لأن الجرائم التى ارتكبت فى هـــذه الحرب لا تغتفرها الشعوب الا اذا رأت انها اسلمت الناس الى عالم اسعد واكمل من العالم الحالى ، ولأن الحياة الاجتماعية لا تحتمل حربا كهذه الحرب التى تدمر الانسان مع ما أقامه من المدن والأعمال ومخلفات التاريخ ومقـــدسات العقائد والوصايا الخلقية بالأطفال والعجزة والشيوخ والنساء .. ولأن حربا بعد هذه الحرب لا بد أن تكون أدهى منها وامر ، بحيث تسحق « براعم » الحياة المدنية واصولها سحقا لا يبقى ولا يذر ، بما وصل اليه

هذا الانسان العجيب وما سيصل اليه فى فترة السلم التى تعقب هـــذه الحرب ! .

* * *

ويخطىء من يظن هذه الحرب صورة من ذلك العراك التقليدى بين بنى البشر ، وأنها ثورة غرائز وحب غلبة بين مجموعة ومجموعة من أمم تحب الحرب للحرب ، وتمجدها لا لشىء الا اندفاعا وراء تلك الغرائز والحركات التاريخيــة الموروثة .. ان من يظن ذلك ذو نظرة متخلفــة ، لا تزال تعيش فى حدود النظرات الأولى للانسان .

ان هذه الملحمة الكبرى تحول عميق أصيل عظيم فى توجيه الحياة . الحياة الخاصة للامة الواحدة ، والحياة العامة للامم جميعا .. فلنتيقظ لهذا ولنؤمن به ، ولنعمل له .

وان القدر يؤذن بميلاد حياة جديدة ، وابتداء دورة زمنية بعقــل الانسان وقلبه وجسمه بعد هذه الحرب الحطمة الضروس التى تهــدم مثل العالم القديم الضيقة بمثلها وأفكارها الحرة كمــا تهدم مبانيــه ومخلفاته بالديناميت .

وها هى ذى مواكبها ومراكبها وجراراتها العنيفة وزواحفها وطائراتها القاذفة والمنقضة والمترنحة والشراعية والهابطة ، وصواريخها وأبواقهــا وأنفاسها فى الأثير ، وعيونها الكشافة ، وحشود جيوشها الآخــذة من شمال الأرض وجنوبها وشرقها وغربها فى قاراتها الخمس وبحارها السبعة ومن وراء كل أولئك عقول جبابرتها وأساطين علمائها ، ومعالمها الساهرة ومناجمها الحافرة ، ومحادثاتها السرية والجهرية ، ومؤامراتهــا والدماء والأرواح المبذولة فيها من الجيوش البيضاء والســوداء والصـــفراء والحمراء ، والعروش المقوضة والصوالج والمقاليد المحطمة ، والحديث عنها بكل لسان وبين كل قبيل من المتحضرين والهمج .

ألا ان الحياة تنقل أقدامها بهذه الحرب الى المجاهل ، حينما رأت ان كثيرا من بنيها لم ينهضوا بعد من مراقدهم فى الكهوف والغابات لمشاهدة

مواكبها الحديثة التى دقت نواقيسها فى الآفاق ، ولم يشتركوا فى حمل قوائم عرشها العظيم الذى من لم يره ويدرك أسراره ، لا يمكن أن يقال عنه انه ابن زمانه ، وانه حقق الغاية المنشودة من اخراجه للحياة فى زمن بعينـــه .

ولما رأت أن نورها فى دور السلام والاستقرار استأثر به جماعة من الأوصياء الأنانيين ، وتركوا غيرهم من القاصرين يخوضـــون فى الظلام والجهل ، حولت ذلك النور الى شعل ذات لهب وحريق يأكل هذه الصدور الأثرة الأنانية التى ما عرفت قصد الحياة من وضع مصـــابيح النور فى أيديها وخانت أمانات الاستخلاف .

فمن الذى لا يستيقظ ويتنبه بعد كل هذه الضجة النكراء ، ويسرع الى موكب الحياة العظيم بالجسم الخفيف القوى الصـــحيح ، والفكر اللطيف اللماح العالم ، والقلب المؤمن العارف الحامل لأمانات الحياة ؟ !

* * *

واذا أعرضت الانسانية ونسيت آلامها الحاضرة وبؤسها وشـــقاءها بهذه الحرب ، وتركت الأنظمة الجائرة الغاشمة المغلوطة تتحكم فيها ، فويل لها ثم ويل لها ! وويل للذين يقودونها ! وتعسا للمنكوبين بنـــار الحرب من العمال والصناع والجنود ان لم يقفوا فى وجه اللاعبين بالشعوب !

ما أجمل اخاء العالم الانسانى ! وما أقربه فى القلوب البريئـــة من أكثر الناس ! لولا الذين يؤرثون فى صدورهم نار الحرب والحقد ببعض الأناشيد واثارة الذكريات الجاهلية ، والخيلاء العســـكرية ، والألوان الدموية المهيجة !

ان الثيران تظل هادئة مستأنســـة ، حتى يثيرها مثير باللون الأحمر فيحولها الى وحوش فاتكة .

وكذلك قطعان ابن آدم ، تريد الهدوء والاستئناس ، حتى يثيرها مثير بالكلمات الحمراء ، والحماس الكاذب ، وحب الشهرة عن طريق الحرب

والتخريب حين لا يوجد مجال لبعض الرجال للشــهرة عن طريق السلم والعمران واضافة شيء الى بناء الحياة .

وما أعظم خسارة الانسانية فى أبناء السلم الذين ذهبوا ضــحايا هــذه الحرب !

انهم انسانية عالمة عاملة مدربة ماهرة ، كانت قد نجت من عوامل الموت والجهل والجفوة ، وتعبت فى تربيتها ثقافات السلام التى استحدثت بعد الحرب العظمى المــاضية .

انهم ثمار كبيرة نمت فى جمال وصــحة ، ولكنهم الآن يموتون فى جفاف الصحارى وزمهرير الثلوج ، وعلى أذرع الموج الفاغر والهواء المخلخل ، وتحت أثقال الحديد ، وبين صعق القذائف ! وهكذا يذهبون طعمة لوحوش الفلوات وأسماك البحار ، وتتساقط أعضاؤهم بين ركام الثلوج ، كأنهم عصف مأكول أو هباء منثور .

فما أعظم خسارة السلم فيهم بعد انتهاء الحرب ، حين تفتقد العناصر العالمة العاملة الفتية فلا توجد الا بعد حين !

ولكنهم قربان كان لابد من تقديمه فى سبيل مطلب عظيم !
وقد مات الميت فليحى الحى !

وما أعظم ما تحتمــل أعصاب البشر ! انهم برهنوا على أن أرواحهم أقوى من الفولاذ والديناميت ، اذ رضوا أن يغدوا ويروحوا على مواقع هذا الموت الفظيع والعذاب الوجيع ، وهم مع ذلك يطيعون وينشدون .. واذ رضوا أن تهدم ديارهم وأموالهم ، وتنسف أطفالهم وحبيباتهم .

ذلك تحرر وانطلاق فى سبيل العزة وصيانة العقائد .

أين صور الأهوال ووقعها فى نفوس الناس قديما ؟ من كان يظن أن يعيش فترة ينتظر فيها نزول الصواعق والنواسف كل لحظة من السماء ، وهو مع ذلك يأكل ويباعل ويرقص ويغنى ويقتنى الأموال وينشد الرفاء والأطفال ؟ !

من كان يظن أن يفعل الناس هذا وهم فى ساحات هذه القيامة ؟ !

ما أوثق ما ربط الله الانسان بالأرض !

هذه النفس البشرية أقوى وأبقى من هذه الأهوال ؛ لأنها هى التى صنعتها ولذلك لاتخشاها .

ألا يجوز أن يكون هذا الاحتمال الصابر الذى بدا من النفوس البشرية تحت آلام النار والحديد ، تدريبا لها من الأقدار العليا ، واعدادا لمستقبل مجهول ستحتمل فيه آلام اختراق الحجب الكثيفة التى تحول بينها وبين علم الكثير من غيب السموات والأرض ؟ !

ألا يجوز أن يكون هـذا التسابق العنيف بين الدول المحاربة فى اختزال الأبعاد والمسافات واقتحام العقبات ، انما هو حبو على عتبات باب من الانطلاق والتحرر من قيود الأرض (١) .

ألا انها الطبيعة الجامدة الميتة تلبس هذه الأجساد الحية الثائرة المترعة بالحياة المتجددة ، الآخذة من موارد علم الله وقوته وقدرته !

ألا انها القوى التى طال سجنها وكمونها فى صدر الأرض ، وجدت سبيلها الى الانطلاق والظهور على يد الابن البكر للأرض !

ألا انها جن خفية تركب مراكبها وتتدافع منطلقة من سجونها فى التراب !

أطلقتها يد الانسان الذى لايزال ذاهلا عما يصنع ، ذهول النحل عما تمزج ، أو دودة القز عما تنسج !

هذه الحرب عملية هدم ما على الأرض وما فى نفس الانسان ليحدث الله بعد ذلك أمورا .. وقـد غمرت موجتها كل البقاع . استيقظ على قوارعها سكان خط الاستواء فى مجاهل القارة السوداء ، وسكان الأراضى الثلجية البيضاء وسكان ما بينها ، وسـكان الجـزر النائية المنثورة فى المحيطات ، وامتزجت منهم جميعا فى جميع البقاع مجموعتان من الجيوش تقاتل كل منهما فى سبيل غاية واحدة .

---

(١) ، (٢) كتب هذا قبل اطلاق المراكب والصواريخ بالانسان الى الفضاء الكونى بعشرين سنة للاقمار الصناعية بالحيوان تمهيدا لاطلاقها بالانسان .

وان الأقدار تحررهم من التاريخ السيء و « تصفى » ميراث الشراهة والحقد .

فهذه آثار لندن العزيزة على أهلها تهدم ، هدمها الانجليز لا الألمان ! تحرروا من حبها وقدموها فداء حرية نفوسهم وعقائدهم فى الحياة . ولعلهم قد تذكروا بعد أن خوت مدينتهم على عروشها أن النفس هى الباقية ، أو هى الجديرة بحرص المرء على بقائها سالمة كريمة ، وما عداها ففداء لها . وتلك حقيقة من حقائق الايمان كان الانجليز قد أوشكوا أن يفقدوها حينما تدفقت عليهم سيول الأموال من بقاع الامبراطورية قرونا طويلة .

ولعلهم تذكروا كذلك أن حرية كل شعب خاضع لهم يجب أن تكون أعز عليه من كل شيء بعد أن هددت حريتهم من عدو جبار ، وكانوا قد نسوا ذلك أيضا فى تلك الفترة الطويلة التى حكموا فيها أمما ولم تحكمهم أمة . ولعله يكون لعلمهم وتذكرهم هاتين الحقيقتين من حقائق الايمان ، اكبر الأثر فى عملهم على اقامة عالم سعيد على أنقاض القديم . واذا نسى الانجليز أو تناسوا تلك الحقائق بعد هذه الحرب ، فيرجوا العالم ألا ينسى الأمريكان الذين كانوا بنجوة من الحروب الحديثة وويلاتها بعد أن تحرروا من وثنيات الأجناس والدماء المختلفة ، ونعرات القوميات المفرقة وسعار الاحتكار والاستعمار .

و « بعد » ، فان هذه الملحمة العظمى وعواقبها ، ينبغى أن تضاعف فى قلوب العرب عزائم الاستعداد لانتقال عظيم يجب أن يسرعوا فيه لاقامة الحياة العادلة السعيدة التى تخدم أهداف الانسانية جميعا . وانهم لجديرون أن يقدموا للعالم أعظم المبادىء التى تقوم عليها السلامة الاجماعية والمساواة الفردية والدولية التى تنشدها الأمم وتنادى بها .

ويبدو من تفاقم مشكلات السلم التى رأيناها ترفع رءوسها البغيضة ، وتوشك أن تعود بالانسانية الى سيرتها الأولى ، مع أن الحرب لم تكد تضع نصف أوزارها .. ! ان العالم الأوروبى لا يزال غير راغب للآن أن ينهض برسالة العدالة والمساواة والأخوة كما يعرفها العرب والمسلمون .. فلعل الله يدخر هذه الرسالة لهؤلاء فى المستقبل كما شرفهم بها فى الماضى !

فليسارعوا الى حياة الحق والعدالة والجمال التى فى ميراثهم بأرواحهم وأجسامهم ومجتمعاتهم ، حتى يكونوا نماذج مجسمة لما سيقدمونه للعالم من مبادىء وحلول للعقد والمشكلات .

وليعلموا أن هــذا هو أوان التبشير والدعوة الى مبــادىء روحهم العالمى الذى قام على أصول أديان الحق التى ارتضتها البشرية فى المشرق والمغرب .

« ولقد كتبنا فى الزبور من بعــد الذكر أن الأرض يرثها عبــادى الصالحون » .

« كتب الله لأغلبن أنا ورسلى ! ان الله قوى عزيز »

فهرس

صفحة

تقديم لفقيد الفكر الاسلامى الشيخ مصطفى عبد الرازق ٣
الاهـــداء ٥
ابتهال ورجاء وتعريف ٧
مقدمة الطبعة الثانية ١٣
أطرحها قضـية ١٩
فى موازين الحس والفكر والضمير ٣٣

عقدة الثمرة الفكرية من هذا الكتاب

نظرة المفارق لنفسه ٣٧
نظـرات فى الفلسفة والعلم والدين ٤٤
فوق الموازنة ٥٣
مسرح هائل وممثل واحد ٥٩
الانتظـــار ٦٧
منابع الفكر ومصابه ٧٣
نضجت الثمار وآن القطاف ٨٣
الضمير ووصايته على الحياة ٨٩
حيث الانس بالانسـان ٩٩
التحرر من التـــاريخ ١٠٩

فى اصول الاجتماع والسياسة والاقتصاد

عقيدة النوع ١٢١
النفس والتكامل ١٢٧
الواحـــد ١٣٧
اللؤلؤة والصدفة ١٤٣
الفكر والسلطة ١٤٩
ثورة الفكر على الواقع ١٥٧
المسألة الافعوانية ١٦٥
جرائم التفـاوت الفاحش ١٧١
الحرب وعبرتها ١٧٧

صفحة

نحو اساس روحي للحضارة المادية

بين ألوعى وألذهــول ١٨٥
صــوفية مادية ١٩٣
الباقى من صانع الحضارات الفانى ٢٠١
الى العقل الغربى من الروح الشرقى ٢٠٥

أما بعد ... !

فى معترك الآراء ٢١٧
متى النور يا ظلمات ؟ ٢١٩
الفهرس ... ... ٢٤٧ — ٢٤٨

دار ومطابع الشعب